كتاب

آثار ابن باديس

الجزء الثاني من

المجلد الأول

تفسير وشرح أحاديث

اعداد وتصنيف

دكتور عمّار الطالبي

الشركة الجزائرية

لصاحبها

الحاج عبد القادر بوداود

24 ، شارع باب عزون - الجزائر

الشركة الجزائرية
لصاحبها
الحاج عبد القادر بوداود
24 ، شارع باب عزون - الجزائر

الطبعة الأولى ١٣٨٨ هجرية = ١٩٦٨ ميلادية
الطبعة الثانية ١٤٠٣ هجرية = ١٩٨٣ ميلادية
الطبعة الثالثة ١٤١٧ هجرية = ١٩٩٧ ميلادية

آثارِ ابن بادیس

۲

العلّامة الثائر الامام عبد الحميد بن باديس

رائد النهضة الحديثة بالمغرب العربي
وقائد الحركة الإصلاحية ومؤسسها بالجزائر

يشتمل المجلد الأول من هذه الطبعة على مدخل للحياة العقلية والثقافية للمغرب الاسلامي ، وعلى حياة ابن باديس وآثاره المتعلقة بالتفسير ، وشرح الحديث ، وقد قسمنا هذا المجلد الأول الى جزاين ، وهذا هو الجزء الثاني ، كما يشتمل المجلد الثاني على المقالات الاجتماعية والتربوية والاخلاقية والدينية والسياسية التي دبجها يراع الشيخ الامام الاستاذ عبد الحميد بن باديس . وهذا المجلد الثاني قسم ايضاً الى جزاين .

وقد كلفت دار اليقظة العربية لجنة من كبار علماء دمشق للقيام بتصحيح آثار ابن باديس اثناء طبعها ، وذلك حرصاً منها على ان يصدر هذا الكتاب الذي له اهمية بالغة في النهضة الاسلامية العربية الحديثة في المغرب الاسلامي سليماً من الأخطاء ، خالياً من التحريف .

ملك النبــوة

مجمع الحق والخير ومظهر الجمال والقوة

القسم الأول

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » [1] .

تمهيـد :

النبوة :

منزلة من الكمال التام البشري يهيىء الله لها من يشاء من عباده فيكون بذلك مستعداً لتلقي الوحي والاتصال بعالم الملائكة ولتحمل أعباء ما يلقى اليه وتكاليف تبليغه بالقول والعمل ، وتحمل كل بلاء يلقاه في سبيل ذلك التبليغ .

والملـك :

ولاية على المجتمع لحفظ نظامه ، تقتضي عموم النظر وشمول التصرف في روابط الناس ومعاملاتهم وتصرفاتهم ، وتسييرهم في ذلك كله على أصول عادلة توصل كل أحد الى حقه وتكف فه [2] عن حق غيره ، ليعيشوا في رخاء وسلام ، ويبلغوا غاية ما يستطيعون من متع الحياة .

---

(١) ١٥/٢٧ النمل .

(٢) كذا في الاصل ، ولعلها : (وتصرفه) .

وقد يتصف الشخص بالنبوة دون الملك فيكون مبلغا عن الله ولا يكون له التنفيذ والإدارة والتنظيم ، وقد يتصف الشخص بالملك دون النبوة ، وقد وجد الشخصان في شمويل وطالوت فكان الأول نبيا وكان الثاني ملكا كما قال تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً »(1) وقد يجمع بينهما مثل داود وسليمان عليهما السلام .

ثم ان الملك قد تكون الأصول التي يستند اليها مستمدة من أوضاع البشر لحفظ مصالحهم في الحياة الدنيا فيكون ملكا بشريا . وقد تكون الأصول مستمدة من وحي الله بما فيه حفظ مصالح العباد في الدنيا وتحصيل سعادتهم فيها وفي الاخرى فيكون ملك نبوة .

ومن طبيعة ملك النبوة التزام الحق ونصرته حيثما كان ، باقامة ميزان العدل في القول والحكم والشهادة بين الناس أجمعين ، المعادين والموالين ، كما قال تعالى : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى »(2) « وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ »(3) « وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ، إعدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى »(4) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا

---

(1) ٢/٢٤٧ البقرة .
(2) ٦/١٥٢ الانعام .
(3) ٤/٥٧ النساء .
(4) ٥/٩ المائدة .

الهَـوَى أَنْ تَعْدِلُوا ، وَأَنْ تَلْوُا أَوْ تُعْرِضُوا فإنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »[1] . وبالوفاء بالعقود والعهود بين الأفراد والجماعات كما قال تعالى : « أَوْفُوا بِالعُقُودِ » [2] « وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا » [3] « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا » [4] « وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ » [5] . وبغير هذا من وجوه التزام الحق ونصرته .

ومن طبيعته بث الخير بين الناس بنشر الهداية والاحسان دون تمييز بين الأجناس والألوان كما قال تعالى : « وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[6] « وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ » [7] « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا

---

(١) ١٣٤/٤ النساء .

(٢) ١/٥ المائدة .

(٣) ١٥٢/٦ الانعام .

(٤) ٩١/١٦ النحل .

(٥) ٩٢/١٦ النحل .

(٦) ٧٧/٢٢ الحج .

(٧) ١٩٥/٢ البقرة .

إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ »[1] .

ومن طبيعة الدعوة الى القوة والتنويه بها وبناء الحياة عليها ، لكن في نطاق العدل والرحمة ولدفاع المعتدين ، كما قال تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » [2] « وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » [3] وقبلها : « وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ » فقوة الحديد لحفظ الكتاب ، والميزان وحمل الناس عليها . « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ » [4] « وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ، وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » [5] .

ومن طبيعته الدعوة الى الجمال والتحبيب فيه في جميع مظاهر الحياة لكن في نطاق الفضيلة والعفاف كما قال تعالى: « لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ »[6]، « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ

---

(١) ٨/٦٠ المتحنة .

(٢) ٦١/٨ الانفال .

(٣) ٢٥/٥٧ الحديد .

(٤) ١٩٤/٢ البقرة .

(٥) ٣٩/٤٢ ـ ٤٠ الشورى .

(٦) ٤/٩٥ التين .

صُوَرَكُمْ » [1] « أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى »[2] « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ »[3] « حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ »[4] « فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ »[5] « مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »[6] « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » [7] « الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ »[8] « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » [9] .

ومن طبيعة الملك البشري ـ وان روعيت في أوضاعه هذه الأصول الأربعة ـ انه لا يقيم ميزان العدل بين أبناء المملكة وغيرهم فتراه يكيل لهؤلاء بمكيال ولهؤلاء بمكيال . ولا يرعى من العهود ـ في الغالب ـ إلاّ ما لا يعارض مصلحته أو تلزمه بمراعاته قوة خصمه .

كما انه يكاد يقصر بره واحسانه على أبناء جلدته ومن كانوا من جنسه ولونه ، كما انه يبني أمره على القوة المطلقة فتندفع مع رغباته

---

(١) ٤٠/٦٤ المؤمنون .
(٢) ٢٠/٥٠ طـه .
(٣) ٣٧/٦ الصافات .
(٤) ١٠/٢٤ يونس .
(٥) ٢٧/٦٠ النحل .
(٦) ٢٢/٥ الحج و ٥٠/٧ ق .
(٧) ٧/٣١ الاعراف .
(٨) ٥/٦ المائدة .
(٩) ٢٤/٣٠ النو ر.

الى أقصى ما يمكنها أن تصل اليه فيكون البغي والتسلط والعدوان .
كما انه تستهويه زينة الحياة الدنيا وزخارفها فتمتد يده اليها حيثما وجدها فتتنازعها الأيدي بالقوة والحيلة وتذهب في أفانينها الشهوات بالناس الى النقص والرذيلة .

ثم ان طبيعة الملك من حيث انه ملك ــ سواء أكان بشريا أم نبويا ــ مظاهر الابهة والجمال والقوة والفخامة ، لما جبل عليه الخلق من اعتبار المظاهر والتأثر بها ، وهذا اذا كان في الحق فهو محمود مطلوب واذا كان للباطل والبغي والتعظيم النفسي فمذموم متروك .
ومن الأول أمر النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ عمه العباس ــ رضي الله عنه ــ أن يحبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى تمر عليه كتائب المسلمين وذلك لادخال الرعب على قلبه بما يرى من النظام والقوة ، فحبسه العباس فجعلت الكتائب تمر به فيسأل العباس عن كل كتيبة فاذا أخبره قال : مالي ولبني فلان ، حتى مر رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم الا الحدق من الحديد ، فقال : من هؤلاء ؟ فقال العباس : هذا رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ في المهاجرين والانصار ، قال ابو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما . قال العباس : فقلت له : انها النبوة ، فقال : فنعم اذن . قصد أبو سفيان عظمة الملك القاهر التي كان يعرفها من الأكاسرة وأمثالهمفنفى ذلك العباس ورده الى النبوة التي هي أصل تلك القوة ، وذلك الملك النبوي المستند الى الوحي الإلهي ولم يرد نفي الملك جملة ، ومنه ما كان معاوية بالشام : لما قدم عليه عمر وجده في أبهة من الجند والعدة فاستنكر ذلك وقال له : أكسروية يا معاوية ؟ فاعتذر معاوية بأنهم في ثغر تجاه العدو ، وأنهم في حاجة الى مباهاة العدو بزينة الحرب والجهاد فسكت عمر وأقره . فذلك المظهر من مظاهر طبيعة الملك من حيث هو

ملك وانما أنكره عمر لما خاف فيه من تعظم واستعلاء واعجاب . فلما كان للحق والمصلحة أقره .

ومن أقوى الأدلة على أن تلك المظاهر إذا كانت للحق والمصلحة فهي محمودة مطلوبة ، ما قصه الله علينا في هذه الآيات عن ملك سليمان نبي الله عليه الصلاة والسلام .

نعم في مسند أحمد ان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ خير من أن يكون نبيا ملكا أو يكون نبيا عبدا فاختار أن يكون نبيا عبدا . وكان ذلك تواضعا منه . ولا ينفي هذا انه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما كان مبلغا عن الله تبارك وتعالى كان قائما على الحكم والتنفيذ وادارة الشؤون العامة وتنظيم المجتمع مما يسمى ملكا نبويا مستندا الى الوحي الإلهي ، لان التخيير راجع الى حالته الشخصية الكريمة فخير بين ان يكون لشخصه من مظاهر الملك مثل ما كان سليمان أو لا تكون له تلك المظاهر فاختار أن لا تكون وان يكون مظهره مظهرا عاديا مثل مظهر العبد العادي . كما سليمان ـ عليه السلام ـ الذي كان ملكا نبيا لم ينف ذلك عنه العبودية ، وانما ينفي عنه مظهرها العادي .

فهما حالتان للقائمين على الملك جائزتان ، كان على احداهما سليمان وعلى الاخرى محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وحالة أفضل النبيين أفضل الحالتين . وقد اختار عمر ـ رضي الله عنه ـ الفضلى وأقر معاوية على الفاضلة الاخرى .

ولما كان محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ جاء بملك النبوة كان القرآن العظيم جامعا للاصول التي ينبني عليها ذلك الملك ، وجاء فيه مثل هذه الآيات التي نكتب عليها ليبين صورة من صور ملك النبوة ومظهرا صادقا من مظاهره فيما قصت علينا من ملك سليمان ـ

عليه السلام ــ وهي ثلاثون آية ، من الآية الخامسة عشر من سورة النمل الى الآية الرابعة والاربعين منها .

الآية الاولى وهي : ١٥

الالفاظ والتراكيب :

علماً : نوعا عظيما ممتازا من العلم جمعا به بين الملك والنبوة ، وقاما بأمر الحكم والهداية . وقالا : قولهما متسبب وناشيء عن العلم لكنه لو قيل فقالا ، بالفاء ، أفاد ان غير القول تسبب منهما عن العلم ولما عطف بالواو على أن هنالك أعمالا كثيرة عظيمة كانت منهما في طاعة الله وشكره ، ونشأت عن العلم وعليها عطف قولهما هذا . فضلنا : أعطانا ما فقنا به غيرنا . على كثير : فهنالك كثير لم يفضلا عليه ممن ساواهما أو فاقهما . من عباده المؤمنين : ففضلا بين أهل الفضل فكانا من أفضل الفاضلين وذلك بما أعطيا من النبوة وملكها .

المعنى :

يخبرنا الله تعالى عما أعطى لهذين النبيين الكريمين من هذا الخير العظيم ، وعما كان منهما من الشكر له ، والمعرفة بعظيم قدر عطائه . واظهار السرور به مع الاعتراف لغيرهما بما كان من مثله أو نحوه ، ومن إعلانهما ما كان لله عليهما من نعمة التفضيل العظيمة بحمده والثناء عليه .

تنويه وتاصيل :

قد ابتدىء الحديث عن هذا الملك العظيم بذكر العلم وقدمت النعمة به على سائر النعم تنويها بشأن العلم وتنبيها على أنه هو الأصل الذي تبني عليه سعادة الدنيا والاخرى ، وانه هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا . وان الممالك انما تبنى عليه وتشاد ، وان الملك

انما ينظم به ويساس وان كل ما لم يبن عليه فهو على شفا جرف هار . وأنه هو سياج المملكة ودرعها ، وهو سلاحها الحقيقي وبه دفاعها وان كلَّ مملكة لم تحم به فهي عرضة للانقراض والانقضاض .

احمـاض :

قال أبو الطيب المتنبي :

أعْلَى الْمَمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الأَسَلِ
وَالطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيهِنَّ كَالْقُبَلِ

نعم إن محبي الممالك الصادقين في محبتها والذين تصلح لهم ويصلحون لها هم الذين يستعذبون في سبيلها الموتَ ، ويكون الطعن عندهم مثل القبل على ثغور الحسان ، فاما الممالك التي تبنى على السيف فبالسيف تهدم . وما يشاد على القوة فبالقوة يؤخذ ، وانما أعلى الممالك وأثبتها ما بني على العلم ، وحمي بالسيف ، وانما يبلغ السيف وطره ويؤثر أثره ، اذا كان العلم من ورائه .

ولكن أبا الطيب شاعر الرجولة والبطولة ، شاعر المعارك والمعامع ، لا يرى أمامه الا الحرب ، وآلات الطعن والضرب فلا يمكن أن يقول — وقد غمرته لذة الانتصار ، واستولت نشوة الغلب والظفر على لبه وخياله — الا ما قال .

فقه وادب :

يجوز لمن أنعم الله عليه بنعمة وفضله بفضيلة أن يفرح بتلك النعمة ويظهر فرحه بها في معرض حمد الله عليها ، من حيث انها كرامة من الله لا من حيث إنها مزية من مزاياه فاق بها سواه ، مثلما فعل هذين النبيين الكريمين ، وكما قال تعالى : « قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ

َفبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا »[1] •

وكثيرا ما يكون التفات المرء الى نفسه حاجبا له عن غيره فيذكر من شأنه ما أفرحه ويسكت عن غيره وفيهم من هو مثله ومــن يفوقه ، فقد يجر هذا الى عجب بنفسه وغمط لحق من عداه • فلهذا كان من أدب مقام الفرح بنعمة الله وحمده عليها ، ذكر نعمته العامة عليه وعلى غيره ، والاشارة الى من فضلوا عليه • فيكبح من نفسه بتذكيرهــا بقصورها ، ويرضي الله باعترافه لذي الفضل بفضله وحكمة الله وعدله ، وبوقوفه كواحد ممن أنعم عليهم من عباده •

ارشاد واشادة :

إذكار الانبياء ــ صلى الله عليهم ــ من حمد وتسبيح وتهليل وغيرها أفضل الاذكار وأجمها وأسلمها ، وقد اشتمل الكتاب العزيز على كثير منها ، فعلى المسلم الحرص على الخير بها علما وعملا ، فقد رأيت ما يحف باظهار الفرح بنعمة الله من مخاطر إذا لم يتنبه لها ، وقد جاء هذا الحمد النبوي محصلا للقصد سالما من كل خطره بعباراته الموزونة الشاملة ، التي لا يصدر مثلها الا منهم لكمال علمهم وأدبهم • عليهم الصلاة والسلام [2] •

(١) ١٠/٥٨ يونس .

(٢) ش : ج ٢ ، م ١٥ ، ص ٥٧ ــ ٦٦
غرة صفر ١٣٥٨ ــ مارس ١٩٣٩

ملك النبــوة

مجمع الحق والخير ومظهر الجمال والقوة

القسم الثاني

الآية الثانية وهي : ١٦ سورة النمل (٢٧)[1] .

« وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » .

الالفاظ والتراكيب :

الارث : انتقال ما كان للميت الى الحي ، فيقوم فيه الوارث مقام الموروث . سواء كان مالاً أو ملكاً أو علماً أو مجداً ، والمراد هنا الملك والنبوة ، علمنا : أعطينا العلم ، ولم يذكر المعلم ــ وهو الله ــ للعلم به ، فان هذا التعليم ليس من معتاد البشر ولا من طوقهم ، منطق الطير : نطقها ، وهو تصويتها ، وقد يطلق النطق على كل ما يصوت به الحيوان ، فالحيوان ناطق والجماد صامت ، وأوتينا : أعطينا ، والنون في الفعلين للعظمة إذ هي حالته التي هو عليها ، من كل شيء : هو على معنى التكثير ، أو على معنى العموم الحقيقي فيما تقتضيه تلك العظمة مما يؤتاه الأنبياء والملوك ، الفضل : الزيادة ، المبين : الظاهر الذي لا خفاء به .

---

(١) المؤلف هو الذي عين رقم الآية واسم السورة دون رقمها .

المعنى :

قام سليمان مقام أبيه داوود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ، فكان في بني اسرائيل من بعد نبيا ملكا • وأراد سليمان أن يشهر نعمة الله عليه وينوه بها ويدعو قومه الى الايمان به وطاعته ، فدعا الناس وذكر لهم ما خصه الله به من علم منطق الطير وعظائم الأمور مما هو خارق للعادة معجز للبشر آية على نبوته • وتحداهم بذلك الفضل الذي امتاز به عن جميع الناس ، وهو مشاهد لهم لا يمكنهم انكاره كما لا تمكنهم معارضته •

فقه وتحقيق :

من ميزة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أنهم يخرجون من الدنيا دون أن يتعلقوا بشيء منها فلا يورثون دينارا ولا درهما وانما يورثون العلم • وفي الصحيح : **انا معاشر الانبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة ،** فلم يرث سليمان من داوود مالا وانما ورث ما نوه به من العلم والملك وما دل عليه ذلك من النبوة • وقد خصصه الله بذلك دون بقية اخوته •

تفرقة :

الشيء الموروث ان كان من أمور الدنيا واعراضها ومتناولات الأبدان ومتصرفاتها ، فانه ينتقل بذاته من الميت الى الحي وينقطع عنه ملك الميت • وما كان من صفات الروح فانه لا يفارق الميت ـ لبقاء الروح ـ وانما يقوم الحي مقام الميت في أداء ما يؤديه الميت من أعمال متصفا بمثل ما كان متصفا به الميت ، متحليا بمثل حليته • فارث سليمان للملك هو من المعنى الأول ، فداوود بعد موته لم يبق ملكا وإرثه للعلم والنبوة ، هو من المعنى الثاني ، فداوود بعد موته على علمه ونبوته •

تفرقة أخرى :

اذا كان الموروث مالا فانه يستحق بالقرابة شرعا ، واذا كان علما أو نبوة أو ملكا فانها لا تستحق بها . فلم يرث سليمان من داوود ما ورثه منه لانه ابنه ، وانما كان ذلك تفضلا من الله ونعمة . ولهذا لما دعا سليمان الناس لم يذكر لهم أبوة داوود . وانما ذكر لهم ما كان به أهلا لمقامه مما خصه الله به من علم وقوة ، ومظاهر الملك ومعجزة النبوة .

عجائب الخلقة وحكمة العربية :

الحيوانات كلهم فهم وادراك وأصوات تـدل بها على ما في نفسها ، وتتفاهم بها أجناسها بعضها عن بعض . ومن تلك الأصوات ما يكون أخفى من أن يصل إليه سمعنا ، ومنها ما نسمعه ، ومما نسمعه ما نفهم مرادها به ومنه ما لا نفهمه . فلا نسمع صوت النملة ولكننا نسمع صوت الهرة ــ مثلا ــ ، ونميز بين صوتها الذي تدل به على غضبها وصوتها الذي تدل به على طلبها . وفي مملكة النمل ومملكة النحل ــ مثلا ــ من النظام والترتيب والتقدير والتدبير ما لا يبقى معه شك فيما لهذه الحيوانات من ادراك وتمييز وما بينهما من تفاهم . بل كثير من الحيوانات تصير بالترويض تفهم عنا كثيرا من العبارات والاشارات وتأتي بالأعمال العجيبة طبق ما يراد منها وتدل عليه . فهذا أصل ما بلغت اليه من ادراكها ونطقها اللذين أخبرنا بهما القرآن ، وتلك الغاية من الادراك والنطق لا سبيل لنا اليها لاختلاف الخلقة وجهل مدلولات الاصوات. وقد أدركها سليمان ــ عليه السلام ــ بتعليم من الله كرامة له وآية على نبوته ومعجزة للناس .

فمن حكمة اللغة العربية الشريفة أن سمت أصوات الحيوانات نطقا كما سمت في ، المتعارف ، اللفظ الذي يعبر به عما في الضمير نطقا . لأن الأصوات لغير الانسان تقوم مقام الألفاظ للانسان ، فهي

طريق تفاهمها ، وطريق فهم ما يمكن لانسان فهمه عنها • فلله هذه اللغة ما أعمق غورها وما أدق تعبيرها •

نظر وايمــان :

قد شوهد بالعيان في أنواع من الحيوانات حسن تدبيرها لأمر معاشها ودقة سعيها في جلب منافعها ودفع مضارها ، فمن الجائز أن يصل إدراكها بالفطرة الى ما وراء ذلك من وجود خالقها ورازقها • وهذا هو الذي أخبرنا به القرآن في هذه الآيات من أمر النملة وأمر الهدهد الآتيين من بعد ، فنحن به مؤمنون لجوازه عقلا وثبوته سمعا ، مثل سائر السمعيات •

تمييــز :

قد شارك الحيوان الانسان في الادراك والتمييز وبلغ ادراكــه الى معرفة وجود خالقه ورازقه ، ولكن الانسان يمتاز عنه بقوة التحليل والتركيب لكل ما يصل اليه حسه وادراكه ، وتطبيق ذلك على كــل ما تمتد اليه قدرته ويكون في متناول يده • فمن ذلك التركيب والتحليل والتطبيق تغلب على عناصر الطبيعة وتمكن من ناصيتها واستعمــل حيوانها وجمادها في مصلحته ورقي أطوار التقدم في حياته • ولفقد الحيوان غير الانسان هذه القوة بقي في طور واحد من حياته ومعيشته • فادراك الحيوان فطري الهامي يعطاه من أول الخلقة، والانسان يعطى أصل الادراك الاجمالي ، ثم بتلك القوة يتسع أفق ادراكه ويستمر فــي درجات التقدم وهذه القوة التي يمتاز بها الانسان هي العقل • وهي التي ساد بها هذا العالم الفاني •

توجيه :

ذكر سليمان ــ عليه السلام ــ منطق الطير ، وهو قد علم منطق غير الطير أيضا ، فقد فهم نطق النملة ، ذلك لأن الحيوانات غير

الانسان مراتب : الزاحفة ، والماشية ، والطائرة ، وأشرفها الطائرة فاقتصر على الطير تنبيها بالاعلى على الادنى .

تنزيه وتبيين :

عبر سليمان ــ عليه السلام ــ عن نفسه بنون العظمة ، ونوه بذلك الفضل المبين ، وما كان عليه السلام ــ ليتعظم بسلطان ــ ولا ليتطاول بفضل . فالانبياء ــ صلى الله عليهم ــ أشد الخلق تواضعا لله وأرحمهم بعباده ، وانما أراد تعظيم نعمة الله في عيون الناس ، وتفخيم ملك النبوة في قلوب الرعية ليملأ نفوسهم بالجلال والهيبة ، فيدعوهم ذلك الى الايمان والطاعة ، فينتظم الملك ، ويهنأ العيش ، وتمتد بهم أسباب السعادة الى خير الدنيا والآخرة . وهذا هو الذي توخاه سليمان ــ عليه السلام ــ من المصلحة باظهار العظمة . ولذا لم يقل : علمت ، ولا : لي ، وعندي من كل شيء . ولم يقل : فضلي فهو فضل من علمه أتاه فضله به عمن سواه .

ترغيب واقتداء :

يذكر الله تعالى لنا في شأن هذا النبي الكريم ما أعطاه من علم وما مكنه منه من عظيم الاشياء ترغيبا لنا في طلب العلم والسعي في تحصيل ما بنا حاجة اليه من أمور الدنيا ، وتشويقا لنا الى ما في هذا الكون من عوالم الجماد وعوالم الأحياء وبعثا لهممنا على التحلي بأسباب العظمة من العلم والقوة ، وحثا لنا على تشييد الملك العظيم الفخم على سنن ملك النبوة . فقد كان سليمان ــ عليه السلام ــ نبيا وما كان ملكه ذلك إلا باذن الله ورضاه ، فهو فيما ذكره الله من أمره قدوة وأي قدوة مثل سائر الأنبياء والمرسلين . عليهم الصلاة والسلام أجمعين [1] .

---

(١) ش : ج ٣ ، م ١٥ ، ص ١٠٥ ــ ١٠٩
غرة ربيع الاول ١٣٥٨ ــ افريل ١٩٣٩

ملك النبــوة

مجمع الحق والخير ومظهر الجمال والقوة

القسم الثالث

الآية الثالثة ، وهي : ١٧ من النمل (٢٧)

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » .

الالفاظ والتراكيب :

الحشر : الجمع من أماكن متفرقة ، جنوده : هم المنتظمون في سلك عسكريته ،فجمعوا له عند الحاجة اليهم في سفر أراده . يوزعون : يكفون عن الخروج عن النظام في السير فيمنع أولهم من سبق آخرهم، وآخرهم من التأخر عن سابقهم ، ويمنعون عن الخروج عن الصفوف الى اليمين أو الشمال ، لأن وزعه عن الشيء معناه كفه عنه .

وفي ترتيب الجنود في الذكر مراعاة الأقوى وأعلاهم في ذلك الجن ثم الانس ثم الطير وفي عطف الجملة الثانية بالفاء إفادة سرعة الانتظام بعد الاجتماع . وفاعل حشرهم الاعوان الحاشرون ، وفاعل وزع هم الضباط المنظمون .

المعنى :

كان لسليمان ــ عليه الصلاة والسلام ــ من الجن والانس والطير

جنود معينون معروفون يتركب منهم عسكره . يكونون متفرقين فاذا عرض أمر جمعهم . وكان له أعوان يعرفون أولئك الجنود ويعرفون أماكنهم ، فهم الذين يجمعونهم عند الحاجة اليهم . فأراد سليمان أن يسافر فأمر أعوانه بجمع الجنود فجمعوهم له . فلما اجتمعوا تولى رؤساؤهم تنظيمهم فساروا مع سليمان في كثرة ونظام يتولى أولئك الرؤساء تنظيمهم في سيرهم ويمنعونهم من الخروج عن النظام .

تفصيل :

كما ان للانس من يعرفهم من أعوان سليمان ومن ينظمهم من رؤسائهم كذلك يكون للجن ، وكذلك يكون للطير ، وسلطة سليمان على الجن وتسخيره لهم وسلطته على الطير وفهمه لها وفهمها عنه معجزة له وخصوصية ملك لم ينبغ لأحد من بعده .

تاريخ وقـدوة :

تفيدنا الآية صورة تامة لنظام الجندية في ملك سليمان . فقـد كان الجنود يسرحون من الخدمة ويجمعون عند الحاجة . وكانت أعيانهم معروفة مضبوطة . وكانت لهم هيئة تعرفهم وتضبطهم وتجمعهم عند الحاجة ، وكان لهم ضباط يتولون تنظيمهم ، وكان النظام محكما لضبط تلك الكثرة ومنعها من الاضطراب والاختلال والفوضى .

تعرض علينا الآية هذه الصورة التاريخية الواقعية تعليماً لنا وتربيةً على الجندية المضبوطة المنظمة . ولا شك ان الخلفاء الأولين قد عملوا على ذلك في تنظيم جيوشهم وان مثل هذه الآية كان له الاثر البليـغ السريع في نفوس العرب لما اسلموا فسرعان ما تحولوا الى جنود منظمة مما لم يكن معروفا عندهم في الجاهلية ، وبقيت الآية على الدّهر مذكرة لنا بان النظام أساس كل مجتمع واجتماع ، وان القوى والكثرة

وحدهما لا يغنيان بدون نظام وان النظام لا بد له من رجال أكفاء يقومون به ويحملون الجموع عليه ، وأولئك هم الوازعون •

طبيعة وشريعة :

في عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان نجد الطبيعة ـ بصنع الله ـ تستخلص الأعلى من الأدنى والاقوى من الاضعف ، فتجد الممتاز من أصل الخلق ، وبانتخاب الطبيعة في هذه العوالم الثلاث كما تجد الذهب في المعدن وتجد الزهر والثمر في النجم والشجر ، وتجد المملكة من النمل والنحل مثلا • فالانسان لم يخرج عن هذا القانون الطبيعي ، ففيه الممتازون الذين يحتاج اليهم النوع الانساني في صلاح حاله ومآله ومنهم الذين يتولون حكمه وتنظيمه في أممه ومجتمعاته وجماعاته ، فالهيئة الحاكمة والأفراد المنظمون والقادة المسيرون من ضروريات المجتمع الإنسان ومقررات الشرع الاسلامي مثل ما في هذه الآية من أمر الوازعين • ولما ولي الحسن البصري القضاء ، قال لا بدّ للسلطان من وزعة أي أعوان يكفّون الناس عن الشر والفساد ويتولون تربيتهم وتنظيمهم • وفي رواية : لا بد للناس من وازع ، أي كاف يكف بعضهم عن بعض وهو الحاكم وأعوانه •

وفي حديث ذكره أهل الغريب : **من يزع السلطان اكثر ممن يزع القرآن** ومعناه ، ان من يكفهم عن الشر خوف السلطان وعقابه الدنيوي أكثر ممن يكفهم عن الشر الوعد والوعيد في القرآن • وقد قال الله تعالى : « وَأَنزَلْنَا الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ »

الآية الرابعة : وهي ١٨ من النمل (٢٧) :

« حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ :

يَـا أيُّهَا النَّمْـلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ » •

الالفاظ والتراكيب :

أتوا على وادي النمل : هبطوا إليه من مكان أعلى منه ، وهو بالشام أو بالحجاز ، لم تتوقف العبرة على تعيينه فلم يعين ، وأضيف للنمل لكثرته فيه • نملة : لفظها مؤنث ومعناها محتمل مثل شاة وحمامة • مساكنكم : هي قرى النمل التي يسكنها تحت وجه الأرض ، المحكمة الوضع والتركيب ، والتقسيم ، ولذلك قيل فيها مساكن ولم يقل غيرها • لا يحطمنكم : لا يكسرنكم بالحوافر والأقدام • لا يشعرون : لا يحسون بوجودكم •

الاتيان باذا وجوابها لافادة ان قولها كان يسبب اتيانهم عند أول ما أتوا • لا يحطمنكم : نعتهم عن أن يحطمهم ، والحطم ليس من فعلهم حتى ينهوا عنه • وانما المعنى لا تكونوا خارج مساكنكم فيحطمكم فنهتهم عن المسبب والمراد النهي عن السبب لما في ذلك من الإيجاز المناسب لسرعة الانذار لسرعة النجاة ، ولما في ذكر المسبب وهو الحطم من التخويف الحامل على الاسراع الى الدخول ، والجملة مؤكدة للاولى فكأنها قالت ادخلوا مساكنكم لا تبقوا خارجها • ونظير التركيب في التعبير بالمسبب عن السبب لا أرينك ههنا •• أي لا تكن هنا فأراك•

المعنى :

سار سليمان ــ صلى الله عليه وسلم ــ في تلك الجنود العظيمة يحيط به الانس والجن وتظلهم الطير حتى هبطوا على وادي النمل ، فرأتهم كبيرة النمل وقائدته فصاحت في بني جنسها فنادتهم للتنبيه وأرشدتهم الى طريق النجاة بأمرهم بالدخول في مساكنهم وحذرتهم من

الهلاك بحطم سليمان وجنوده لهم عن غير شعور منهم فلا يكون اللوم عليهم وانما اللوم على النمل اذا لم يسرع بالدخول •

عبرة وتعليم :

عاطفة الجنسية غريزة طبيعية ، فهذه النملة لم تهتم بنفسها فتنجو بمفردها • ولم ينسها هول ما رأت من عظمة ذلك الجند ، انذار بني جنسها إذ كانت تدرك بفطرتها أن لا حياة لها بدونهم ولا نجاة لها اذا لم تنج معهم فأنذرتهم في أشد ساعات الخطر أبلغ الانذار • ولم ينسها الخوف على نفسها وعلى بني جنسها من الخطر الداهم أن تذكر عذر سليمان وجنده •

فهذا يعلمنا ان لا حياة للشخص الا بحياة قومه ولا نجاة له الا بنجاتهم ، وان لا خير لهم فيه الا اذا شعر بانه جزء منهم ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه وان لا يكون اهتمامه بهم دون اهتمامه بها •

واجب القائد والزعيم :

هذه النملة هي كبيرة النمل ، فقد كان عندها من قوة الاحساس ما أدركت به الخطر قبل غيرها فبادرت بالانذار • فلا يصلح لقيادة الامة وزعامتها الا من كان عنده من بعد النظر وصدق الحدس وصائب الفراسة ، وقوة الادراك للامور قبل وقوعها ، ما يمتاز به عن غيره ، ويكون سريع الانذار بما يحس وما يتوقع •

عظة بالغة :

هذه نملة وفت لقومها وأدت نحوهم واجبها ، فكيف بالانسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه • هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه ولا يؤدي الواجب نحوهم ، ولمن يرى الخطر داهماً لقومه فيسكت

ويتعامى ولمن يقود الخطر اليهم ويصبه بيده عليهم .

آه ، ما أحوجنا ـــ معشر المسلمين ـــ الى أمثال هذه النملة !

الآية الخامسة وهي : ١٩ من النمل (٢٧) :

« فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ اشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ اعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

الالفاظ والتراكيب :

التبسم : انفراج الشفتين على الاسنان ، وقد يكون للغضب وقد يكون للسخرية وقد يكون للضحك ، وهو الاكثر وهو بدايته ولهذا قيد بضاحكا . أوزعني أن اشكر : الهمني شكر نعمتك وتحقيقه في اللغة والتصريف انك تقول : وزعت الشيء أي كففته واوزعني الله الشيء أي جعلني ازع ذلك الشيء أي أكفه . كما تقول ركبت الفرس وأركبني زيد الفرس أي جعلني أركبه ، فاوزعني شكر نعمتك أي اجعلني ازع أي أكف شكر نعمتك أي أمنعه من أن يذهب عني وينفلت مني ، فالمقصود اجعلني ملازما لشكرك فلا أنفك لك شاكرا . نعمتك : عام يشمل كل نعمة لله عليه وعلى والديه . وان اعمل : معطوف على ان اشكر فيقدر مثل تقديره كما تقدم . ترضاه : وصف مؤكد للتقييد على ما سيأتي لأن العمل الصالح مرضي عنه الله . وانما ذكر الوصف ليفيد أن رضى الله مقصود بالعمل الصالح . ادخلني برحمتك في عبادك الصالحين : اجعلني معهم وأكمل الصالحين الانبياء والمرسلين صلى الله وسلم عليهم أجمعين ، وتحقيقه ان الصالحين بما امتازوا به من كمال صاروا كأنهم في حمى خاص بهم لا يدخل عليهم فيه الا من كان مثلهم

فلهم مقامهم في الرفيق الأعلى ولهم منازلهم في الجنة ولهم ذكرهم الطيب عند الله وعند العباد ، وهذه المنازل والمقامات لا يدخلها العبد الا برحمة من الله بتيسير لاسبابها وتفضل عظيم •

المعنى :

لما سمع سليمان ــ عليه الصلاة والسلام ــ كلام النملة تبسم تبسم السرور والتعجب من قولها وطلب من ربه تعالى ان يلهمه شكر ما انعم به عليه وعلى والديه وان يلهمه عملا صالحا ينال به رضاه وطلب منه تعالى أن يجعله في الصالحين بان يثبت اسمه بينهم ويقرن ذكره بذكرهم ويلحقه بهم ويسكنه الجنة معهم بما يغمره به من رحمته وفضله واحسانه •

توجيــه :

صدور ذلك الانذار البليغ من مثل تلك النملة في ضعفها وصغرها طريف مستظرف ككل شيء يصدر من حيث لا ينتظر صدوره ، فهذا مبعث تعجب سليمان ــ عليه السلام ــ وشهادة النملة له ولجنوده بانهم لو وطئوا النمل لوطئوه من غير شعور • فهم لرحمتهم وشفقتهم وارتباطهم بزمام التقوى واخذهم بالعدل لا يتعمدون التعدي على أضعف المخلوقات العجماء ، هذه الشهادة أدخلت السرور على سليمان ــ عليه السلام ــ لما دلت عليه من ثبوت هذا الوصف العظيم له ولجنده وظهوره منهم واشتهارهم به • كما بعث سروره شعوره بما آتاه الله من الملك العظيم والعلم الذي لم يؤته غيره حتى فهم به ما همست به النملة وهي من الحِكم الذي ليس له صوت يستبان في حال من الاحوال •

أدب من سرته النعمة :

نعم الله على العبد تدخل عليه السرور بجبلة الفطرة ، والفرح بنعمة الله من الاعتراف بفضله والاكبار لنواله • ومن أدب العبد حينئذ ان

يسأل الله التوفيق ، بشكر تلك النعمة بصرفها في الطاعة والتوفيق لشكرها بما يقوم به من أعمال صالحة في رضى الله كما فعل سليمان ــ عليه السلام ــ .

النعمة المزدوجة :

إذا أنعم الله على الأبوين بنعمة الايمان والصلاح فهي نعمة على ولدهما اذا أتبعهما ، وتكون تلك النعمة من الله عليهما سيما في حسن تربيتهما له وتوجيهه في الوجهة الصالحة ، كما أن نعمة الله على الولد هي نعمة على والديه فهو من أثرهما ومثل حسناته في ميزانهما لأنهما أصل ذلك وسببه ويدعو له الناس فيدعون لهما ويدعو هو لهما . وقد يؤذن له فيشفع لهما . فالنعمة على الوالد أو على الولد هي نعمة مزدوجة بينهما ولهذا ذكر سليمان ــ عليه السلام ــ نعمة الله على والديه مع نعمته عليه .

الغاية المطلوبة :

ان شعور العبد برضى الله عنه هو أعظم لذة روحية تعجز عن تصويرها الألسن . واحلال الرضوان على أهل الجنة أكبر من كل ما في الجنة من نعيم . فالغاية التي يسعى اليها الساعون ويعمل لها العاملون هي رضى الله . فالعمل الصالح ترتضيه العقول وتستعذبه الفطر . ولكنه لا يفيد صاحبه اذا لم يبغ به مرضاة الله . ولهذا قال سليمان ــ عليه السلام ــ : (تَرْضَاهُ) .

جمع وتحقيق :

قال الله تعالى:«ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»[1]

---

(١) ١٦/٣٢ النمل .

فأفادَ ان الأعمال سبب في دخول الجنة وفي هذه الآية : « وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ » فأفاد ان الدخول بالرحمة ، ولا منافاة ما بينهما فالاعمال سبب شرعي لدخول الجنة والهداية اليه والتوفيق فيه وقبوله هو رحمة من الله • والعمل من حيث ذاته لا يستحق على الله جزاء لانه لا ينتفع به اذ هو الغني عن خلقه • وانما تفضل فجعله سببا في نيل ثوابه ثم تفضل فجعل الجزاء مضاعفا الى عشر ، الى أضعاف كثيرة الى الموفي للصابرين بغير حساب •

دقيقة روحية :

ان الأرواح النورانية الطاهرة السامية لا لذة لها حقيقية في هذا العالم الفاني المادي المنحط ، وانما لذتها الحقيقية في عالمها العالي الأقدس وفي الرفيق الأعلى الأطهر وفي معاشرة أمثالها من النفوس الطيبة الزكية • في ذلك القدس الأسنى ، فهي دائمة الشوق اليه والانجذاب نحوه • ولذا كان من دعوات الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — الدخول في الصالحين واللحوق بهم • مثل قول سليمان هنا ، وقول ابراهيم : « رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ »[1]• وقول يوسف : « تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ »[2] •

وفقنا الله لشكر ما منَّ به من سابق النعمة ، وللقيام فيما بقي من العمر بواجب الخدمة وختم لنا باللحوق بعباده الصالحين[3] •

---

(١) ٨٢/٢٦ الشعراء .

(٢) ١٠١/١٢ يوسف .

(٣) ش : ج ٤ ، م ١٥ ، ص ١٥٧ — ١٦٥
غرة ربيع الثاني ١٣٥٨ — ماي ١٩٣٩

ملك النبــوة

مجمع الحق والخير ومظهر الجمال والقوة

القسم الرابع

الآية السادسة وهي : ٢٠ من النمل (٢٧) :

« وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ » .

الالفاظ والتراكيب :

تفقد : التفقد تطلبك ما فقدته وغاب عنك وتعرفك أحواله . لا أرى : لا أبصر ، الهدهد : هو (تبيب) وهو طائر صغير الجرم منتن الريح ليس من كرام الطير ولا من سباعها . ما لي لا أرى : استفهم عما حصل له فمنعه من الرؤية حيث ظن أولا ان الهدهد كان حاضرا وانما هو لم يره . أم كان من الغائبين : استفهم عن غيبته حيث ظن ثانيا انه غائب فاستفهم عن صحة ما ظن ، فكلمة أم فيها اضراب وفيها استفهام ، فأضرب اضراب انتقال من ظن الى ظن . كان من الغائبين : تعريض بقبح فعله لما انحط عن شرف الحضور وكان من الغائبين .

المعنى :

تطلب سليمان ـــ عليه السلام ـــ معرفة ما غاب عنه من أحوال الطير فلم ير الهدهد وأخذ يتساءل فظن ان شيئا ستره عنه فلم يره ،

ولما لم يكن شيء من ذلك ظن انه كان غائبا غير حاضر وذلك هو الظن الاخير الذي حصل به اليقين •

تعليم وقـدوة :

من حق الرعية على راعيها أن يتفقدها ويتعرف أحوالها اذ هو مسؤول عن الجليل والدقيق منها يباشر بنفسه ما استطاع مباشرته منها ويضع الوسائل التي تطلعه على ما غاب عليه منها وينيط بأهل الخبرة والمقدرة والأمانة تفقد أحوالها حتى تكون أحوال كل ناحية معروفة مباشرة لمن كلف بها • فهذا سليمان على عظمة ملكه واتساع جيشه وكثرة أتباعه قد تولى التفقد بنفسه ولم يهمل أمر الهدهد على صغره وصغر مكانه ، وقد كان عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ يقول : « لو ان سخلة بشاطىء الفرات يأخذها الذئب ليسأل عنها عمر » وهذا التفقد والتعرف هو على كل راع في الامم والجماعات والاسر والرفاق وكل من كانت له رعية •

تعليل وتحرير :

تفقد سليمان جنس ما معه من الطير للتعرف كما ذكرنا وذكر الطير لانه هو الذي تعلقت به القصة وليس في السكوت عن غير الطير ما يدل على أنه لم يتفقده فالتفقد لم يكن للهدهد بخصوصه وانما لما تفقد جنس الطير فقده ولم يجده فقال ما قال • فلا وجه لسؤال من سأل : كيف تفقد الهدهد من بين سائر الطير •

تدقيق لغوي وغوص علمي :

سأل سليمان عن حال نفسه فقال : ما لي لا أرى الهدهد ولم يسأل عن حال الهدهد فيقل[1] ما للهدهد لا أراه فأنكر حال نفسه قبل أن ينكر حال غيره • فنقل الحافظ الامام ابن العربي عن الامـام

(١) كذا في الاصل •

عبد الكريم بن هوازن القشيري شيخ الصوفية في زمانه قال : « انما قال مالي لا أرى لانه اعتبر حال نفسه ذا علم أنه أوتي الملك العظيم وسخر له الخلق فقد لزمه حق الشكر باقامة الطاعة وادامة العمل فلما فقد نعمة الهدهد توقع أن يكون قصر في حق الشكر فلاجله سلبها فجعل يتفقد نفسه فقال : مالي ، وكذلك تفعل شيوخ الصوفية اذا فقدوا آمالهم تفقدوا أعمالهم ، هذا في الآداب فكيف بنا اليوم ونحن نقصر في الفرائض » .

توجيه :

مثل هذه المعاني الدقيقة القرآنية الجليلة النفيسة من مثل هذا الامام الجليل من أجل علوم القرآن وذخائره اذ هي معاني صحيحة في نفسها ، ومأخوذة من التركيب القرآني أخذاً عربيا صحيحا ، ولها ما يشهد لها من أدلة الشرع . وكل ما استجمع هذه الشروط الثلاثة فهو صحيح مقبول ، ومنه فهم عمر وابن عباس — رضي الله عنهما — أجل رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — من سورة النصر ، أما ما لم تتوفر فيه الشروط المذكورة وخصوصا الاول والثاني ، فهو لا يجوز في تفسير كلام الله وهو كثير في التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية . كتفسير ابن عبد الرحمن السلمي من المتقدمين والتفسير المنسوب لابن عربي من المتأخرين .

الآية السابعة وهي : ٢١ من النمل (٢٧) :

« لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ».

الالفاظ والتراكيب :

عذابا شديدا : ينتف ريشه هكذا فسره ابن عباس وجماعة من

التابعين • بسلطان مبين : بحجة قاطعة توضح عذره في غيبته • سميت الحجة سلطانا لما لها من السلطة على العقل في اخضاعه ، أفادت أو ان المخلوف على حصوله هو أحد الثلاثة ، فاذا حصلت الحجة فلا تعذيب ولا ذبح ، ولو لم تحصل لفعل أحدهما ، وقدم التعذيب لأنه أشد من القتل ، وحالة الغضب تقتضي تقديم الاشد •

المعنى :

يقسم سليمان على معاقبة الهدهد ــ وقد تحقق غيبته ــ بالتعذيب أو بالذبح اذا لم يأته بالحجة التي تبين عذره في تلك الغيبة ولا يستثنى للعفو ولا يجعل سببا لسلامته من العقوبة الا الحجة •

توجيه واستنباط :

ليس في الآية ما يفهم خصوص نتف الريش من لفظ العــذاب الشديد ، وإنما فهم ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ وأئمة" من التابعين ذلك بالنظر العقلي والاعتبار ، فانّ نتف ريشه يعطل خاصية الطيران فيه فيتحول من حياة الطير الى حياة دواب الأرض ، وذلك نوع من المسخ ، وقد علم ان المسخ في القرآن أشنع عقوبة في الدنيا ، فلهذا فسروا العذاب الشديد بنتف الريش •

والانسان خاصيته التفكير في أفق العلم الواسع الرحيب ، فمن حرم انسانا ــ فردا أو جماعة ــ من العلم فقد حرمه من خصوصية الانسانية وحوله الى عيشة العجماوات وذلك نوع من المسخ فهو عذاب شديد وأي عذاب شديد ؟

صرامة الجنديــة :

كان هذا الهدهد من جنود سليمان التي حشرت له وقد كان في مكانه الذي عين له وأقيم فيه ، فلما فارق وترك الفرجة في صفه وأوقع الخلل في جنسه استحق العقاب الصارم الذي لا هوادة فيه • وهذا

أصل" في صرامة أحكام الجندية وشدتها لعظم المسؤولية التي تحملتها وتوقف سلامة الجميع على قيامها بها وعظم الخطر الذي يعم الجميع إذا أخلت بها .

تقدير العقوبة :

جرم الهدهد صغير وما كلف الا بما يستطيعه من الوقوف في مكانه والبقاء في مركزه ، ولكن جرمه باخلاله بهذا الواجب كان جرماً كبيراً فان الخلل الصغير مجلبة للخلل الكبير فقدرت عقوبته على حسب كبر ذنبه لا على حسب صغر ذاته .

تنبيه وارشاد :

كل واحد في قومه أو في جماعته هو المسؤول عنهم من ناحيته ، مما يقوم به من عمل حسب كفاءته واستطاعته ، فعليه أن يحفظ مركزه ولا يدع الخطر يدخل ولا الخلل يقع من جهته فانه إذا قصّر في ذلك وترك مكانه فتح ثغرة الفساد على قومه وجماعته ، وأوجد السبيل لتسرب الهلاك اليهم . وزوال حجر صغير من السد المقام لصد السيل يفضي الى خراب السد بتمامه . فاخلال أي أحد بمركزه ولو كان أصغر المراكز مؤد الى الضرر العام . وثبات كل واحد في مركزه وقيامه بحراسته هو مظهر النظام والتضامن وهما أساس القوة .

الحق فوق كل احد :

لقد أغضب سليمان غياب الهدهد فلذا توعده هذا الوعيد وأكده هذا التأكيد . ولكن سلطان سليمان في قوته وملكه ومكانته يجب أن يخضع لسلطان آخر هو أعظم من سلطانه : هو سلطان الحق ، والحق فوق كل أحد . وملك سليمان ملك حق فلا بد له من الخضوع لسلطان الحجة ليقيم ميزان العدل ، والعدل أساس الملك وسياج العمران [1] .

---

(١) ش : ج ٥ ، م ١٥ ، ص ٢٠٣ ــ ٢٠٨
غرة جمادى الاولى ١٣٥٨ ــ جوان ١٩٣٩

ملك النبــوة

مجمع الحق والخير ومظهر الجمال والقوة

القسم الخامس

الآية الثامنة وهي : ٢٢ من النمل (٢٧) :

« فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ » •

الالفاظ والتراكيب :

مكث : أقام ، وقرأ عاصم بفتح الكاف • غير : صفة زمان محذوف، فالتقدير غير بعيد • فاعل مكث هو الهدهد مثل فاعل قال الآتي • أحطت : الاحاطة بالشيء ، عقليا هي العلم به من جميع نواحيه • سبأ : اسم مدينة باليمن سميت باسم سبأ جد العرب اليمانية حمير وغيرها ، وصرفه الجمهور على اعتبار المكان ، ومنعه من الصرف المكي والبصري على اعتبار البلدة • بنبأ : النبأ الخبر الذي له شأن وخطورة • واليقين : المحقق ، جعله نفس اليقين مبالغة في تحقيقه • وفي الكلام ايجاز بالحذف،اذ المعنى : فجاء الهدهد فسأله سليمان ــ عليه السلام ــ عن سبب مغيبه فقال •

المعنى :

لم تطل غيبة الهدهد عن مركزه في جنود سليمان ، فلم يلبث في غيبته إلاّ زمانا قصيراً ، وكان سؤال سليمان له عن غيبته فور رجوعه ،

فأسرع بالجواب والاعتذار عن الغيبة والدفاع عن نفسه فقال : اطلعت على شيء لم تطلع أنت عليه وعرفته من جميع نواحيه ، وقد أتيتك من بلدة سبأ بخبر خطير ذي شأن عظيم تيقنته غاية اليقين .

توجيه واستنباط :

كان في جواب الهدهد حجة بينة لسبب غيابه ، وذلك لأنه لم يذهب عابثا ولا لغرض خاص به ، وانما ذهب مستطلعا مكتشفا فحصل علما وجاء بخبر عظيم في زمن قصير فرجحت هذه الفوائد العظيمة بتركه لمركزه في الجند فسقطت عنه المؤاخذة .

فان قيل : ان أصل مفارقته لمركزه دون استئذان كان مخالفة يستوجب عليها العقوبة فالجواب ان هذه المخالفة كانت لقصد حسن وهو الاستطلاع وأثمرت خيرا فاستحق العفو عن تلك المخالفة التي كانت عن نظر ولم تكن عن تهاون وانتهاك للحرمة .

فان قيل : ما الذي أوقع في نفس الهدهد رغبته في طلب ما طلب ، فالجواب : انه يجوز أن يكون شاهد عمران اليمن من مكان بعيد ببصره الحاد فرغب في المعرفة أو أن يكون قد مر باليمن من قبل ولم يتحقق من حالها فأراد أن يتحقق .

وهذه الآية مأخذ من مآخذ الأصل القائل : ان المخالف للأمر عن غير انتهاك للحرمة لا يؤاخذ بتلك المخالفة . ومن فروع هذا الأصل سقوط الكفارة عمن أفطر في رمضان متعمدا متأولا تأويلا قريبا .

عزة العلم وسلطانه :

ابتدأ الهدهد جوابه معتزا بما أحاط به من العلم متجملا بما حصل منه مظهرا لارتفاع منزلته به متحصنا به من العقاب . ولم تمنعه عظمة سليمان — عليه السلام — من اظهار علمه واعلان اختصاصه به دون سليمان .

ادب واقتـــداء :

قد سمع سليمان هذا من الهدهد وأقره عليه ، فللصغير أن يقول للكبير ، وللحقير أن يقول للجليل ، علمت ما لم تعلم وعندي ما ليس عندك ، اذا كان من ذلك على يقين وكان لقصد صحيح • ومن أدب من قيل له ذلك ولو كان كبيرا جليلا أن يتقبل ذلك ولا يبادر برده وعليه أن ينظر فيه ليعرف مقدار صدق قائله فيقبله أو يرده بعد النظر والتأمل ، اذ قد يكون في أصغر مخلوقات الله وأحقرها من يحيط علما بما لم يحط مثل سليمان — عليه السلام — في علمه وحكمته واتساع مدركاته • وكفى بمثل هذا زاجرا لكل ذي علم عن الاعجاب بعلمه والاعتزاز بسعة اطلاعه والترفع عن الاستفادة ممن دونه •

مدرك عقيدة :

لا يعلم أحد من الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — شيئا ممـا غاب عنه الا باعلام الله ، فليس لهم كشف عام عن جميع ما في الكون ، وانما يعلمون منه ما اطلعهم الله عليه • ومن مدارك ذلك هذه القصة ، فان سليمان — عليه السلام — لم يكن يعلم من مملكة سبأ شيئا حتى اطلعه الله عليه بواسطة الهدهد • واذا كان هذا حال الانبياء — عليهم الصلاة والسلام — فغيرهم من عباد الله الصالحين من باب أحرى وأولى•

تحقيق تاريخي :

رويت في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على شيء مـن الصحة ، ومعظمها من الاسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التفسير مما تلقى من غير تثبت ولا تمحيص من روايات كعب الأحبار ووهب بن منبة • وروى شيئا من ذلك الحاكم في مستدركه وصرح الذهبي ببطلانه ، ومن هذه المبالغات الباطلة انه ملك الارض كلهـا

مشارقها ومغاربها ، فهذه مملكة عظيمة بسبأ كانت مستقلة عنه ومجهولة لديه على قرب ما بين عاصمتها باليمن وعاصمته بالشام (1) .

معذرة الى القراء الكرام

ما قرأتموه من التذكير بهذه الآية الكريمة في هذا الجزء قد كتبت شطره مساء يوم الاثنين ٢ جمادى الاولى و ١٩ جوان وشطره بكرة الثلاثاء الغد منه . وفي صبيحة هذه الثلاثاء ابتدئت المحاكمة في قضية مقتل المفتي ابن دالي عمر التي اتهم الشيخ الطيب العقبي والسيد عباس التركي باطلا ظلما عدوانا ، فكان من واجبي أن أحضر جميع الجلسات ، فانشغل بالي عن تتميم مجالس التذكير . ولقد مات ابني الوحيد ومات أخ لي عزيز فما شغل ذلك بالي مثل اليوم ولا منعني عن دروسي وأعمالي ذلك لان هذه القضية اليوم قضية الاسلام والعربية والجزائر ، لا قضية فرد أو جماعة . فمعذرة يا قرائي الاعزة ، والله نسأل أن يظهر الحق ويدحض الباطل .

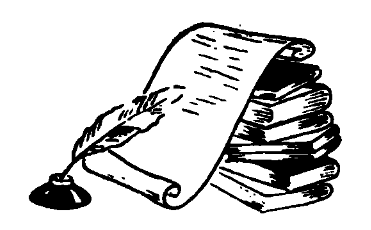

(1) ش: ج ٦ ، م ١٥ ، ص ٢٥١ ــ ٢٥٤
غرة جمادى الثانية ١٣٥٨ ــ جويلية ١٩٣٩

ملك النبـوة

مجمع الحق والخير ومظهر الجمال والقوة

القسم السادس

الآية التاسعة وهي : ٢٣ من النمل (٢٧) :

« إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » •

الالفاظ والتراكيب :

وجدت : اصبت ، امرأة : هي بلقيس باجماع المفسرين والمؤرخين • تملكهم : تتولى أمرهم ملكة عليهم • وعبر بالمضارع تصويرا للحال العجيب ، وهو أن تتولى ملكهم امرأة ، وعاد الضمير على سبأ ضمير جمع مذكر على معنى القوم ، اذ كانوا يسمون باسم أبيهم • فذكر لفظ سبأ أولا بمعنى المدينة ، وأعيد عليه الضمير بمعنى القوم على أسلوب الاستخدام • من كل شيء : لفظ عام أريد به كل ما تحتاج اليه من أشياء الملك والسلطان والقوة والعمران • عرش : هو سرير الملك الذي تجلس عليه • عظيم : في كبره وقوته وحسنه •

المعنى :

يقول الهدهد لسليمان ــ عليه السلام ــ مبينا الخبر العظيم الذي جاء به : اني وجدت أولئك القوم الذين يسكنون تلك المدينة قد جعلوا امرأة ملكة عليهم • وقد أعطيت تلك الملكة كل ما تحتاج اليه

في نظام ملكها وعظمته ، ومن مظاهر تلك العظمة السرير العظيم الذي تجلس عليه بين أهل مملكتها .

عظمة المملكة العربية اليمنية :

كانت بلقيس ملكة على اليمن في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد وقد كانت ملكة عظيمة على مملكة عظيمة راقية . والهدهد الذي شاهد ملك سليمان وعظمته قد استعظم ملكها وعرشها ، وعظمة العرش عنوان عظمة الملك ، فلذا خصصه الهدهد بالذكر ورغب سليمان في الاتيان به .

تفوق العرب على الاسرائيليين :

كل ذلك الرقي وتلك العظمة بلغتهما المملكة العربية اليمنية بنفسها من تفكيرها وعملها من قرون بعيدة . فأما الاسرائيليون — وهم إذ ذاك في القرن الخامس من تاريخهم — فانهم لم يبلغوا في ذلك العهد الى شيء من ذلك . وما كان لسليمان من بناءات ومنشآت فهو مما صنعته له الجن والشياطين ، كما جاء في آيات من القرآن عديدة ، ولم يترك بنو اسرائيل من الآثار ما يدل على شيء ذي بال من الفن والقوة ، فأما ما تركته اليمن فهو شيء كثير قائم مشاهد ، والاكتشافات ما زالت تظهر منه شيئا فشيئا .

ولاية المرأة للملك :

ثبت عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : « **لن يفلح قوم ولوا امرهم امرأة** » قاله لما بلغه ان الفرس ملكوا عليهم امرأة . فاقتضى هذا ان لا تلي المرأة ولاية لا امارة ولا قضاء ، وأيدت هذا النص الصحيح السنة العملية فأخذ به جمهور أئمة الاسلام ، وجاءت روايات عليلة عن بعضهم لم يلتفت اليها ولم يعمل بها .

تعليل :

لا تصلح المرأة للولاية من ناحية خلقتها النفسية ، فقد أعطيت من الرقة والعطف والرأفة ما أضعف فيها الحزم والصرامة اللازمين للولاية ، وفي اشتغالها بالولاية إخلال بوظيفتها الطبيعية الاجتماعية التي لا يقوم مقامها فيها سواها ، وهي القيام على مملكة البيت وتدبير شؤونه وحفظ النسل بالاعتناء بالحمل والولادة وتربية الاولاد .

دفـع اعتراض :

في تواريخ الأمم نساء تولين الملك ، ومن المشهورات في الامم الاسلامية شجرة الدر في العصر الايوبي ، ومنهن من قضت آخر حياتها في الملك وازدهر ملك قومها في عهدها . فما معنى نفي الفلاح عمن ولوا أمرهم امرأة ؟

هذا اعتراض بأمر واقع ولكنه لا يرد علينا لأن الفلاح المنفي هو الفلاح في لسان الشرع ، وهو تحصيل خير الدنيا والآخرة ، ولا يلزم من ازدهار الملك أن يكون القوم في مرضاة الله ، ومن لم يكن في طاعة الله فليس من المفلحين ، ولو كان في أحسن حال فيما يبدو من أمر دنياه . على أن أكثر من ولوا أمرهم امرأة من الأمم اذا قابلهم مثلهم كانت عاقبتهم أن يُغْلَبُوا .

الآية العاشرة وهي : ٢٤ من النمل (٢٧) :

« وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ » .

الالفاظ والتراكيب :

من دون الله : تجاوزوا عبادة الله الى عبادة الشمس . زين : حسن .

أعمالهم : سجودهم للشمس وغيره من أعمال كفرهم • فصدهم : صرفهم صرفا شديدا • السبيل : هو الطريق الوحيد المعهود للنجاة وهو توحيد الله • لا يهتدون : لا يكون منهم سلوك في طريق الحق والسداد •

جملة وجدتها مستأنفة للبيان جوابا على تقدير سؤال ، فالكلام السابق بين حالتها من ناحية الدنيا فتشوقت نفس السامع الى معرفة حالتها من ناحية الدين • •

عدم اهتدائهم مسبب عن صد الشيطان لهم ، وصده مسبب عن تزيينه لأعمالهم لهم ، هذا ما تفيده الفاء •

المعنى :

وجدتها وقومها مجوسا يعبدون الشمس فيسجدون لها ولا يسجدون لله ، وقد تمكن الشيطان منهم فحسن في أعينهم أعمالهم فصرفهم عن عبادة الله وتوحيده مع ظهور الدلائل ووضوح الآيات فثبتوا على ضلالهم لا يكون منهم اهتداء لطريق النجاة الظاهر في حال من الاحوال •

سلاح الشيطان واصل الضلال :

محبة الانسان نفسه غريزة من غرائزه ، وهو محتاج اليها ليجلب لنفسه حاجتها ويدفع عنها ما يضر بها ويسعى في تكميلها • هذه هي الناحية النافعة والمفيدة من هذه الغريزة ولكنها من جهة أخرى هي مدخل من أعظم مداخل الشيطان على الانسان فيحسن له أعماله وهو لمحبة نفسه يحب أعماله ويغتر بها فيذهب مع هواه في تلك الأعمال على غير هدى ولا بيان فيهلك هلاكاً بعيداً فاستحسان المرء لأعماله هو أصل ضلاله وتزيين الشيطان لتلك الاعمال هو أحد أسلحة الشيطان•

الوقاية

فعلى المرء ان يتهم نفسه في كل ما تدعوه إليه ، وأن يزن جميع

أعماله بميزان الشرع الدقيق خصوصا ما تشتد رغبته فيه ويعظم حسنه في عينه •

الآية الحادية عشر وهي : ٢٥ من النمل (٢٧) :

« أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ »•

الالفاظ والتراكيب :

ألاّ يسجدوا : عدم سجودهم ، فإنْ مصدرية ، ولا نافية ، وهو بدل بعض من أعمالهم ، خصص بالذكر لانه أصل كفرهم ومبعث فساد أعمالهم • الخبء : الشيء المخبوء ، فعل بمعنى مفعول ، يقال خبأت الشيء أخبؤه خبأً بمعنى سترته عن العيون ، فالخبء يشمل كل ما احتوته السموات والأرض مما يبرزه الله للخلق لمنفعتهم فتشاهده العيون مثل المطر والنبات ، أو تدركه العقول مثل بدائع الخلق ودقائق الصنع ، ومنه ما يكشفه الله لعلماء الأكوان من أسرار الخلقة عندما يستعملون عقولهم ووسائلهم العلمية فيأتون بما فيه نفع للعباد ورقي للعمران • ما يخفون : ما يكتمون في أنفسهم أو عن غيرهم • وما يعلنون : يظهرون للناس •

المعنى :

زين لهم الشيطان من أعمالهم على الخصوص عدم سجودهم لله الذي أقام عليهم الحجة بما يخرجه لهم من الخيرات المخبئات من السموات والأرض من أمطار السماء ونبات الأرض مما يدل على عظيم قدرته ولطف علمه الذي أحاط بما[1] ببواطن الأشياء وظواهرها وبما

(١) كذا في الاصل .

تنطوي عليه السرائر تواريه الستائر وما هو ظاهر للعموم •

استدلال وتوجيــه :

السجود مظهر لغاية الذل والخضوع والانقياد والاستسلام ، وتلك أصل العبادة ولا يستحقها من العبد الا من هو ـــ حقيقة ـــ المنعم الغني الكامل القوي ، وما هو الا خالقه • فاستدل على استحقاق الله السجود دون غيره بما ذكر من اخراجه الخبء ويشمل علمه لما خفي وما علن • وذلك متضمن لكماله وانعامه وشمول علمه وعموم سلطانه •

حكم وانبناؤه :

انبنى على ان السجود عبادة ولا يستحقها الا الخالق، تحريم السجود للمخلوق فلا يجوز أن يعظم به أحد أحدا ولو لم يقصد به العبادة اما اذا قصد به العبادة فهو الكفر البواح •

تحــذير :

كثيرا ما رأينا في الرسوم التي تنشرها الصحف أناسا من المسلمين راكعين أو مقاربين للسجود لذي سلطان • فعلى المسلم أن يحذر من ذلك فلا يفعله ولا ينحني لاحد من الخلق وان ينكره اذا رآه •

تشويق القرآن الى علوم الاكوان :

من أساليب الهداية القرآنية الى العلوم الكونية أن يعرض علينا القرآن صوراً من العالم العلوي والسفلي في بيان بديع جذاب يشوقنا الى التأمل فيها والتعمق في أسرارها ، وهنا يذكر لنا ما خبأه ، في السموات والأرض لنشتاق اليه • وتنبعث في البحث عنه واستجلاء حقائقه ومنافعه غريزة حب الاستطلاع ومعرفة المجهول وبمثل هــذا انبعث أسلافنا في خدمة العلم واستثمار ما فــي الكون الى أقصى

ما استطاعوا ومهدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم ولن نعز عزّهم الا اذا فهمنا الدين فهمهم وخدمنا العلم خدمتهم .

ترتيب في الاستدلال :

إخراج الخبء لا يكون إلاّ من العالم بذلك الخبء الذي أحاط علمه به في حال ستره وفي حال ظهوره فيدل ذلك على شمول علمه لما ظهر وما بطن ، ومنه ما يخفون وما يعلنون ، ولذلك عطفه عليه لترتبه عليه ترتب المدلول على دليله .

الآية الثانية عشر وهي : ٢٦ من النمل (٢٧) :

« اللهُ لاَ إِلهَ إلاّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ » .

تصميم :

العرش : مخلوق عظيم من عالم الغيب أعظم من السموات والأرض.

المعنى :

الموصوف بتلك الصّفات والمنعم بتلك الانعامات المستحق للسجود منهم ، وقد زين لهم الشياطين عدم السجود له ، هو الله الذي لا معبود غيره ولا يستحق العبادة سواه خالق المخلوقات كلها ، والمالك لها والمدبر لامرها ، والمتصرف فيها من أصغر مخلوق الى أعظم مخلوق ، وهو عرشه العظيم الذي فاق كل ما نرى من عالم الشهادة .

توجيه الترتيب :

لما ذكر استحقاقه للعبادة بكمالاته وانعاماته ذكر أن لا مستحق للعبادة غيره ، إذ لا يشاركه في تلك الكمالات والانعامات سواه ، فكأن الجملة كالنتيجة لما قبلها . ولما ذكر وحدانيته في الألوهية فلا

يعبد سواه ، ذكر وحدانيته في الربوبية بانفراده بالخلق والملك والتصرف والتدبر لهذا المخلوق العظيم ، ونبه به على ما دونه من المخلوقات ، ولما كان الحديث على عظمة ملك العباد ملك النبوة وغيره ذكر عظمة ملك الله التي تصغر ازاءها كل عظمة .

بيان مراد :

قد يتماثلان[1] اللفظان ولكن يجب أن يعبر كل واحد بمعنى لائق بالمقام الذي قيل فيه فلقد جاء في حق سليمان — عليه السلام — « وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » ووصف الهدهد بلقيس بأنها أوتيت من كل شيء ، ولما كان المتحدث عنه أولا هو سليمان فكل شيء يعم ما يحتاج اليه من أمر النبوة وملك النبوة .

كما انه قد قال عنها : « وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » وقال عن الله : «رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ» . فعرش بلقيس عظيم بين عروش الملوك ، وعرش الله عظمته أعظم من السموات والارض . وهكذا لا بد من اعتبار المقام في فهم الكلام .

العبرة والقدوة :

قد ألهم الله الحيوانات الى ما قد يخفي عن بعض العقلاء ، ومضى منا كلام عن هذا فيما تقدم من هذه الآيات الكريمة ، وهذا الهدهد بين الهداهد فلهم إلهام خاص يقتضيه تخصيصه بهذا الموقف واتصاله بسليمان — عليه السلام — ، وزمن الانبياء زمن خرق العوائد وظهور الآيات ، وقد كان في حسن بيانه وترتيب أخباره وبديع تهديه عبارة بالغة لأولي الألباب ، فقد تحصن بالعلم ونـ ره[2] بالنبأ المتيقن وفصل

(١) كذا في الاصل وصوابه : يتماثل .

(٢) كذا في الاصل ، ولعل : ونباه .

النبأ فشرح حاليها الدنيوية والدينية وتنقل من تشويق الى تشويق أبلغ منه فكان متثبتا فيما أخبره . بارعا فيما صور مستدلا فيما قرر وفيما أنكر ، بصيرا بكيد الشيطان للانسان متفطنا لانبناء الضلالات بعضها على بعض خبيرا بترتيب الادلة وحسن الاستنتاج .

وفيما ذكر الله لنا من هذه العبر البالغة من هذا الحيوان الأعجم حث لنا على أن نسلك عندما نخبر ونبين أو نبحث وننظر ونستدل ونرتب ونعلل ، أن نسلك هذا المسلك .

واذا كان الله تعالى قد بعث غرابا ليتعلم منه ابن آدم كيف يواري سوءة أخيه فكذلك ذكر لنا أمر هذا الهدهد الممتاز بين الهداهد لنقتدي به ، تنبيها لنا على أخذ العلم من كل أحد والاستفادة من كل مخلوق والشعور دائما بالنقص للسلامة من شر ادواء الانسان : العجب والكبر والغرور ... « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » « وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ » .

لمحة نفسية :

الظواهر دلائل البواطن فالمرء يعرف من سبحات وجهه وفلتات لسانه ، وكثير ما تدل كلمته على مهنته أو فكرته وعقيدته ، كما تدل هيبته أو لبسته وشمائله .

وما يباشره المرء تنطبع به نفسه ويصطبغ خياله فيجري على لسانه في تشبيهاته وتمثيلاته وفنون قوله فقد تختلف العبارات عن شيء واحد في وقت واحد باختلاف نفسيات المتكلمين عليه . وقد عرف الهدهد بين الطيور بثقوب البصر والاهتداء الى الماء في جوف الأرض خصوصا هدهد سليمان الممتاز بين الهداهد فلما استدل ذكر من صنع الله ما هو أقرب اليه وأغلب عليه وهو اخراج الخبء الذي منه الماء المخبوء في جوف الارض .

اشارة علمية :

دَلالة الصنعة على الصانع دلالة فطرية عقلية قطعية ، فكل ذي صنعة في مكنته أن يستدل بصنعته على وجود خالق هذا العالم وكماله . يشاهد ان صنعته ما كانت الا به وبما له من قدرة فينا وعلم بهـا فيهديه ذلك الى ان هذا العالم ما كان الا من خالق قادر عالم . فالهدهد ذكر ما هو من عمله في الاستدلال على وجود الخالق تعالى ووحدانيته. ومثله كل ذي صنعة .

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَـةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ واحِدُ[1]

(۱) ش : ج ۷ ، م ١٥ ، ص ۳۱۲ ـ ۳۲۰
غرة رجب ١٣٥٨ ـ اوت ١٩٣٩

يس[1]

مثل هذا اللفظ مما افتتحت به بعض سور القرآن ، وللعلماء فيه طريقتان : الأولى أنه لفظ له معنى يعلمه الله ، فهو من المتشابه الذي لا يعلمه الراسخون ، وانما يؤمنون به ويردون علمه الى عالمه •

سؤال وجوابه :

القرآن أنزل للبيان ، ولا بيان إلاّ بالإلهام ، فكيف يكون في القرآن لفظ لا يفهم له معنى ؟ والجواب : أنّ عدم فهم معنى من بضع عشرة كلمة افتتحت بها بعض السور لا يخل ببيان القرآن لما أنزل لبيانه من عقائد وآداب وأحكام وغيرها من مقاصد القرآن •

توجيه وتنظير :

ان الله تعالى أعطانا العقل الذي به ندرك الآيات التي نصبها لنا لنستدل بها على وجوده ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ولطفه ورحمته • وبالنظر في هذه الآيات نصل ــ بتسيير الله ــ بعقولنا الى إدراك بدائع عجيبة وأسرار غريبة ما تزال تتجلى لنا ما دمنا نتأمل فيها ونعتبر بها • وما يزال الانسان يكتشف منها حقائق مضت عليه أزمان وهو يعدها من المحال • ويجتني منها فوائد ما كانت تخطر له في أحقابه الماضية على بال •

غير أن استجلاء هذه الحقائق واستحصال هذه الفوائد من الآيات الكونية ــ على نفاستها وعظيم نفعها ــ محفوف بخطر الاعجاب بذلك

---

(١) يس ٣٦/١ •

العقل ، حتى يحسب أنه محيط بالحقائق كلها ، وأن مدركاتها يقينيات بأسرها ، فيؤديه حسبانه الأول الى الفتنة بالمدركات ، فيحسب أن لا شيء بعدها ، فقد يخرج الى انكار خالقها ، ويؤديه حسبانه الثاني الى الذهاب في ظنونه وأوهامه وفرضياته الى غايات لا نسب بين اليقين وبينها • فكان من لطف الله بالانسان أن جعل لعقله حداً يقف عنده وينتهي اليه ، ليسلم من هذا الخطر ، خطر الاعجاب بالعقل ، ففي آيات الله الكونية حقائق كثيرة تقف العقول حيارى أمامها ، وقد تشهد آثارها ولا تستطيع أن تعرف كنهها ، كحقيقة الكهرباء في الكون ، وحقيقة الروح والعقل في الانسان ، فمثل هذه الحقائق المنغلقة التي يرتد عقل الانسان اليه عنها خاسئا وهو حسير • هي التي تعرفه بقدره وبعظمة هذا الكون وفخامة أمره • فيقف بعقله عند حد النظر والاعتبار والاستدلال ببديع الصنعة وعظيم النعمة على حكمة الله البالغة ومنته السابغة ، دون خلط للاوهام بالحقائق ولا فتنة بالمخلوق عن الخالق •

هذه الحقائق التي خفيت عن العقل البشري فلم يدرك كنهها لم تقدح في دلالة آيات الأكوان على ما دلت عليه من وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ، وفضله واحسانه ورحمته ،فكذلك لم يقدح في بيان القرآن ودلالة آياته خفاء معاني بضع عشرة كلمة من كلماته ، وكما كان خفاء تلك الحقائق في الآيات الكونية ايقافا للعقل عند حده وتعريفا له بقدره ، وتنبيها له على عظم آيات ربه ، كذلك كان خفاء هذه المعاني في الآيات القرآنية لمثل ذلك • ونظير الآيات الكونية والآيات الكلامية في هذا الجلاء العام والخفاء الخاص جملة من الأحكام ، كعدد الصلوات والركعات والسجدات التي خفيت على العقول حكمتها وقد ظهرت الحكم الكثيرة الجلية في سائر أحكام الشريعة غيرها ، ولم يقدح في حكمة الشريعة في أحكامها ، خفاء ما خفي في بعضها ، كما لم يقدح خفاء ما خفي من حقائق الآيات

الكونية ومعاني الآيات الكلامية في دلالتها وبيانها • والحكمة هنا في هذه الاحكام هي الحكمة المتقدمة فيهما •

ونظير الآيات الكونية والآيات الكلامية والأحكام الشرعية في هذا الخفاء الجزءي تصرفات الله في خلقه بمجاري اقداره فقد تظهر حكم الله فيها وقد تخفى ، وقد تخفى دهراً وتظهر بعد مدة • وقد نبهنا الله على هذه الحقيقة بما قص علينا في قصة يوسف عليه السلام ، وما كان مجهولا من حكم قدر الله في مبدأ أمره وما ظهر من تلك الحكم الباهرة للقدر في آخر أمره ، وبما قصه علينا في قصة أم موسى لما أوحي اليها بقذفه في اليم وعدم الخوف عليه وما كان من عواقب امره ، وكما لا ينفي الحكمة عن تدبير الله عدم ظهورها كذلك لا ينفي الحكمة عن شرعه عدم فهمها ولا يقدح في دلالة الآيات وبيانها عدم ادراك كنهها أو عدم فهم معناها •

ففي خلق الله وفي شرع الله وفي قدر الله وفي كلام الله ما يخفي على العقول ادراك حقيقته أو حكمته ، أو معناه لطفاً من الله بالانسان وتنبيها له ، وقد قامت الحجة عليه فيما جهل بما عرف • وتجلت له بدائع الخلقة وجلائل النعمة فيما ظهر ، فآمن بوجود مثلها فيما خفي • إذ الرب الحكيم الرحيم لا يكون منه إلاّ ما هو حكمة وفيه نعمة ، فكان الانسان في القسم الأول مدركا مستدلا معتبرا ، قد استعمل عقله فأدّاه الى الإيمان واليقين فيما ظهر • وكان في القسم الثاني مصدّقا مذعنا لربه صاغرا ، قد أدرك الحجة فآمن بالغيب فيما استتر • فجمع بين النظر والاستدلال ، والتسليم والاذعان •

فهذا توجيه وجود لفظ لا نفهم معناه من كتاب الله ـــ عند من يقول به ـــ ببيان حكمته ، مع تنظيره بمثله في خلق الله وشرعه وقدره •

بناء العمل على هذا العلم :

قد رأيت كيف يقف العقل عاجزاً أمام بعض أسرار الخلق والقدر

والشرع والقرآن ، مع يقينه بما علم منها ، ان ما عجز عن ادراكه ما هو إلاّ مثل ما عرف في الحق والحكمة والنعمة ، إذ الجميع — ما عرف وما عجز عنه — من إله واحد حكيم خبير رحمن رحيم .
فليذكر الناظر في خلق الله وقدره وشرعه وكلامه دائما هذه الحقيقة ، وهي ثبوت الحق والحكمة والنعمة في جميعها ، وإمكان عجز عقله في بعض المواضع والأحوال عن ادراكها فيكون عمله في خلق الله هو النظر والبحث والتعليل والاكتشاف واستجلاء الحقائق الكونية واستخراج الفوائد العلمية والعملية الى أقصى حد توصله اليه معلوماته وآلاته حتى اذا انتهى الى مشكل استغلق عليه اعترف بعجزه ولم يرتكب من الأوهام والفروض البعيدة ما يكسوا الحقيقة ظلمة ، ويوقع الباحث من بعده في ضلالة أو حيرة ، فكثيراً ما كانت الفروض الوهمية الموضوعة موضع اليقينيات سبباً في صد العقول عن النظر وطول أمد الخطأ والجهل ، ويكون عمله في قدر الله هو الاعتبار في تصاريف القدر ، والاتعاظ بأحوال البشر ، واستحصال قواعد الحياة من سير الحياة ، فاذا رأى من تصاريف القدر ما لم يعرف وجهه ولم يتبين له ما فيه من عدل وحكمة واحسان ورحمة ، فليذكر عجزه وليذكر ظهور ما خفي عنه من مثل ذلك في وقت ثم ظهر له فيوقن ان هذا مثله ، وانه اذا طالت به الأيام قد يظهر له من وجهه ما خفي منه ، فيتلقاه الآن بالتسليم والتنزيه ، راداً علمه الى الله تعالى مفوضاً أمره إليه ، ويكون عمله في شرع الله هو الفهم لنصوص الآيات والأحاديث ومقاصد الشرع وكلام أئمة السلف ، وتحصيل الاحكام وحكمها ، والعقائد وأدلتها ، والآداب وفوائدها ، والمفاسد وأضرارها ، حتى اذا بلغ الى حكم لم يعرف حكمته وقضاء لم يدر علته ذكر عجزه فوقف عنده ، فلم يكن من المرتابين ولا من المتكلفين ، ولم يمنعه عجزه عن تعليل وتبين وجه ذلك القليل عن المضي في التفهم والتدبر لما بقي له من

الكثير ، ويكون عمله في كتاب الله هو التفهم والتدبر لآياته والتفطن لتنبيهاته ووجوه دلالاته واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه ، على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها ، وما جاء من التفاسير المأثورة وما نقل من فهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأماناتهم ، المشهود لهم بذلك من أمثالهم ، فاذا وقف أمام المتشابه رده الى المحكم ، واذا انتهى الى فواتح السور ذكر عجزه فآمن بما لها من معنى وقال : الله أعلم به . فهذا السير النظري والعمل العلمي المبني على اليقين بعدل الخالق جل جلاله وحكمته ورحمته في خلقه وقدره وشرعه وكلامه ومعرفة العبد بقدره ومقامه يزداد السائر على مقتضاه ايماناً وعلماً وفوائد جمة ، ويسلم من الغرور والأوهام والفتنة ، وهو سبيل الراسخين الذين يقولون فيما لا يفهمونه : « آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ »(1) .

القول الثاني في فواتح السور :

وذهبت جماعة من أهل العلم ــ من السلف والخلف ــ الى ان هذه الفواتح قد فهمت العرب المراد منها ، ولذلك لم تعترض على البيان بها ولا طعنت في عربيته بعدم فهمها ، وان كنا لا نجد في كلامها ما نعرف به المعنى الذي فهمته منها ، وممن ذهب الى ذلك الامام أبو بكر بن العربي فقال في كتاب « القبس على موطأ مالك بن أنس » : « وليست من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله ، فان محمداً ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لو خاطب الكفار منها بما لا يفهم لكان ذلك أقوى أسبابهــا في الطعن عليه ، وكانوا يقولون : هذا يتكلم بما لا نفهم وهو يدعي أنه بلسان عربي مبين . وما حمعسق في اللسان ؟ وما كهيعص في الكلام ؟ فدل أنهم فهموا الغرض وعرفوا المقصود » .

---

(1) ٣/٧ آل عمران .

اختلاف المتأولين :

منهم طائفة تكلمت على كل لفظ من ألفاظ الفواتح وذكرت له معنى ، واختلفوا في تلك المعاني التي ذكروها ، وهي كما ذكر الامام ابن العربي : « لا سبيل الى تمييز واحد منها بدليل لأنه معدوم ، ولا بأثر لأنه غير منقول » ولا تطمئن الى شيء منها القلوب التي عاشت على اليقين ، ولا تسلم واحداً منها العقول التي اعتادت قفو العلم على نور الدليل .

ومنهم طائفة أخذتها كلها بوجه واحد ، فقال بعض : إنها حروف تنبيه تقرع الأسماع فتلفت السامعين الى الاستماع والتدبر ، لما اشتملت عليه السورة من الأحكام والعقائد والآداب وغيرها من مقاصد القرآن ، فهي نظير الا والهاء في مألوف الاستعمال . وقال بعضهم : انها حروف تعجيز وافحام وتقريع ، لأن القرآن الذي عجزوا عن معارضته من هذه الحروف وأخواتها تركبت كلماته ، فكأنما يقال لهم : ما هذا الذي عجزتم عنه إلا كلام جنس كلامكم ، وما ركبت لكلماته الا مما ركبت منه كلماتكم ، وهذا لعجزهم ، ولتقريعهم أوجع . ومما يؤيد هذا أن أكثر هذه الفواتح ذكر بعده الكتاب المعجز وصفاته ، مثل قوله تعالى :

« ألم ، ذلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ »[1] « ألم ، اللهُ لا إلهَ إلا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ ... الآية » [2] . « ألمص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ » [3] . « ألر تِلْكَ آيَاتُ

(١) ١/١ ـ ٢ البقرة .

(٢) ١/٣ ـ ٣ آل عمران .

(٣) ١/٧ ـ ٢ الاعراف .

الكِتَابِ الحَكِيمِ » [١] . « ألر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » [٢] « ألر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ » [٣] . « طسم ، تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ »[٤]. « ألم تَنْزِيلُ الكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ »[٥]. « حم ، تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ » [٦] وغيرها ...

الفائدة العملية :

قد افتتحت هذه السور من القرآن العظيم بكلمات التنبيه ، وجاءت أول سورة منه بعد الفاتحة مفتتحة به ، فلنكن عند قراءته في انتباه واقبال على استيعاب لفظه وتفهم معناه ، فان التالي للقرآن والسامع له في حضرة الرب على بساط القرب ، والغفلة في هذا المقام من قلة الأدب ، ومن قل أدبه في مقام الاحسان والكرامة استوجب أضعاف ما يستوجبه غيره من العتب والملامة وتعرض لموجبات الحسرة والندامة ، فالله نسأل أن يجعلنا من قرائه على انتباه واستحضار أناء الليل وأطراف النهار العاملين به بالعشي والأبكار ، انه الجواد الكريم الستار .

* * *

« وَالقُرْآنِ الحَكِيمِ ، إنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ ، عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، تَنْزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ ، لِتُنْذِرَ قَوْماً

---

(١) ١/١٠ يونس .
(٢) ١/١١ هود .
(٣) ١/١٢ يوسف ، وانظر : ١/١٣ الرعد ، و ١/١٥ الحجر .
(٤) ١/٢٦ ــ ٢ الشعراء .
(٥) ١/٣٢ ــ ٢ السجدة .
(٦) ١/٤٠ ــ ٢ المؤمن .

مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ »[1] •

بيان المفردات :

الحكيم : هو الموصوف بالحكمة ، وأصل اللفظ من حكم ، بمعنى أمسك ، فالحكمة هي العلم الصحيح الذي يمسك صاحبه عن الجهالات ، والضلالات ، والسفالات ، فيكون ذا ادراك للحقائق قويم وخلق كريم ، وعمل مستقيم ، لا يحكم الا عن تفكير ، ولا يقول الا عن علم ، ولا يفعل الا على بصيرة ، فاذا نظر أصاب ، واذا فعل أطاب ، واذا نطق أتى بفصل الخطاب • ووصف القرآن بالحكيم لأنه هو العلم الصحيح ، المثمر لهذا كله ، والصراط المستقيم ، هو دين الاسلام ، الذي جاء به جميع المرسلين ، قبل النبي ــ صلى الله عليه وعليهم وسلم ــ • تنزيل : بمعنى منزل ، وهو الصراط المستقيم • العزيز : القوي الغالب ، الممتنع الذي لا نظير له • الرحيم : المنعم الدائم الانعام والاحسان • الانذار : الاعلام بوقوع ما يخاف منه ، وهو الهلاك والعذاب العاجل والآجل • والغافل عن الشيء : التارك لـه المعرض عنه ، مع حضوره لديه لاشتغال باله بسواه •

المعنى :

أقسم الله تعالى بالقرآن الحكيم على أن محمداً ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ من المرسلين رداً على من قالوا له : لست مرسلا ، في حال أنه على دين الاسلام ، الذي بعثه الله به ثابتا عليه في عقـده ، وقوله ، وفعله ، وجميع أمره • وأخبر تعالى أنّ هذا الاسلام الذي جاء به النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ نزّله عليه الله القوي الغالب ، الذي لا يغالب ، العديم الشبيه والنظير ، والمنعم الدائم الانعام المستمر الاحسان • وبيّن تعالى أنه كان من المرسلين لينذر الأمة العربية

---

(١) ٣٦/٢ ــ ٦ يس •

ويعلمها سوء عاقبة ما هي عليه من الشرك والضلال ، تلك الأمة التي ما أنذر آباؤها فهي مشتغلة بما توارثته من آبائها ، من عبادة الأوثان ، وارتكاب الاثم والعدوان ، وأنواع الضلال ، والخسران ، معرضة عن توحيد خالق الأرض والسموات ، وعن النظر فيما نصب للدلالة عليه من الآيات ، طال عليها أمد الجهالة ، واستولت عليها أسباب الضلالة ، فتمكنت منها الغفلة ، التمكن التام ، فتركت في أوديتها البعيدة المدى ، كالأنعام أو أضل من الأنعام •

اصل المعرفة والسلوك من هذه الآيات الكريمة :

تمهيد :

خلق الله الخلق حنفاء موحّدين ، فأتتهم الشياطين فأضلتهم عن سواء السبيل ، فمن رحمته تعالى بهم ، أن أرسل اليهم ، رجالا منهم ، لهدايتهم ، وأنزل عليهم كتبا منه ، لدلالتهم• فالله هو المرسل وتلك الكتب هي رسائله ، وأولئك الرجال هم رسله ، والخلق هم المرسل اليهم •

المعرفة :

فللمرسل العلوّ والكمال ، وله الخلق ، والأمر ، ومنه الرحمة ، والعدل ، والاحسان ، والفضل ، وله الربوبية ، والالوهية ، دون شريك ولا مثال •

وفي تلك الوسائل الحق ، والحكمة ، والنور المخرج ، من كل ظلمة والفرقان في كل شبهة ، والفصل في كل خصومة ، بها تفتح البصائر ، وتطهّر الضمائر ، وتعرف طريق الحق ، والهدى من طرائق الباطل والضلال •

ولأولئك الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أكمل ما يمكن للانسان من كمال ، وأكمل المعرفة بالمرسل ـ تعالى ـ ، وأعظم الخشية له ، وأكمل الرحمة بالخلق ، وأشد الشفقة عليهم ، وأكمل العلم بما جاءوا

به وأعظم التمسك به ، وأكثر الاتباع له ، فلا كمال الا بالاقتداء بهم ، ولا نجاة الا باتباعهم ، ولا وصول الى الله تعالى الا باقتفاء آثارهم . وللمرسل إليهم عجز المخلوق وضعفه ، أمام خالقه ، وحاجته وافتقاره اليه ، وعليه حق عبادته ، وطاعته ، والرجاء لفضله ، والخوف من عقابه ، والفكر في آياته ، ومخلوقاته ، والنهوض للعمل في مرضاته ، واستثمار أنواع نعمائه ، والشكر له على جميع آلائه . فبمعرفة هذه الأربعة حق معرفتها ، ومعرفة مقام كل واحد منها ، وما له فيه ـ كمال الانسان العلمي الذي هو أصل كماله العملي ، والشروط اللازم فيه .

وقد اشتملت هذه الآيات على هذه الأربعة في حق الأمة المحمدية فالمرسل هو « **العزيز الرحيم** » والرسالة هي : « **القرآن الحكيم** » والرسول هو « **محمد** » ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ المخاطب بـ « **إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** »والمرسل اليهم هم العرب الذين « **مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ** » .

تمهيد :

لما ضل الخلق عن طريق الحق ، والكمال ، الذي يوصلهم اليه ، الى مرضاته والفوز بما لديه أرسل اليهم الرسل ليعرفوهم بأن ذلك الطريق هو الاسلام ، ويكونوا أدلتهم في السير وقادتهم الى الغاية ، وأنزل عليهم الكتب لينيروا لهم بها الطريق ، ويقودهم على بصيرة ، ويتركوهم على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يهلك عليها إلاّ من ظلم نفسه ، فحاد عن السواء ، أو تخلف عن القـافلة فكان من الهالكين . فالقافلة هم الخلق ، والطريق هو الاسلام ، والادلة هم الرسل ، والمصابيح هي الكتب ، والغاية هو الله جل جلاله .

السلوك :

فعلى مريد النجاة من المهالك والفوز بأسنى المطالب ، وأعلى المراتب

ـ أن ينضم الى القافلة الربانية يتعاون مع أفرادها ويقوم بحق الرفقة فيهـا ، ويعـد نفسه جزءا منها لا سلامة له الا بسلامتها ، فهو يحب لكل واحـد منها ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لهـا ، ويهديه الى ما يهديهـا اليه من خير ويقيـه مما يقيهـا منه من سوء • وان يطيع أولئك الأدلة ويقتفي آثارهم ، وينزل بنزولهم ، ويرتحل بارتحالهم ، وأن يرجع في معرفة وجوه السير ، وأصنافه ، وأوقاته ، ومراحـله ، ومنازله ، اليهم دون أدنى اعتراض ، ولا مخالفة ، ويقابل ما يتحملونه من مشاق الـدلالة ، ومتاعب القيـادة ، بغاية مـا يستطيع من الأدب معهم ، والتعظيم ، والانقيـاد لهم ، والمحبـة فيهم ، وحسن الثناء عليهم ، وطلب عظيم الجزاء ، مـن الله لهم تعالى على عظيم إحسانهم • وان يلتزم ذلك الطريق ويسير في سوائه غير مائل الى جنباته ، ولا ذاهب في بنيّاته (١) لا مفرطا في السير يسبق الرفقة فينفر بلا دليل ، ولا مفرطا فيه ، فيتخلف عنها بلا معين نمطا وسطا مع الجماعة لا من الغلاة ولا من المقصرين • وأن يستنير بما رفعه أولئك الأدلة من مصابيح الهداية ، وأن يسير تحت أنوارها الساطعة ، مفتح البصر ، للاستضاءة بها غير مغلق الأجفان عنها ، متعرفا بها أديم الأرض ومواقع قدمه منها • وأن يعرف عظم الغاية التي هو سائر اليها ، فيقصر همه كله في الوصول اليها ، ويحضرها قلبه في كل لحظات سيره ، ليسرع مع الرفقة اليها ، وتخف عليه مشاق الطريق وأتعابها ، ويعذب لديه كل ألم في الانتهاء اليها •

فبسلوك هذا الطريق القويم ، بدلالة الرسول الكريم ، وأنوار الكتاب المبين ، الى ربّ العالمين الرحمن الرحيم ، كمال الانسان العملي المبني على الكمال العلمي •

---

(١) بنيات الطرق جميع بنية تصغير بنت هي ما يخرج من نواحيه من طرق صغيرة تضل السائر عن الغاية وتبعده عن الرفقة في السير .

وقد اشتملت هذه الآيات على ذكر السالكين ، وهم المنذرون وعلى الدليل وهو الرسول — صلى الله عليه وآله وسلم — وعلى الطريق وهو الصراط المستقيم المنزل من الله ، وعلى ما بين الطريق وهو القرآن الحكيم .

الحكمة في هذه الآية :

قال ابن وهب : سمعت مالك رضي الله عنه يقول : « الحكمة : الفقه في دين الله والعمل به » ففي الفقه في دين الله الكمال العلمي ، وفي العمل به الكمال العملي ، وهذه الآيات — على إيجازها — قد اشتملت على أصول ما به كمال الانسان العلمي وكماله العملي اللذان بهما كماله الروحي والبدني ونعيمه الدنيوي ، والأخوي ، وما كماله العلمي ، وكماله العملي الا بالمعرفة الصحيحة والسلوك المستقيم ، وهما اللذان تقدم في الفصل السابق بيانهما وفسر مالك الحكمة بهما اذ الفقه في دين الله هو المعرفة الصحيحة ، والعمل به ، هو السلوك المستقيم ، وهما الحكمة التي وصف به ، في الآية الاولى القرآن العظيم ، لانه كتاب العلم ، والعمل اللذين لا يكون بدونهما حكيم . فكما اشتملت هذه الآيات على أصول الحكمة دلت على أصلها ، ومأخذها ، وما يكون الانسان بعلمه والعمل بما فيه من أهلها ، وهو القرآن الحكيم .

توجيه القسم في الآيات :

أقسم الله بالقرآن الحكيم على أن محمداً من المرسلين ، لينذر الغافلين حال انه على صراط عظيم مستقيم منزل من العزيز الرحيم ، لأن القرآن هو كتاب محمد — صلى الله عليه وآله وسلم — الذي كان يتخلق به ويهتدي بما فيه وينذر به ويدعو اليه ويبينه للناس بقوله ، وفعله ، وهو برهانه ، وحجته ، وآيته ، ومعجزته .

كما أنه كتاب الاسلام ، الذي هو الصراط المستقيم ، فيه حجته ،

ودلائله ، فيه أحكامه وحكمه ، فيه آدابه وشمائله ، فيه بيان حقيقته ، وما هو منه ونفى ما ليس منه عنه ، فيه بيان تاريخه ، وتاريخ الانسانية معه ، فيه ذكر أوليائه ، وحسن بلائهم في سبيله ، وحسن أثره فيهم ، والعود بالعاقبة المحمودة عليهم ، وذكر أعدائه وجهدهم في مقاومته وسقوط شبههم أمام حجته وذهاب باطلهم أمام حقه ، وشدة أخذه لهم ، على ظلمهم ، ونزول نقمته بهم ، وحلول دائرة السوء عليهم ، فيه الاسلام كله ، فمن طلبه فيه ، وجده ، ونجا به ، ومن طلبه في غيره [1] ضل ، وكان من الهالكين •

عقائد وادلتها من هذه الآيات :

العقيدة الاولى : محمد رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ

دليلها الاول القرآن الحكيم جاء رجل أمي ما قرأ ولا كتب ولا دارس العلماء ولا عرف الكتب •

ودليلها الثاني : موافقة دعوته ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لدعوة المرسلين ــ صلوات الله عليهم ــ الى عبادة الله وحده وتصديق ما جاءهم به من عنده دون أن يسألهم على ذلك أجراً وهذا من قوله « لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ » فهو من المرسلين • من جهة ارساله لأنه منهم في أقواله وأفعاله نظير قوله تعالى :

« قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ » [2] وقوله : « بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ » [3] وقوله : « إِنَّا أَوْحَيْنَا

---

(١) بيان النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ للقرآن من القرآن لقوله تعالى : « تبين للناس ما نزل اليهم ، وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

(٢) ٩/٣٥ الاحقاف .

(٣) ٣٧/٣٧ الصافات .

إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ »[1] .

ودليلها الثالث : هذا الدين الكامل الجامع الذي هدى به النوع الانساني أفراداً وجماعات الى ما فيه سعادته ، فأطلق فكره وسدد نظره وقوم عقائده وهذب أخلاقه ونظم اجتماعه ، ووضع له قواعد الحياة والعمران على العدل والإحسان ووجههم الى خالقهم وما أعدّ لهم عنده – ان آمنوا وعملوا الصالحات – من النعيم المقيم والرضوان التام .

ودليلها الرابع : سلوكه هو في حياته على هذا الصراط المستقيم من يوم عرف الدنيا حتى فارقها ، فكان يمثله على أكمل وجه لا يخل بشيء منه ثابتا عليه لا يحيد قيد شعرة عنه دون أن تحفظ عنه زلة . ولا تعرف منه في القيام به والدعوة اليه فترة ، ولا تقف أمامه قوة ، ولا ترد له حادثة عزمة ولا تحمله على هوادة فيه رغبة ولا رهبة ، ولا تبدل حاله رخاء ولا شدة ، فكان في كرم خلقه وتمام زهده وعظيم تألهه وتوجهه لربه بعد ما فتح الله له الفتح المبين ودخل الناس أفواجا في الدين كما كان أيام كان وحيدا بين أعظم أعدائه من المشركين ، وما هذا من شأن البشر وطبعهم لولا عصمة وتأييد رب العالمين .

العقيدة الثانية : القرآن كلام الله ووحيه ، ودليلها أنه حكيم فما فيه من العلم وأصول العمل . لا يمكن أن يكون الا من عند الله في عقائده ودلائلها وأحكامه وحكمها وآدابه وفوائدها ، الى ما فيه من حقائق كونية كانت مجهولة عند جميع البشر وما عرفت لهم إلاّ في هذا العصر الأخير ، ومن أشهرها مسألة الزوجية الموجودة في جميع هذا الكون حتى أصغر جزء منه وهو الجوهر الفرد المركب من قوتين موجبة وسالبة ، جاءت هذه المسألة في آيات كثيرة منها

(١) ١٦٢/٤ النساء .

قوله تعالى : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »[1] . ومنها مسألة حياة النبات التي جاءت في مثل قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ »[2] . ومنها مسألة تلاقح النباتات بواسطة الرياح التي تنقل مادة التكوين من الذكر الى الأنثى ، جاءت في آيات كثيرة منها قوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ »[3] فهذه حقائق علمية كونية أجمع علماء العصر أنها من المكتشفات الحديثة ولم تكن معلومة عند أحد من الخلق قبل اكتشافها ولا كانت عندهم الآلات الموصلة الى معرفتها . وكفى بهذا القل من الكثر دليلاً على أن هذا القرآن ما كان إلاّ من عند الله الذي خلق الأشياء ويعلم حقائقها .

العقيدة الثالثة : الاسلام دين الله الذي شرعه وارتضاه . ودليلها مستفاد من وضعه بأنه صراط مستقيم ، فهو تشريع تام عام لجميع أعمال الانسان ، أعمال قلبه وأعمال لسانه وأعمال جوارحه وجميع معاملاته الخاصة والعامة بين أفراده وأممه ، ولا تخرج كلية من كلياته ولا جزئياته عن هذا الأصل العام المتجلي في جميع الاحكام وهو « الحق والخير والعدل والاحسان » وقد وضع عقلاء الأمم شرائع في بعض نواحي أعمال الانسان ، ولكنها باجماع المتشرعين لا تخلو من نقص واعوجاج واضطراب ، فهم ما يفتئون يتبعونها بالتكميل والتقويم والتعديل على ممر الأيام ، ولو عرضت كل حكم من أحكامه على الأصل العام الذي ذكرناه لوجدته منطبقا عليه ظاهرا فيه حتى

---

(۱) ٥١/٤٩ الذاريات .

(۲) ٢١/٣٠ الانبياء .

(۳) ١٥/٢٢ الحجر .

ما خفي وجهه على الأمم الأجنبية عن الاسلام أيام تاريخها ، قد ظهر لها فضله ونفعه أيام تقدمها ، فجاء كبراء عقلائها يعترفون فيها بصواب ما شرعه فيها الاسلام ، ثم هم يعجزون عن تطبيقها على أممهم للعادة الغالبة والوراثة القديمة ، منها مسألة الطلاق وتعدد الزوجات وتحريم الربا تحريما باتا ، فكم من عالم غير مسلم صرح بأنّ الحق والعدل والخير للانسانية في هذه المسائل هو ما شرعه الاسلام على الوجـه الذي شرعه الاسلام .

فهذه الاستقامة التامة العامة المطردة في شرع جاء به رجل أمي من أمة أمية جاهلية يجزم كل عاقل بانه ليس من وضع العباد وإنما هو من وضع خالق العباد[1] .

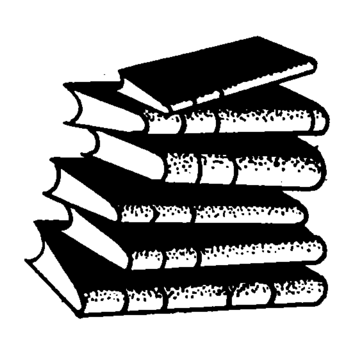

(١) ش : ج ٢ ، م ١٠ ، ص ٤٧ ـ ٥٧
غرة شوال ١٣٥٢ ـ جانفي ١٩٣٤

الوَحي مصدر الاسلام

جملة هو « تَنْزِيلُ العَزِيزِ الرَّحِيمِ »[1] بينت وجه استقامة ذلك الصّراط الذي هو الاسلام بأنه تنزيل العزيز الرحيم ، وأفادت أن جميع هذا الدين وحي من الله منزل على نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهذا لأن مرجع الاسلام في أصوله وفروعه الى القرآن وهو وحي من الله والى السنة النبوية ، وهي وحي أيضا لقوله تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى »[2] وكل دليل من أدلة الشريعة فانه يرجع الى هذين الأصلين ولا يقبل الا اذا قبلاه ودلا عليه • وكل شيء ينسب للاسلام ، ولا أصل له فيهما فهو مردود على قائله ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : **« من احدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »** •

الاسلام دين العز والرحمة :

ذكر من أسمائه تعالى في هذا الموطن العزيز : « الرحيم » للتنبيه على أن هذا الدّين الذي نزّله الرب الموصوف بالعزة والرحمة هو دين عزة ورحمة •

ومن مقتضى العزة : القوة والمنعة والرفعة ، ومن مقتضى الرحمة : الفضل ، والخير ، والمصلحة • وهذه كلها متجلية في أحكام الاسلام • والعدل والاحسان اللذان أمر الله بهما وأنبنت أحكام الاسلام عليهما

---

(١) ٣٦/٥ يس

(٢) ٥٣/٤ ـ ٥ النجم •

لا يكونان إلاّ عن العزة والرحمة فالذّليل لا ينهض بالحكم ولا يقيم ميزان العدل والقاسي لا يكون منه إحسان .

اهتداء واقتداء :

فالمسلم المتحقق بالإسلام المهتدي بهدايته لا يكون إلاّ عزيزا رحيما ، فالذلة من المسلم نقص إسلامه والقساوة مثلها نقص فيه ، وقد ذكر الله تعالى سادات المسلمين في عزتهم فقال :

« وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ » (1) .

وذكرهم في رحمتهم فقال :

«وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» (2)

ونعم القدوة هم لجميع المسلمين .

النذارة ثمرة الرسالة :

كان من المرسلين لينذر الغافلين ، فالأول كمال والثاني تكميل ، وقد فطر الله رسله ــ صلى الله عليهم وسلم ــ على الرحمة وحب الخير ، فكانوا أحرص الناس على نجاة الناس وكمالهم وسعادتهم ، فصبروا على تكذيبهم واذايتهم حتى أدّوا أمانة الله إليهم ، وأقاموا حجته عليهم . وكان الله ينجيهم ومن آمن بهم وينزل عقوبته بالمكذبين لهم وينصرهم عليهم ، فأعلم محمداً ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بأنه من المرسلين لينذر ــ ليأتسى بهم ويصبرهم ويرجو من نصر الله له واهلاك أعدائه ما كان منه تعالى لهم .

---

(1) ٤٢/٣٩ الشورى .

(2) ٥٩/٩ الحشر .

النـداء :

العلماء ورثة الأنبياء وما ورث الانبياء ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم • والعلم مستمد من الرسالة فعلى أهله واجب التبليغ والنذارة ، والصبر على ما في طريق ذلك من الأذى والبلايا ، والعطف على الخلق والرحمة وقد قال الله تعالى :

« فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » [1] •

التدريج في الانذار :

أرسل الله محمداً ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ للعالمين بشيراً ونذيراً ، ودرَّجهُ في النذارة على مقتضى الحكمة من القريب الى البعيد ، فأمره بانذار عشيرته بقوله تعالى : «وَانْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ » [2] فصعد الصفا فنادى بطون قريش حتى نادى العبَّاس عمَّه وصفية عمته وفاطمة ابنته ، وقال لهم : **اشتروا انفسكم لا اغني عنكم من الله شيئا** وأمر بانذار من حول مكة من العرب بقوله تعالى : « لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا »[3] على الوجه الأقرب في معنى « وَمَنْ حَوْلَهَا » المؤيد بصدر الكلام وهو قوله : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً » [4] ومثلها في

(١) ١٢٣/٩ التوبة .
(٢) ٢١٤/٢٦ الشعراء .
(٣) ٩٢/٦ الانعام و ٧/٤٢ الشورى .
(٤) ٧/٤٢ الشورى .

إنذار العرب ما في هذه الآية وهو قوله: « لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ » [1] ، فكان يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم . وأمره بتعميم الإنذار بمثل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً » [2] فأرسل رسله الى الأمم تحمل كتبه الى ملوكها بالدعوة الى الاسلام ، وكان ذلك هو الإنذار العام .

اندفاع إشكال :

قد كان النبي يرسل الى قومه خاصة وأرسل نبينا ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ الى الناس عامة بمثل قوله : « **لانذركم به ومن بلغ** » أي بالقرآن كل من بلغه القرآن ولا يشكل على ذلك مثل ما تقدم من الآيات في انذار عشيرته الأقربين وقومه العرب ، لأنه ابتدأ بهما لحكمة التدريج وحق القريب لا للتخصيص ، بدليل ما جاء من آيات التعميم .

اقتداء :

هكذا على المرء أن يبدأ في الإرشاد والهداية بأقرب النّاس إليه ، ثم من بعدهم على التدريج ، وعندما يقوم كل واحد منا بارشاد أهله وأقرب الناس اليه لا نلبث أن نرى الخير قد انتشر في الجميع ، فمن الأسر تتركب الأمة ، فعندما يعنى كل واحد بأسرته ترتقي الأمة كلها بارتقاء أسرها كارتقاء أي كل بارتقاء أجزائه ، فيكون المعتني بأسرته في الوقت نفسه معتنيا بأمته . وعندما يقصد بخدمة أسرته

(١) ٣٦/٦ يس .

(٢) ٧/١٥٧ الاعراف .

خدمة أمته يثاب ثواب خادم الجميع أسرته بالفعل وأمته بالقصد أو أسرته مباشرته وأمته بواسطة وكل هذا مما يثاب المرء شرعا عليه .

استطراد واستنباط :

لما كان العرب لم يأتهم نذير قبل النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — بنص [1] هذه الآية وغيرها فهم في فترتهم ناجون لقوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً »[2] و « أنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ » [3] وغيرهما ، وكلها آيات قواطع في نجاة أهل الفترة ، ولا يستثنى من ذلك إلاّ من جاء فيهم نص ثابت خاص كعمر بن لحي أول من سيب السوائب وبدّل في شريعة ابراهيم وغيّر وحلل للعرب وحرّم فابوا النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — ناجيان بعموم هذه الأدلة ، ولا يعارض تلك القواطع حديث مسلم عن أنس — رضي الله عنهما — : « أنّ رجلا قال للنبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : يا رسول الله ، أين أبي ؟ قال : في النار . فلما قفا الرجل دعاه فقال : ان أبي وأباك في النار » لأنه خبر آحاد فلا يعارض القواطع وهو قابل للتأويل ، يحمل الأب على العم مجازاً يحسنه المشاكلة اللفظية ومناسبته لجبر خاطر الرجل وذلك من رحمته — صلى الله عليه وآله وسلم — وكريم أخلاقــه .

سبب الغفلة ودواؤها :

أفادت الفاء في قوله تعالى : « فَهُمْ غَافِلُونَ » أنّ غفلتهم

---

(١) في الاصل بص .

(٢) ١٥/١٧ الاسراء .

(٣) ٢١/٥ المائدة .

تسببت عن عدم انذارهم ، فكل أمة انقطع عنها الإنذار وترك فيها التذكير واقعة في الغفلة لا محالة . ولما كان ترك الانذار والتذكير موقعا في الغفلة فالانذار والتذكير يزيلانها ، فقد عرفتنا الآية الكريمة بسبب الغفلة وبعلاجها لنحذر سببها ونعالج أنفسنا وغيرنا بعلاجها .

تطبيق :

كان الناس منذ زمن قريب لا يسمعون ولا يسمع منهم لفظ الاهتداء بهداية القرآن العظيم والاقتداء بهدى الرسول الكريم — صلى الله عليه وآله وسلم — والسير بسيرة السلف الصالح في النهوض بأعباء الدنيا والدين وهم — إلا قليلا — عن هذا غافلون ، أما اليوم بعد أن نهض العلماء المصلحون بواجبهم ونشروا دعوة الحق في قومهم فقد أصبح ذلك معروفا عند أكثر الناس محن [1] وعناية طلاب العلم ومناط رغبتهم وفي متناول الناس بجميع طبقاتهم وانا لنرجو من فضل الله المزيد ، ونشاهد ذلك — والحمد لله — كل يوم يزيد فالحمد لله على ما علّم وألهم وبصّر ويسّر . نسأله دوام التوفيق والتسديد رب العالمين [2] .

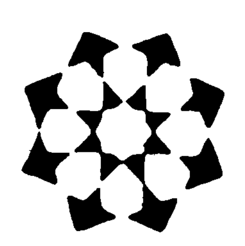

(١) كذا في الاصل .

(٢) ش : ج ٣ ، م ١٠ ، ص ٩٥ — ٩٩ .
غرة ذي القعدة ١٣٥٢ هـ — ٥ فيفري ١٩٣٤ م .

لا يؤمن من سبق في علم الله عدم ايمانه

«لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ..»(1)

المناسبة :

علم الله أن نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقوم بالنذارة لقومه ويبذل غاية جهده في تنبيههم من الغفلة ، وانقاذهم من الهلكة ، وعلم أنهم لا يؤمن به إلاّ أقلهم ، وعلم أن ذلك يكون من أعظم ما يؤلم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لشدة حرصه على ايمانهم ، وعظيم شفقته عليهم . ولعدم ظهوره ثمرة ما بذله من جهد في هدايتهم فأراد ـ تعالى ـ أن يقوي قلب نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على تحمل ذلك باعلامه به من أول الأمر ، إذ ليس المؤلم المتوقع كالمؤلم الذي يصدم عن مفاجأة وأعظم منه الذي يصدم مع توقع ضده ، كما هنا ، فان المتوقع منهم بعد الانذار البالغ بالبرهان الساطع هو ايمان أكثرهم لا كفره .

المفردات :

حق : وجب وثبت . القول : قول الله فيهم بما سبق في علمه ، فهم لا يؤمنون . فهم : أي أكثرهم .

التراكيب :

نفي الايمان عنهم نفياً مؤكداً بالاخبار عن ضميرهم بجملة لا يؤمنون.

---

(1) ٣٦/٧ ـ ١١ يس .

وقرنت الجملة بالفاء السببية لتفيد أن من سبق في علم الله عدم ايمانه لا يرجى ايمانه بحال ، فارتباط الثاني بالأول ارتباط لا انفكاك له .

المعنى :

لقد وجب وثبت ما سبق في علم الله في أكثرهم وما كان من قوله بعدم ايمانهم فلا يرجى من ذلك الأكثر الذي سبق في علم الله عدم ايمانه ايمان .

سؤال :

ما مات النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — حتى عم الاسلام جزيرة العرب ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ولا شك ان الذين ماتوا على الكفر هم الأقل بالنسبة لمن آمنوا فما معنى قوله تعالى : « حَقَّ القَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ » ؟

جوابه :

الذين قام النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — بانذارهم وأقام بين ظهرانيهم مكررا للنذارة عليهم صباح مساء مدة ثلاث عشرة سنة هم أهل مكة . فهم الذين تتعين ارادتهم من الضمير في قوله تعالى : « أَكْثَرِهِمْ » ولا شك أن اكثر من انذارهم النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — من أهل مكة ماتوا على الكفر .

سؤال على هذا الجواب :

هذا يقتضي أن المراد بلفظه « قوماً » المتقدمة أهل مكة ، مع ان المفسرين فسروها بالعرب .

جوابه :

نسلم هذا ويكون تفسير « قوماً » بالعرب نظراً لماثلتهم لاهل

مكة في وجوب انذارهم باعتبار مشاركتهم لهم في الوصف وهو غفلتهم لعدم انذار آبائهم •

لا حجة لمن مات على كفره بما سبق من علم الله :

قامت حجة الله على خلقه بما ركب فيهم من عقل ، وما مكنهم من اختيار ، وما نصب لهم من آيات مشاهدات وما أرسل اليهم من رسل بآيات بينات، وهذه كلها أمور معلومة لديهم ضرورية عندهم لايستطيعون أن ينكروا شيئا منها ، فلا يمكنهم أن يجحدوا ما عندهم من عقل ومن اختيار ،ولا أن ينفوا ما يشاهدونه من الآيات في المخلوقات ، ولا أن ينكروا مجيء الرسل اليهم وما تلوا عليهم من آيات ، وبهذه الاشياء قامت حجة الله عليهم وكان جزاؤهم على ما اختاروه بعدها لانفسهم • فأما ما سبق من علم الله فيهم فهو أمر مغيب عنهم غير مؤثر فيهم — لان العلم ليس من صفات التأثير — ولا دافع لهم • فليس لهم أن يحتجوا به لأنفسهم لأنهم لم يعملوا لأجله ، كيف وهو مغيب عنهم • وانما عملوا باختيارهم الذي يجدونه بالضرورة من أنفسهم •

توجيه للترتيب :

تقوم حجة الله على العبد أولاً ويعمل هو — كاسباً ومكتسباً — باختياره ثانيا ، ويظهر لنا ما سبق من علم الله فيه بعد أن اختار ما اختار ثالثا • ولهذا قدمت النذارة وما يرتبط بها على هذه الآية التي فيها بيان ما سبق من علم الله فيهم •

تقريب :

قد يكون لرجل ولدان هو عالم بنفسيتهما وأخلاقهما وسيرتهما ثم يأمرهما بأمر فيه الخير لهما وهو يعلم — بما علم من أحدهما — انه يمتثل ويعلم — بما علم من الأخر — انه يخالف • ويقول لأهل

بيته ان فلانا سيمتثل ، وان فلانا سيخالف • ويظهر ما قاله وما علمه في كل واحد منهما فجازى الممتثل على طاعته وجازى المخالف على عصيانه • فلا شك ان هذا الرجل قد أحسن الى ولديه بما أمرهما به من خير وفعل ما تقتضيه أبوته من النصح والارشاد ، ولا يقدح في ذلك علمه بما سيكون منهما • كما أن هذين الولدين قد نال كل واحد منهما ما يستحق دون أن يكون للمخالف منهما حجة على مخالفته بما كان يعلمه منه أبوه •

لله المثل الأعلى فقد أحاط بكل شيء علما فعلم من سيطيعه ومن سيعصي ، ولكنه الحكم العدل فلم يكن ليجازيهم على سابق علمه فيهم ، الذي لا دخل لهم فيه ، بل جعل جزاءهم بعد اقامة الحجة عليهم بما يكون من اختيارهم ليكون جزاؤهم على ما عملوا وما قدمت أيديهم وما لهم دخل فيه بالكسب والاكتساب •

تعليم :

أرأيت كيف أن الله تعالى لم يجاز الخلق على مقتضى علمه فيهم ، وهو العلم الذي لا يتخلف ، وانما جعل جزاءهم على أعمالهم • فهذا تعليم لنا كيف تكون معاملتنا بعضنا لبعض فلا نجازي على مجرد الظن بل ولا على مجرد اليقين وانما تكون المجازاة بعد صدور الأعمال • فرب شخص قدرت فيه الخير أو الشر ففعل ضد ما قدرت ، فلو جازيته قبل الفعل لما طابق جزاؤك موضعه ولنال كل ما لا يستحقه ، فالحكمة والعدل والمصلحة في ربط المجازاة بالأعمال ، وهذا ما كان من الله في مجازاة خلقه وهذا ما ينبغي ان نربط به المجازاة بيننا •

تمثيل حال المعرضين عن الحق المعاندين فيه :

« إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ

فَهُمْ مُقْمَحُونَ ، وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ » (١) .

المناسبة :

لما ذكر عدم إيمانهم وكان مبدأ ذلك بإعراضهم عن الحق واختيارهم الكفر على الايمان ذكر ما عاقبهم الله به من منعهم عن الخير ودوام الاعراض عنه .

المفردات :

الغل : ما يجعل في العنق محيطا به . الذقن : مجمع اللحيين ، ملتقى عظميهما تحت الفم . مقمحون : رافعون رؤوسهم . يقال : قمح البعير قموحا اذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع عن الشرب . ويقال : اقمحه الغل : اذا ترك رأسه مرفوعا لضيقه . السد : الحاجز بين الشيئين . فأغشيناهم : جعلنا عليهم غشاء أي غطاء أحاط بجميع الذات فمنع العيون من الأبصار .

التراكيب :

فهي الى الأذقان أي الاغلال منتهية من أسفل الأعناق الى الأذقان . وهذا كناية عن عرضها ولذا فرع عليه فهم مقمحون . فرع عدم أبصارهم على جعل سد أمامهم وسد خلفهم لالتزاق السدين بهم وضغطهما عليهم ، فكما لا يستطيعون معهما تحركا لا يستطيعون أبصارا ، وكيف يبصرون وجهه ملتزق بالحائط مثلا .

المعنى :

إنا جعلنا في أعناق هؤلاء الذين لا يؤمنون أغلالا ضيقة عريضة

(١) ٣٦/ ٨ و ٩ يس .

تركتهم رافعين رؤوسهم عن مناهل الايمان لا يستطيعون أن يطأطئوا رؤوسهم اليها فيرتووا • وجعلنا أمامهم حجابا وخلفهم حجابا محيطين وملتزقين بهم ومغطيين لجميع ذواتهم فلا يستطيعون معهما تحركا ولا أبصارا •

توجيه التمثيل :

دعوا الى الايمان والتوحيد ومكارم الاخلاق وهذه أمور مدرك حسنها بالفطرة السليمة ، فهي كالماء الذي تقبل عليه الحيوانات بفطرتها ، فلما أعرضوا عنها شبهوا بالابل المقمحة عن الماء • ثم ان هذه الأمور كما يدرك حسنها بالفطرة السليمة تدرك باستعمال النظر فيما بين يدي الانسان من الآيات التي يراها ويشاهدها وما خلفه من أيام الله في الأمم التي بلغته أخبارها وأنباؤها ، فلما اعرضوا عما يرون وما قد سمعوا شبهوا بمن جعل بين سدين ملتزقين ومحيطين به فجمد في مكانه فلا هو يتحرك الى ناحية ولا هو يبصر شيئا •

ترهيب :

كل ما دعا اليه الاسلام من عقائد وأخلاق وأعمال فهو مما تقبله الفطر السليمة وتدركه العقول بالنظر الصحيح ، فمن قابل دعوة الاسلام بالاعراض والعناد وخالف فطرته وعاكس عقله كان حقيقا بهذا العقاب الشديد من طمس البصيرة والطبع على القلب ، فذكر الله لنا هذه العقوبة بهذا التمثيل البليغ الذي صورها في أبشع وأفظع صورة • ليحذرنا من الاعراض عن الحق والعناد له ويخوفنا بعاقبة ذلك على أهله •

تعليم :

لكل انسان فطرته وعقله فعلينا إذا دعينا الى شيء أن نعرضه عليهما

راجعين الى الفطرة الانسانية والى العقل البشري منزهين عن الاغراض والاهواء والأوهام والشبهات • فاذا كان هلاك هؤلاء بعدم الاستفادة منهما فان النجاة عند ما تعرض الامور بالرجوع اليهما ، وتجد القرآن العظيم يخاطب العقل والفطرة ليعلمنا الرجوع اليهما والاستفادة منهما •

من استوى عنده الانذار وعدم الانذار لا يرجى منه ايمان :

« وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »[1] •

المناسبة :

لما ذكر — تعالى — عدم ايمانهم لما سبق من علم الله فيهم ذكر هنا سببا آخر لذلك ، وهو استواء الانذار وعدمه لديهم •

الترتيب :

ذكر هذا السبب أثر ما تقدم من وصف حالهم في شدة الاعراض للتنبيه على أن من فسدت فطرته وانطمس عقله يسوي عنده الانذار وعدمه فلا يكون منه ايمان على كل حال •

المفردات والتراكيب :

سواء : بمعنى مستو • والهمزة الأولى أصلها للاستفهام ، وليس مرادا هنا ، وتسمى في مثل هذا التركيب همزة التسوية لوقوعها بعد لفظها ودخولها على الأول من أمرين يراد التسوية ما بينهما • وهي حينئذ من أدوات السبك ، ولذا يكون تأويل الكلام هكذا : سواء عليهم انذارك وعدم انذارك •

(١) ٣٦/١٠ يس •

المعنى :

ان أكثر أهل مكة الذين حكم الله بعدم ايمانهم بلغوا من شدة الاعراض والعناد الى حيث استوى عندهم الضدان الانذار وعدم الانذار ، فمحقق منهم عدم الايمان ومأيوس من صدوره من ناحيتهم •

تحـذير :

يذكر الله تعالى حالة هؤلاء الذين استوى عندهم الشيء وضده ، يحذرنا منها ومما يؤدي اليها من اهمال الفطرة وترك النظر ، فـان الانسان انما يمتاز على بقية الحيوان بتمييزه بين الحقائق بالفطرة والفكرة ، وادراكه الفوارق ما بينها • فاذا سلب هذه المزية التحق بالعجماوات بل كانت العجماوات خيرا منه لبقاء فطرتها سليمة لادراك ما فيها استعداد لادراكه •

تحذير الانذار للمنتفعين وتبشيرهم :

« إنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بالغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأجْرٍ كَرِيمٍ »[1]

المناسبة :

لما ذكر تعالى المأيوس من انتفاعهم بانذار النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ذكر الذين ينتفعون به تأنيسا له بهم وتقوية له بظهور ثمرة انذاره فيهم •

المفردات والتراكيب :

الذكر : القرآن ، وهو من أسمائه التي تكررت في التنزيل ،

---

(١) يس ٣٦/١١ •

وأل فيه للعهد • الغيب : الخلوة عندما يغيب الانسان عن عيون البشر ، التبشير الاخبار بما يسر ، المغفرة ستره الذنب بالتجاوز عنه وعدم المؤاخذة به • الأجر : الجزاء على العمل • الكريم : الطيب الشريف في نفسه النافع في أثره الذي لا يشوب ذاته نقص ، ولا منفعته ضرر ، وأفاد المضارع في تنذر تحديد الانذار للمتبعين ، وذكر اسم الرحمن ليفيد التركيب أنهم يخشونه مع العلم برحمته ، وذلك يقتضي جمعهم بين الخوف والرجاء •

الترتيب :

ذكر المنتفعين بعد المأيوس من انتفاعهم ترقياً من الأدنى الى الأعلى ، ولأنهم كالزبدة التي يحصل عليها بعد طرح غيرها ، ولإراحة القلب من أولئك لتتوجه العناية التامة الى هؤلاء ، وذكرت الخشية بعد الاتباع لانها لا تحصل إلاّ به • وجيء بعد بالتبشير مقرونا بالفاء لأنه إنّما يكون لأهل الاتباع والخشية بسبب اتباعهم وخشيتهم • وذكر الأجر بعد المغفرة لان التحلية بعد التخلية والتزين بعد ازالة الادران •

المعنى :

انما يتجدد انـذارك وينتفع به الـذين آمنوا وهم الذين اتبعوا القرآن وخافوا الله في خلواتهم لصدق ايمانهم خاشين نقمته راجين رحمته ، وهؤلاء كما تنذرهم وينتفعون بانذارك بشرهم على اتباعهم للقرآن وخشيتهم بالغيب للرحمن بمغفرة ذنوبهم وجزاء شريف رفيع طيب نافع لا نقص فيه ولا تنغيص ـ على أعمالهم •

دفـع اشكال :

أمر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالانذار العام ، ثم كان ممن أنذرهم قوم مأيوس منهم ، وهؤلاء هم المراد بقولـه تعالى :

« لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ » الآيات ، وهم الذين جاء فيهم قوله تعالى : « فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ... » الآية [1] . اذ لا فائدة من انذارهم ، وكان قوم آخرون آمنوا وهؤلاء هم المرادون بقوله : « إِنَّمَا تُنْذِرُ » الآية . فلا منافاة بين قوله تعالى : « لِتُنْذِرَ قَوْماً » الذي يقتضي التعميم وقوله : « إِنَّمَا تُنْذِرُ » الذي يقتضي التخصيص ، لأن الأول في مقام الانذار العام ، والثاني في مقام تجديد الانذار والانتفاع به . واما الاعراض فلا يكون الا عن المأيوس منه من الكافرين .

ارشـاد :

طريق السلوك الشرعي انما هي اتباع القرآن وأكمل أحوال العبد أن يخشى الله ويرجو رحمته ، وأهل الاتباع والخشية لا يستغنون عن تجديد الانذار وذلك بدوام التذكير المشروع في الاسلام . وتذكير المؤمنين بانذارهم وتبشيرهم فلا يؤمنون من عذاب الله ولا يقنطون من رحمته .

صفة المؤمن من هذه الآيات :

المؤمن الكامل هو من سلمت فطرته ، وصح ادراكه ، واتبع القرآن في عقده وخلقه وعمله ، واستوت خلوته وجلوته وسره وعلنه ، وعبد الله راجيا رحمته خائفا عذابه ، يخوفه الانذار ، وترجيه البشرى بالمغفرة والاجر الكريم .

ثبتنا الله والمسلمين على الايمان مع هذه الصفات الى الممات آمين يا رب العالمين [2] .

---

(١) ٢٩/٥٣ النجم .
(٢) ش : ج ٥ ، م ١٠ ، ص ١٨٦ ـ ١٩٦
غرة محرم ١٣٥٣ هـ ـ افريل ١٩٣٤ م .

الحياة بعد الموت

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى » [1]

المناسبة :

اشتملت الآيات المتقدمة على ذكر الرسول وصفته ، ورسالته التي جاء بها — وهي القرآن — ووصفها ، والمرسل وهو العزيز الرحيم ، والمرسل إليهم وتعميمهم بالنذارة وانقسامهم الى معرضين معاندين ومقبلين متبعين • فجاءت هذه الآية مشتملة على ما تكون فيه نتيجة ذلك وثمرته وهو يوم القيامة • ووجه آخر وهو أن أمهات أصول العقائد ثلاثة : الايمان بالله والايمان برسول الله والايمان باليوم الآخر • وقد انتظمت الآيات المتقدمة تقرير الأصل الثاني بالقسم عليه على ما تقدم من البيان ، وانتظمت الأصل الأول ضمنا بذكر العزيز الرحيم فجاءت هذه الآية لتقرير الأصل الثالث •

سؤال :

كيف لم يذكر الأصل الأول — وهو الأصل الاول — الا بما ذكر به من الذكر الضمني •

الجواب :

ذلك لأمرين : الأول أنَّ هذه الأصول الثلاثة تذكر في أكثر السور ، غير أن بعض السور تخصص بالحديث على بعض الاصول

---

(١) يس ٣٦/١٢ •

أكثر من غيره ولا يذكر فيها غيره الا ضمنا كما هنا • الثاني أن تقرير الأصل الثاني هو تقرير للاصل الأول إذ جميع دلائل النبوة دلائل على وجود الخالق وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته •

المفردات :

الاحياء : ايجاد الحياة في الجسم ولا يكون الا من الله • والميت : الجسم الذي يقبل الحياة ولا حياة فيه سواء كانت فيه وزالت أم لم تكن فيه بعد كالجنين قبل نفخ الروح فيه •

التراكيب :

أكدت الجملة (بأن) لان الخطاب مع منكري البعث والنشور•وأكد اسم ان بنحن ليفيد الاختصاص ، فهو المحيي دون غيره ــ وعبر بنحيي فعلا مضارعا ليفيد تجديد الاحياء واستمراره فيشمل احياءه للأجنة في الدنيا واحياءه الأحياء الثاني في الأخرى ، وكثيرا ما جاء في القرآن الاستدلال على الاحياء الثاني بالاحياء الأول ، فتكون كلمة (نحيي) قد اشتملت على العقيدة وهي الاحياء الثاني ودليلها وهو الأحياء الأول•

المعنى :

يعرف الله ــ تعالى ــ عباده بانه هو الذي يحيي الموتى دون غيره،ويذكرهم بما يشاهدونه من ذلك فيهم وهم أجنة في بطون أمهاتهم ،فيؤمنون بأنه يحييهم كذلك بعد موتهم فيستعدون من حياتهم الأولى لحياتهم الثانية•

احصاء الاعمال المباشرة وغير المباشرة :

« وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ »

المناسبة :

لما أعلم الخلق بأنهم يحيون بعد الموت أعلمهم بأن أعمالهم المباشرة

وغير المباشرة مكتوبة عليهم لأن حياتهم بعد الموت لنيل جزاء ما كتب عليهم من أعمالهم •

المفردات :

قدم الشيء : جعله قدامه ، واعمال المرء التي يباشرها قدمها قبله في طريقه الى الآخرة فهي محفوظة حتى يلحقها • والأثر : ما يحصل من العمل كالذي يحصل على — وجه التراب من وضع الاقدام — ويبقى بعد رفعها • فآثار الانسان ما يحصل من أعماله التي باشرها •

التراكيب :

عبر بنكتب مضارعا ليفيد التجدد والاستمرار ، فما من عمل أو أثر يتجدد الا ويكتب • وأسند الكتابة اليه ، والكاتبون الملائكة لأنهم بأمره يكتبون •

المعنى :

يعلم الله — تعالى — عباده بانه يكتب كل أعمالهم التي يعملونها ويباشرونها بانفسهم ويكتب كذلك ما يعمله غيرهم اذا كان متسببا عن أعمالهم وأثرا لها •

تنظير :

مثل هذه الآية في الدلالة على ان العبد مؤاخذ بما عمل مباشرة وما عمله غيره وكان من آثار عمله ، قوله تعالى :

« يُنَبَّأُ الإنسانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » (١) •

فالذي أخره هو أثره المذكور في هذه الآية •

---

(١) ٧٥/١٣ القيامة .

تاييد وبيان :

في صحيح مسلم من طريق جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهم ــ قال : جاء ناس من الاعراب الى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ عليهم الصوف ، فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة ، فحث الناس على الصدقة فأبطئوا عنه حتى رؤي ذلك في وجهه ، قال : ثم ان رجلا من الأنصار جاء بصرة من ورق ، ثم جاء آخر ثم تتابعوا حتى عرف السرور في وجهه ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : **« من سن في الاسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من اجورهم شيء ، ومن سن في الاسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء »** .

وفيه من طريق ابي هريرة ــ رضي الله عنه ــ : ان رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : **من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل اجور من تبعه لا ينقص ذلك من اجورهم شيئا . ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثار من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا .**

فتأيد بهذين الحديثين فهم المعنى المتقدم من الآية ، وهو أن العبد له وعليه من آثار أعماله مما لم يباشره بنفسه مثل ماله وعليه من أعماله التي باشرها .

وبين الحديث الأول ان ما تسبب عن عمل المرء يعد أثرا لعمله عندما يعمل به في حياته مثلما يعمل به بعد مماته . اذ الذي جاء بالصرة أولا قد تسبب عن مجيئه مجيء من بعده على أثره ، والحديث سيق في شأنهم ، فتكون حالتهم أول ما يشمل كما بين الحديث الثاني ان أثر القول كأثر الفعل ، اذ الكل عمل . وبين الحديثان ان نيل المرء جزاء عمله الذي لم يباشره ولا ينقص من جزاء العامل المباشر شيئا .

تنبيــه :

من صورة الواقعة التي ورد فيها الحديث الأول علمنا ان المراد به :

من سن سنة حسنة أو سيئة هو من ابتدأ طريقا من الخير في اعمال البر والاحسان وما ينتفع به الناس من شؤون الحياة • ولا يشمل ذلك ما يحدثه المحدثون من البدع في العبادات من الزيادات والاختراعات اذ الزيادة على ما وضعه الشرع من العبادات وحدده افتئات عليه واستنقاص له ، وهذه هي البدعة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ((**كل بدعة ضلالة**)) ((**وكل ضلالة في النار**)) •

تحـذير :

على العاقل وقد علم انه محاسب عن أفعاله وعلى آثار أقواله أن لايفعل فعلاً ولايقول قولا حتى ينظر في عواقبه، فقد تكون تلك العواقب أضر عليه من أصل القول وأصل الفعل ، فقد يقول القول مرة ويفعل الفعل مرة، ثم يقتدي به فيه آلاف عديدة في أزمنة متطاولة • حقا ان هذا لشيء تنخلع منه القلوب وترتعد منه الفرائض وصدق القائل من السلف ــ رضي الله عنهم ــ : السعيد من ماتت معه سيئاته •

الاحصاء العام في الكتاب الامام :

« وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إمَامٍ مُبِينٍ »

المناسبة :

لما أعلم العباد بأنه يكتب لهم وعليهم أعمالهم أعلمهم بانه تعالى قد كتب كلَّ الاشياء لا خصوص أعمالهم تعميما بعد تخصيص •

المفردات :

الاحصاء : تحصيل الشيء بالعد وضبطه والاحاطة به • الامام : ما يؤتم ويقتدى به • والكتاب : امام لانه يتبع فيؤخذ بما فيه ويعتمد عليه • والمبين : المظهر لما فيه فكل ما فيه ظاهر فيه •

التراكيب :

أصل الكلام : أحصينا كل شيء أحصيناه ، فحذف أحصينا الأول لدلالة الثاني ، فكان هذا أقوى في ثبوت الاحصاء ووقوعه على كل شيء ٠

المعنى :

يعلم الله عباده بأنه حصل كل شيء من ذوات وأقوال وأفعال وجميع ما كان في العالم وما يكون، وأثبته فردا فرداً في كتاب أمام معتمد مظهر للأشياء التي فيه فهي فيه ثابتة ظاهرة جلية ٠

اعتبار :

قد أحاط الله بكل شيء علما فهو غني بعلمه عن هذه الكتابة ، ولكنه جعل هذا الكتاب اظهارا لعظمة ملكه وليعلم عباده الضبط والاحصاء في جميع أمورهم وليبالغوا في محاسبة أنفسهم وليعلموا ان ما أصابهم لم يكن ليخطئهم وما أخطاهم لم يكن ليصيبهم ٠ فيزول من قلوبهم الخوف من الحوادث والمخلوقات وتعظم ثقتهم بالله وفي ذلك أعظم قوة في هذه الحياة واكبر راحة للقلب من صروفها ٠

نسأل الله أن يقوي قلوبنا بالايمان ، وأن يريحنا باليقين ، وان يعيذنا من الخوف إلاّ منه ، ومن الخضوع إلاّ له ٠ آمين يا رب العالمين [1] ٠

● ● ●

---

(١) ش : ج ٦ ، م ١٠ ، ص ٢٤٤ ـ ٢٥٠ غرة صفر ١٣٥٣ هـ ـ ماي ١٩٣٤ م ٠

الفرار الى الله

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ، وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ ، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ »[1] .

تمهيـد :

المقصود الأساسي من الآيات هو تحذير الخلق من الهلاك وترغيبهم في النجاة ولا سبيل الى ذلك الا بالفرار الى الله . فمهد لذلك بالآيات الثلاث الأول للترغيب فيه ، وختم بالخامسة لبيان الفرار الصحيح المنجي عند الله .

الآيـة الاولى

الألفاظ والتراكيب :

السماء : هي الجرم الأعظم الذي أحاط بالأجرام السابحة في الفضاء كلها وعلا عليها . بنيناها : ضممنا أجزاءها بعضها الى بعض بغاية الدقة والإحكام فكانت كالقبة فوق الجميع . بأيد: بقوة . لموسعون : لمقتدرون ومطيقون ، على احتمال أن يكون من الوسع ، بمعنى القدرة

(١) ٥١/٤٧ ـ ٥٠ الذاريات .

والطاقة . أو لموسعون ومبعدون بين أرجائها على احتمال أن يكون من السعة . وقدمت السماء لأنها المشاهد المحسوس الذي تقوم بـه الحجة . وليقع البناء عليها مرتين على لفظها وعلى ضميرها لأن الأصل : وبنينا السماء بنيناها . لتحقيق أنها مبنية وأن بناءها لم يكن إلا من الله القادر الحكيم . ولذلك علق بالفعل قوله بأيدٍ . والجملة الحالية تدل على ان الاتساع ثابت له عند البناء فذلك البناء العظيم لم ينقص من قدرته أو لم يمنع من توسيعه .

المعنى :

ان هذه القبة التي أحاطت بكم من جميع الأرجاء نحن بنيناهـا بقدرتنا ذلك البناء المحكم المتقن ، بنيناها ونحن على قوتنا وقدرتنـا نقدر على بناء أعظم منها لو شئنا ، أو ، ونحن على قدرتنا وطاقتنا في افاضة الخيرات والبركات منها عليكم . ـ هذا على انه من الوسع ـ أو بنيناها وقد وسعنا أديمها حتى أحاطت بهذه الأجرام السابحة التي منها ما لا يكون معه جرم الكرة الأرضية الا كحمصة فوق مائـدة كبيرة . ـ هذا على انه من السعة ـ .

تحقيق آية كونية من الآيات القرآنية :

السماء في اللغة هي كل ما علاك . فكل ما علا الأرض من سحب وطبقات هواء وكواكب تسبح في الفضاء ، وما وراء ذلك من القبـة المحيطة الكبرى هو للأرض سماء ، وكل هذه متقنة الصنع محكمة الوضع متلاحمة الأجزاء ، مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً مقدرا بالمسافات المدققة التي لا يكون معها تصادم ولا ارتخاء . ووضعها على هذه الصورة المنظمة المحكمة هو البناء وعليها كلها ينبغي ان يحمل لفظ السماء في الآية المتقدمة .

وقد جاء لفظ السماء في القرآن مراداً به القبة المحيطة في مثل :

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ » [1] « إنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ » [2] وجاء مرادا به السحاب في مثل : « وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ » [3] فان المطر ينزل من السحاب لقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ »[4] • وجاء مراداً به طبقات الجو في مثل : « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ » [4] والبرد يتكوَّرُ في طبقات الجو • والمتتبع لمواقع لفظة السماء من الكتاب العزيز يتحقق هذا •

الآيــة الثانية

الألفاظ والتراكيب :

الأرض : هي هذه الكرة التيتعيش عليها• فرشناها: بسطناهابزينتها ومنافعها • الماهدون: من مهد الشيءوضعه وسواه وهيأه للنوموالجلوس والراحة • ويجري في تقديم الأرض ما تقدم فيتقديم السماء •ومنيسير على هذا البساط المفروش ويطلع على ما هي فيه منأسباب الحياة لكل مافيه من حيوان لايتمالك أن ينطق بالمدح والثناء على منهيأهذهالتهيئة ومهد هذا التمهيد، ولذا قرنت الجملة الأخيرةبالفاء فقيل: فنعمالماهدون، ولا يغني فرش الأرض عن مهدها لأن المهد يتضمن ما حصل فيها من مرافق ومواد وأسباب للعيش على أديمها والتنعم بخيراتها •

(١) ٦٧/٦٥ الملك .
(٢) ٣٧/٦ الصافات .
(٣) ٤٣/١١ الزخرف .
(٤) ٢٤/٤٣ النور .

المعنى :

ان الأرض التي أنتم متمكنون من الوجود على ظهرها والسيْر في مناكبها والانتفاع بخيراتها نحن فرشناها لكم وهيأنا لكم أسباب الحياة والسعادة فيها على أكمل وجه وأنفعه وأبدعه • مما نستحق به منكم الحمد والثناء •

دقيقة كونية في الآية القرآنية :

شأن الفراش أن يكون ما تحته لا يصلح للجلوس والنوم عليه • وما تحت وجه الأرض هو كذلك لا يصلح للحياة فيه ، فان تحت القشرة العليا من الأرض المواد المصهورة والمياه المعدنية والأبحرة الحارة مما تنطق به البراكين المنتشرة على وجه الارض في أماكن عديدة فكانت القشرة العليا من الارض مثل الفراش تماما •

الآيــة الثــالثة

الألفاظ والتراكيب :

من كل شيء : من كل جنس من الأجناس • خلقنــا : كونــا • زوجين : فردان متباينان يكمل أحدهما الآخر في عــالم الحيوان وعالم النبات وعــالم الجماد • تــذكرون : تــذكرون مــا أودع في فطرتكم من المعرفة لما تنظرون بعقولكم في عجائب الخلق فتدركون ماله جلّ جلاله من الألوهية والربوبية والوحدانية • وقدم منْ كل شيء لأن الأشياء هي المستدل بها ولبعث الهمم على النظر فيها •

المعنى :

إنّا خلقنا الأشياء التي تشاهدونها على الزوجية والتركيب من شيئين متضادين لتكونوا بحيث يرجى منكم أن تعلموا أنّ النقص والعجز

عم المخلوقات كلها لحاجة كل شيء منها الى ضده ، وقصوره بنفسه . فالقدرة والكمال للخالق وحده فلايستحق العبادة سواه فاعبدوه ووحدوه.

توسع في التذكر :

النظر في الأزواج مفض للعلم بما ذكرنا وللعلم بأن الخلق غير صادر عن طبيعة الأشياء ، فان النار ـ مثلا ـ لا يصدر عنها التبريد والتسخين لأن السبب لا ينتج الضدين ، فالمخلوقات كلها صادرة بطريق الخلق عن فاعل مختار وللعلم بوجوه كثيرة من احاطة علمه وشمول حكمته وعموم نعمته .

حقيقة نفسية ، في نكتة بلاغية :

اذا نظر العاقل في هذه الأزواج وفكر انكشفت له وجوه سر دلائل الربوبية والالوهية والتوحيد واذا حصل الانكشاف الاول تبعته انكشافات فاذا حصل منه التذكر أفضى به الى تلك الوجوه الكثيرة . ولهذا نزل الفعل منزلة اللازم الذي لا يراد منه الا حصول الحدث .

آية كونية في الآية القرآنية :

من الأزواج ما هو ظاهر مشاهد معلوم من قديم مثل السماء والأرض والليل والنهار والحر والبرد والذكر والأنثى في الحيوان وبعض النبات . ومنها ما كشفه العلم بما مهد الله له من أسباب كالجزء الموجب والجزء السالب في القوة الكهربائية وفي الذرّة التي هي أصل التكوين فلا فردية الا لخالق هذه الازواج كلها الذي أنبأنا بها قبل ان تصل الى تمام معرفتها العقول فكان من معجزات القرآن العلمية التي يفسرها الزمان بتقدم الانسان في العلم والعمران .

بلاغة التنويع والتنزيل :

لما كانت السماء متلاحمة الأجزاء في العلاء ثابتة على حالة مستمرة

في هذه الدنيا على البقاء ناسبها لفظ البناء ، ولما كانت مظهر العظمة والجلال ناسبها لفظ القوة . ولما كانت الأرض يطرأ عليها التبديل والتغيير بما ينقص البحر من أطرافها وبما قد يتحول من سهولها وجبالها وبما يتعاقب عليها من حرث وغراسة وخصب وجدب ناسبها لفظ الفراش الذي يبسط ويطوى ويبدّل ويغير ، ولما كانت أسباب الانتفاع بها الميسرة ضرورية للحياة عليها وكلها مهيأة وكثير منها مشاهد وغيره معد يتوصل اليه بالبحث والاستنباط ـ ناسب ذكر التمهيد ـ . ولما كانت الأزواج مكونا بعضها من بعض ناسبها لفظ الخلق ولما كان النظر في الزوجية هو نظر في أسباب التكوين لتلك المذكورات السابقة وهو محصل للعلم الذي يحصل من النظر فيها قرن بلفظ التذكر .

الآية الرابعة

الألفاظ والتراكيب :

الفاء : للترتيب لأن ما قبلها على ما فيه من عظمة وكمال وجمال فهي مخلوقة موسومة بسمة العجز والنقصان ، فلا يصلح شيء منها للتعويل عليه ، فلم يبق إلا الخالق القادر ذو الجلال والاكرام ، فهو الذي يفر اليه دون جميع المخلوقات . فروا : اهربوا . النذير : المعلم بما فيه هلاك لتجتنب الاسباب المؤدية اليه . المبين : الذي يوضح ما نذر منه والاسباب المؤدية اليه والوسائل المنجية منه . مع اقامة الحجة على صدقه ونصحه . وقدم لكم ليفيد اهتمامه بهم وذلك ليجلبهم اليه فيستمعوا لنصحه وبعده منه ليبين مصدر رسالته وذلك ليبين لهم انه مأمور فلا يستكبروا عن قبول دعوته . واكد الجملة لانهم في مقام التردد او الانكار .

المعنى :

هذه المخلوقات كلها عاجزة في نفسها مفتقرة ـ ابتداء ودواما ـ

الى خالقها فاهربوا من شرها الى خالقها فهو الذي ينجيكم من شرها ويهديكم الى خيرها ولا تغتروا بشيء منها فانها لا تملك حفظا لنفسها فكيف تملكه لغيرها • انني أحذركم الهلاك اذا اغتررتم بها وقطعتكم عن خالقها ولم تهربوا الى الله منها وقد ابنت لكم مصدر الهلاك وطريق النجاة •

نكتة التنويع :

جاءت الثلاث الآيات الأول كما يكون قولها من الله ، وجاءت هذه الآية كما يكون قولها من النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — تنويعا للخطاب وتفننا ، فانه لما كان ما في هذه الآية هو المقصود حول أسلوب الكلام من الاخبار الى الأمر تجديدا لنشاط السامع وبعثا لاهتمام المخاطبين وحثا لهم وتوكيدا عليهم • وفيه تنبيه على أن ما يقوله النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — مثل ما يقوله الله في وجوب الإيمان والامتثال •

بيان وتوحيد :

هذا العالم بمائه وأرضه وأزواجه هو فتنة للانسان بما فيه من لذائذ ومن جمال وما فيه من قوة وما فيه من سلطان • وقد ركبت في الإنسان شهواته واهوائه وسلط عليه الشيطان يغويه ويزين له • فكل هذا العالم إذا ذهب فيه الانسان مع اهوائه وشهواته تحت اغواء الشيطان وتزيينه فانه ينحط الى أسفل سافلين ويصير عبداً لأهوائه وشهواته وشيطانه ولكل ما فتنه من العالم وذهب بلبه • وقد ينتهي به ذلك الى عبادته من دون خالقه • فالعالم بهذا الاعتبار شر وبلاء وهلاك يجب الفرار والهروب منه ولا يكون هذا الفرار منه الا الى خالقه بالايمان به والتصديق لرسله ، والدخول تحت شرعه ، فبذلك يعرف الانسان كيف يجعل جدّاً لاهوائه وشهواته وكيف يضبطها

بنطاق الشرع وزمامه ، وكيف يدفع عنه كيد شيطانه ، وكيف يتناول سماء العالم وأرضه وأزواجه بيد الشرع فيعرف ما فيها من نعمة وحكمة فيستغلها بهداية الشرع مفرقا علميا وعمليا — بين منافعها ومضارها ، فيعظم بها انتفاعه ويزداد فيها اطلاعه واكتشافه فتتضاعف عليه منها الخيرات والبركات ويزداد علمه وعرفانه ، ويقوى يقينه وايمانه ويعظم لله بره وشكرانه . فيكون له ذلك العالم جنة الدنيا وقنطرة لجنة الاخرى ، ويفوز من الدارين بالمبتغى ، كل هذا بفراره من المخلوقات الى خالقها فسلم من شرها وفاز بخيرها فمن هرب من المخلوقات الى خالقها نجا ومن فر من الخالق الى شيء من مخلوقاته كان من الهالكين .

ارشاد وتعميم :

كل ما يصيب الانسان من محن الدنيا ومصائبها وأمراضها وخصوماتها ومن جميع بلائها لا ينجيه من شيء منه إلاّ فراره الى الله . ففي العدالة الشرعية ما يقطع كلّ نزاع ، وفي المواعظ الدينية ما يهون كل مصاب ، وفي الهداية القرآنية والسيرة النبوية ما ينير كل سبيل من سبل النجاة والسعادة في الحياة . يعرف ذلك الفقهاء القرآنيون السنيون ، واسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون .

تنبيه على وهم :

ليس الفرار من الأمراض بمعالجتها ، ومن المصائب بمقاومتها فرارا من الله لأنّ الأمراض هو قدّرها والأدوية هو وضعها ودعا الى استعمالها والتعالج بها ، وكذلك المصائب وما شرع من أسباب مقاومتها فكلها منه بقدره والإنسان مأمور منه بان يعالج ويقاوم فما فر من قدره إلاّ الى قدره ولهذا لما قال أبو عبيدة لعمر — رضي الله عنهما — في قصة الوباء : « افراراً من قدر الله يا عمر ! » قال عمر : « نعم ، نفر من قدر الله الى قدر الله » . وفي الحقيقة كان الفرار من شرٍ في مخلوق الى الله يرجو منه الخير في غيره .

تحذير من الجهالة :

ليس المقصود بالفرار من الدنيا ترك السعي والعمل وتعاطي الأسباب المشروعة ، لتحصيل القوت ورغد العيش وتوسيع العمران وتشييد المدنية بل المقصود الفرار من شرورها وفتنتها . وتناول ذلك كله على الوجه المشروع هو من الفرار اليه والدخول تحت شرعه كما قدمناه وقد ضل قوم فزعموا ذلك طاعة وعبادة فعطلوا الاسباب وخالفوا الشريعة وحادوا عمّا ثبت من السنة ، وفيهم سئل أمام الحديث والسنة أحمد بن حنبل رحمه الله ، سئل عن القائل اجلس لا اعمل شيئاحتى يأتيني رزقي فقال: «هذا رجل جهل العلم، أما سمعقول النبي صلى اللهعليهوآلهوسلم: **أن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي** ، وقولـه : **تغدو خماصا وتروح بطانا** ، وكان الصحابة يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم وبهم القدوة» .

تطبيق :

اذا رأينا طائفتين من المؤمنين تنازعتا فأما أحداهما فالتجأت الـى السلطان تستغيثه وتستعين به وتحطب في حبله ، فأغاثها وانتقم لهـا وأمدها وقربها وأدناها ، وأما الاخرى فلم تستغث الا بالله ولم تستنصر الا به ولم تعتمد الا عليه ولم تعمل الا فيما يرضيه من نشر هـداية الاسلام وما فيها من خير عام لجميع الانام وتحملت في سبيل ذلك كل ما تسببت لها فيه الطائفة الاخرى ومن تولته وهربت اليه ، اذا رأينا هاتين الطائفتين عرفنا منهما ــ يقينا ــ الفارة من الله والفارة اليه فكنا ــ ان كنا مؤمنين ــ مع من فر الى الله .

الآيـة الخـامسة

الألفاظ والتراكيب :

ولا تجعلوا : ولا تضعوا من عند أنفسكم ما لا وجود لـه .

إلهـاً : معبوداً تخضعون لـه وترجون منه التصـرف في الكون ليجلب لكم النفع ويدفع عنكم الضر . وتقدمت ألفاظ آخر الآية .

المعنى :

ولا تجعلوا في فراركم الى الله شيئا معه من مخلوقات تعتمدون عليه وتلجئون اليه فتكونوا قد اشركتم به سواه فاني أحذركم ما في ذلكم من هلاككم بالشرك الذي لا يقبل الله معه من عمل والتي قد أبنت لكم لزوم توحيده في الفرار اليه ، كما بينت لكم لزوم ذلك الفرار .

نكتة التكرير :

أعاد « إنِّي لَكُمْ مِنهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » مع الآية الخامسة ليبين لهم ان عبادة الله مع الاشراك به كتعطيل عبادته فهلاك المشرك كهلاك الجاحد. والنجاة أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا لا في ربوبيته ولا في ألوهيته.

تنبيه وتحذير :

جاء في الحديث فيما رواه أصحاب السنن ان الدعاء هو العبادة فمن دعا غير الله فقد عبده ومن دعا مخلوقا مع الخالق فقد اشرك فاذا دعوت فادع ربك ولا تدع معه أحدا . وكيف تدعو من لا يملـك لنفسه نفعا ولا ضرا . واذا توسلت فتوسل باعمالك بايمانك وتوحيدك وباتباعك لمحمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ومحبتك فيه واعتقادك ما له عند الله من عظيم المنزلة وسمو المقام عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

بيان نبوي قولي :

قال عليه الصلاة والسلام فيما يقال عند النوم : **« لا ملجا ولا منجى منك إلا اليك »** والملجأ هو المهرب الذي يهرب اليه ، والمنجى هو مكان النجاة فبين لنا أنه لا يكون الهرب الا الى الله ، ولا تكون النجاة الا

بالهرب اليه فمن هرب لغيره كان من الهالكين • كما بين لنا ان كل ما يجري في هذا العالم فهو بخلقه بقدره فلا مهرب ولا نجاة مما خلق وقدر الا اليه •

بيان نبوي عملي :

روى أحمد وابن جرير عن حذيفة بن اليمان : ان رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — كان اذا حزبه أمر صلى • وفزع للصلاة • يعني اذا نزل به مهم أو أصابه غم فزع للصلاة ، فبين لنا بالفعل أنّ الفرار الى الله بالتلبس بطاعته وصدق التوجه اليه ، والدعاء والتضرع والخشوع له ، والاستسلام لدينه وشرعه والاخلاص في عبادته والاعتماد عليه ، وذلك كله موجود على أكمله في الصلاة التي هي عمود الدين ومظهر كماله • جعلنا الله والمسلمين من الفارين اليه والمقبولين لديه • آمـين (1) •

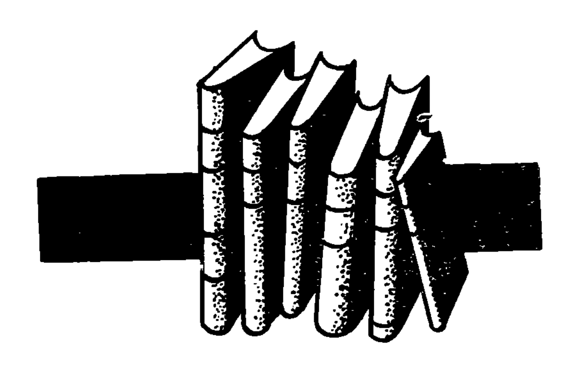

(1) ش : ج ١ ، م ١٥ ، ص ٢ — ١٠
غرة محرم ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م •

خلاصـــة تفسير المعوذتين

من درس الاستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس

الذي ختم به تفسير القرآن

كلمة بين يدي التلخيص :

أكمل طرائق المتقدمين من علماء هذه الملة في تلقـين العلوم طريقة الاملاء . والاملاء نتيجة لاستحكام الملكة في العلم واستقلال الفكر فيه ، أو سعة المحفوظ ورحابة آفاق الحافظة . واستحكام الملكة واستقلال الفكرة وقوة الحافظة مزايا تكاد تكون خالصة لعلماء سلف هذه الأمة لم يبلغ علماء الامم الأخرى مدا حدهم (1) فيها ولا نصيبه .

وكانت وظيفة السامعين كتابة ما يملى عليهم كلّه أو خلاصته ، وكانت المحابر والأقلام والأوراق هي الأدوات اللازمة لرواد مجالس العلم الاّ في مقامات مقابلة الأصول وضبطها . فهنا لا بد من إحضار النسخ الكاملة من الكتب .

ومن ثمرات تلك الطريقة المثلى في التلقين والتلقي كتب الأمالي في الحديث واللغة والأدب ، وفي تراجم المحدثين والأدباء الشيء الكثير من ذلك ، وإن لم يبق لنا الدّهر منها الا الأقل من القليل .

ولما انتهى عصر الرواية بجميع روايات السلف في التفسير ورواياتهم للأحاديث والسنن ودونت أصول اللغة والأدب والعلوم المتفرعة عنها وجاء دور الاستغلال لها ــ نشأت عوامل الانحطاط في العلوم الاسلامية ، وكان من أظهر مظاهرها جفاف

(1) كذا بالاصل ولعلها مدى أحدهم .

القرائح وجدب الأفكار وضعف القوى الحافظة ، وانحطت طرائق التلقين تبعا لذلك وانحصرت في الطريقة الشائعة الى اليوم . وهي التزام كتاب تتعدد نسخه بتعدد المتلقين له يحل الشيخ عباراته ويشرح معانيه. وانحطت وظيفة السامعين من الكتابة والتقييد الى الاستماع المجرد .

ولسنا نعيب طريقة التزام الكتب وشرح معانيها بالكلام ، فذلك في حقيقته نوع قاصر من الاملاء . وانما ننعي على السامعين اهمالهم لكتابة ما يسمعون فتضيع عليهم الفوائد التي يلقيها الاستاذ وقد تكون قيمة ، كما تضيع في عصرنا هذا الخطب والمحاضرات المرتجلة التي لا يكتبها ملقيها ولا متلقيها .

ولسنا بصدد التأريخ لهذه الطرائق والمقارنة بينها وبيان وجوه النقص والكمال فيها وانما ننبه في هذا المقام الى أن أسوأ أثر لهذه الطريقة الشائعة اليوم هو القضاء على الملكة العلمية ، لانها شغلت المعلم والمتعلم معاً بالكتاب عن العلم إذ أصبح همهما كله مصروفا الى تحليل الكتاب وفك عباراته والقيام على اصطلاحاته الخاصة وفي بعض هذا ما يستغرق الوقت ولا يبقي سعة لادراك قواعد العلم وتطبيق جزئياته على كلياته ، ويعيد جزئياته على كلياته ، وبعيد جدا على من يدرس علماً على هذه الطريقة أن تستحكم ملكته فيه ، وكيف تستحكم ملكة الفقه مثلا لمن يقرؤه من مثل مختصر خليل على هذه الطريقة فيمضي وقته في تحليل عباراته وتراكيبه المعقدة التي ذهب الاختصار بكثير من أجزائها وفي بيان التقديم والتأخير في الألفاظ وربط المعمولات بالعوامل البعيدة وارجاع الضمائر المختلفة الى مراجعها . والطفرة بالذهن من مذكور الى مقدر ، وهذا هو كل ما يشغل وقت المعلم والمتعلم ، وهم في الحقيقة لا يدرسون علم الفقه وانما يدرسون كتابا في الفقه ، ودراسة الكتاب لذاتها أصبحت اليوم فنا كماليا من التاريخ لا أصلا في تعلم العلوم .

والدارس لتاريخ العلوم الاسلامية يتجلى له هذا في تراجم علماء تلك العلوم ، إذ يجد فيها دائما اشباه هذه العبارة :

كان أقوم الناس على كتاب الجمل للخونجي . أو على كتاب التهذيب للبرادعي ، أو على كتاب الشامل لابن الصباغ . كان نافذا في اقراء المحصل للرازي . كان سديد البحث في مختصر ابن الحاجب الأصلي كثير المناقشة لعباراته . واين سداد البحث وكثرة المناقشة في عبارة كتاب من تحصيل الملكة في علم ؟ ان الأصولي الحقيقي هو الذي ينفق مما عنده أو يقرءه من أي كتاب كان . ولا يفتتن بكتاب عين هذا الافتتان ، وان الفقيه الحقيقي هو الذي يفهم الفقه ، لا الذي يفهم كتابا في الفقه ، وفي وقتنا هذا نسمع علماء المعاهد المشهورة يتمدحون بمثل هذا ويصفون من يحسن اقراء التنقيح للقرافي على هذه الطريقة : بالأصولي المحقق ..

ولقد حاول جماعة من العلماء الحفاظ في القرون الأخيرة اصلاح هذه الحالة واحياء طريقة الأمالي فلم ينجحوا لافتتان جمهور المتعلمين بالكتب وانصرافهم عن العلم الى كتب في العلم . حاول ذلك الحافظ ابن حجر وهو أهل لذلك ، ولكن أهل زمنه لم يكونوا أهلاً له ، ونعى معاصره ابن خلدون المؤرخ طرق التلقين في زمنه وكثرة المؤلفات والمختصرات في العلم وعدها عائقة عن التحصيل ، وحاول ذلك بعد ابن حجر تلميذ الحافظ السيوطي وهو أهل لذلك على ما فيه من تبجح واستطالة ، وقد شكا في بعض رسائله إخفاقه في هذه المحاولة بعبارة مرّة ، ووصف انصراف الجمهور عنها بأنه من غلبة الجهل وكلال الهمم وضعف العزائم .

نجمت في هذه العقود الأخيرة ناجمة اضطراب وتبرم من طرائق التعليم المتبعة وكتبه الملتزمة . وارتفعت الأصوات بالشكوى من اضرارها وسوء عواقبها . وكان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده أعلى الحكماء صوتا بلزوم اصلاحها وأبلغهم بيانا لأضرارها وسوءاتها ومعايبها وأسدهم رأيا في تغييرها بما هو أجدى منها وأنفع وأكثرهم عملا جديا في ذلك .

وكان من اصلاحاته العملية في هذا الباب درسه لكتاب الله باسلوب حكيم لم يسبقه اليه سابق ، وكان ــ رحمه الله ــ وهو من هو في استقلال الفكر واستنكار الطرائق

الجامدة يجاري الطريقة الأزهرية بعض المجاراة لاعتبـارات خاصة ، ومن هذه المجاراة السطحية انه كـان يلتزم في تلك الدروس العـامرة بالحكم العليـا تفسير الجلالين ويستهلهـا بقراءة عبارته .

ولكن السامعـين لتلك الدروس على كثرتهم وجلالـة اقدارهم في العلم والمعرفة وتساويهم في الاعتقاد بان تلك الدروس فيض من إلهام الله أجراه على قلب ذلك الامام وعلى لسانه وأنها مما لم تنطو عليه حنايا عالم ولا صحائف كتاب ــ لم تتسابق أقلامهم لتقييد تلك الدروس الا قليلا ، ولو أنهم فعلوا لما ضاع من كلام ذلك الامام حرف واحد . ولو لم يقيض الله محمد رشيد رضا لهذا العمل الجليل لضاع كله ولكن الله وفقه لحفظ معاني تلك الدروس وسدد قلمه في ادائها ، ثم نهج نهجه بعد موته وسار على شعاع هديه في تفسير كلام الله فأبقى لهذه الأمة تلك الاسفار القيمة المعروفة بتفسير المنـار .

مدت حركة الاصلاح العلمي مدها بعد موت الامام ، وانتشرت في الأقطار الاسلامية ، وأسفرت عن إصلاح حقيقي لاساليب التعليم في المعاهد الحرة ، وعن اصلاح صوري في المعاهد الرسمية . ولا تزال الحرب قائمة في هذه المعـاهد بين طلاب الاصلاح وبين أنصار الجمود ، وستكون العاقبة للمصلحين باذن الله . ولقد كان من حسن حظ الجزائر أن باعث النهضة العلمية فيها الاستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قد وضع أساس هذه النهضة على قواعد صحيحة من أول يوم ، فسلك في درس كلام الله أسلوبا سلفي النزعة والمادة ، عصري الأسلوب والمرمى ، مستمدا من آيات القرآن وأسرارها اكثر مما هو مستمد من التفاسير وأسفارها . وقد قرأنا له في بعض افتتاحيات مجلة ((الشهاب)) انه يعتمد في هذه الدروس على تفاسير مخصوصة في مواضع مخصوصة كالطبري في المأثور والكشاف في أسرار الاعجاز ، وذلك صحيح ومفيد لمن يجعل فهوم الرجال مقاييس لفهمه ولا يعطيها أكثر من انها فهوم تصيب وتخطيء ، أما المعنى الصحيح لكتاب الله فيستجليه من البيان العربي والشرح النبوي ومن مقاصد

الدين وأسرار التشريع . ومن عجائب الكون وسنن الله فيه ومن أحكام الاجتماع الانساني . ومن تصاريف الزمن ونتائج العقول وثمرات العلوم التجريبية واذا كان من دواعي الغبطة ختم تفسير القرآن بها على هذه الطريقة في القطر الجزائري فان من دواعي الأسف انه لم ينتدب من مستمعي هذه الدروس من يقيدها بالكتابة ، ولو وجد من يفعل ذلك لربحت هذه الأمة ذخراً لا يقوم بمال ، ولاضطلع هذا الجيل بعمل يباهي به جميع الأجيال ، ولتمخض لنا ربع قرن عن تفسير يكون حجة هذا القرن على القرون الآتية . ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة في الشهاب باسم مجالس التذكير على أي علم ضاع وأي كنز غطي عليه الاهمال .

ولما كان اليوم المشهود بختم هذه الدروس جمع أحد الحاضرين ما وعته ذاكرته وأمكنه تقييده من معنى درس الختم في تفسير المعوذتين وتصرف في ألفاظه بما لا يخرج عن معانيه اذ لم يكن من الميسور أن يلتقط الألفاظ كلها . فجاء بهذه الخلاصة التي ننشرها على الناس في هذا العدد (الخاص بالاحتفال) لافتين أنظارهم الى أن هذه الخلاصة محيطة بمعاني الدرس مع تصرف ضروري اقتضته مساوقة ما كتب لما قيل .

استهل الاستاذ الدرس بعد الاستعاذة والتسمية بالتحميد المأثور : الحمد لله ان الحمد لله . نحمده ونشكره ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يضلل الله فلا هادي له ومن يهد فما له من مضل ، ونشهد ان لا اله الا الله ونشهد ان محمداً عبده ورسوله .

ثم عقب بما ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبدأ به خطبته . وجرت عادة المحدثين والمفسرين ان يفتتحوا به مجالس التحديث والتفسير وان اختلفت الروايات في الفاظه وهو قوله صلى الله عليه وسلم : أما بعد فان أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الامور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة .

ثم قال توطئة للدخول في تفسير المعوذتين ما معناه مع تصرف وتوضيح :

بني هذا الكون الدنيوي على أن يقترن فيه الخير بالشر ، وان يتصلا وان يشتبها وان يحيطا بالانسان من جميع جهاته فتكون أعماله الكسبية في الحياة مكتنفة بها دائرة بينهما موصوفة بأحدهما ، ولا بد من قدر الله ومن سننه العامة في هذا العالم الانساني ، وحكمته المبنية في وجيه هي ابتلاء خلقه ليجازوا على ما يكون من كسبهم وسلوكهم بعد أن وهبهم العقل والتمييز وأكمل عليهم نعمته بهداية الدين عدلا منه تعالى ورحمته ــ وحكمة أخرى وهي تمرين هذا الانسان في حياته العلمية وتدريب فكره على اختيار الأنفاح على النافع والنافع على الضار ، ثم سوق الجوارح الى العمل على ذلك الترتيب وترويضها عليه .

والانسان يكتسب القوة والدربة بتمرسه على ما يلقاه من الخير والشر بعمله وبفكره ، وللفكر الانساني عمل سابق لاعمال الجوارح المجترحة وسائق لها ومهيء لما يظهر انه من بدواتها .

وهذا العمل الفكري تظهر قوته في نواح منها ــ وهو أهمها ــ التمييز بين الخير والشر وادق منه التمييز بين خير الخيرين وشر الشرين . فان الخير درجات وأنواع ، والشر كذلك درجات وأنواع .

والانسان في هذا الخضم الذي تلاطمت أمواجه ، وفي هذا الفضاء الذي تشابهت أفواجه ، محتاج الى معونة إلهية في تمييز الخير من الشر . وقد أمده الله بهذه المعونة من دبنة الحق . ومحتاج الى تأييد إلهي يعصمه من الشر ويقيه من الوقوع فيه عن جهالة أو عمد . وقد هداه الله الى أسبابه ووسائله بما شرع له من المنبهات عند طروق الغفلة . والمبصرات عند عروض الشبهة والمعوذات المحصنات عند الما لمة الشيطان وطواف طائفة . ومن هذه المعوذات عقائد تدفع عن صاحبها الشكوك وهي شر ، وحقائق تقي صاحبها الوهم وهو شر . وعبادات تربي مقيمها على الخير وتنهاه عن الفحشاء والمنكر . واعمال تثبت فاعلها على الحق . وأقوال يلقيها القلب العامر بتقوى الله والخوف من مقامه على الالسنة

لتكون شهادة لها وعنوانا عليها . والالسنة تراجمة القلوب فكان مما شرع الله لنا في كتابه وعلى لسان نبيه التعوذ باللسان من الشر والباطل وانزل الله عليه هاتين السورتين وفيهما الاستعاذة بالله من انواع من الشرور هن أمهات لما عداهن . وكان نبينا عليه السلام يكثر التعوذ بالله وكلماته من أنواع اخرى من الشرور مفصلة في صحاح السنة .

أما السورتان فيكفي في فضلهما ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر الجهني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير خير منهن قط قل أعوذ برب الفلق وقل اعوذ برب الناس)) . وفي رواية اخرى في مسلم عنه تسميتهما بالمعوذتين ، وفي رواية أبي اسامة في مسلم أيضا وصف عقبة بن عامر بانه كان من رفعاء اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. فتسمية هاتين السورتين بالمعوذتين تسمية نبوية مأثورة كأسماء جميع سور القرآن وقد يقال المعوذات ويراد بها ما يشمل سورة الاخلاص. وكفى بما فيها من اصول العقائد معاذا من الشرك وهو أصل الشرور كلها . .

وحديث مسلم هو اصح ما ورد في نزولهما واما ما يذكر في نزولهما في قصة سحر النبي صلى الله عليه وسلم فان ذلك لم يصح سببا لنزولها . وان كان لقصة السحر وصاحبها لبيد بن الاعصم أصل ثابت في الصحيح وقد تساهل كثير من المفسرين في حشر هذا السبب في تفسيرهما وفي حشر كثير مما لم يصح في فضائلهما ولنا فيما صح غنية عما لم يصح .

وهذه الخيرية التي اثبتها لهما حديث عقبة عند مسلم هي خيرية نسبية في ناحية مخصوصة . وهي ناحية التعوذ بهما من الشرور العامة والخاصة المذكورة فيها ودليل هذه النسبية ما أخرجه النسائي في سننه عن ابن عباس الجهني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له يابن عابس الا أدلك أو ألا اخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذين قال بلى يا رسول الله ، قال قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس هاتين السورتين .

فبين صلى الله عليه وسلم ان خيرتهما وافضليتهما من جهة ما تشتملان عليه من معنى التعوذ وهو من المعاني الداخلة في دائرة ما كلفنا الله به .

ولهاتين السورتين خصوصية غير المناسبات التي يذكرونها في ارتباط بعض السور بالبعض ويستخرجون منها بالتدبر ما لا يحصى من الانواع وهذه الخصوصية هي ختم القرآن بهما، وهما كالسورة الواحدة. فما هي الحكمة من ختم القرآن بهما ؟ وترتيب السور توقيفي ليس من صنيع جامعي المصحف كما ذكره السيوطي في الاتقان وجماعة .

يستطيع ممارس القرآن ومتدبره ومتلقيه بالذهن المشرق والقريحة الصافية ان يستخرج من الحكم في هذا الختم بهما أنواعا ولكن أجلاها وأوضحها انهما ختم على كنوز القرآن في نفس المؤمن . وتحصين لهذه النعم المنثالة من القرآن عليه أن يكدّرها عليه كيد كائد او حسد حاسد ، فان من أوفى الشيء الكريم ورزق النعمة الهنية هو الذي تمتدّ اليه أيدي الاشرار وألسنتهم بالسوء وتقذفه عيونهم بالشرر وتتطلع اليه نفوسهم بالحسد والبغضاء ويشتد عليه تكالبهم سعيا في سلبه منه او تكديره عليه وبقدر النعمة يكون الحسد ، وعلى مقدار نفاسة ما تملك تكون هدفا لمكائد الكائدين وتأتيك البلايا من حيث تدري ولا تدري ومن أوتي القرآن فقد طوى الوحي بين جنبيه وأوتي الخير الكثير ، فهو لذلك مرمى أعين الحاسدين ومهوى افئدة الكائدين فكان حقيقيا وقد ختم القرآن حفظا او مدارسة او تلاوة ان يلتجيء الى الله طالبا منه الحفظ والتحصين من شر كل كيد وحسد يصيبه على هذا الخير العظيم الذي كمل له وهذه النعمة الشاملة التي تمت عليه هذه حكمة .

وأخرى وهي ان من أوتي القرآن وتفقه فيه فقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب وأحاط بالعلم من اطرافه وملك كنزه الذي لا ينفد . وان من آفات العلم اغترار صاحبه به وقد يتمادى به الغرور حتى يسول له ان ما أوتيه من العلم كاف في وقايته من الاضرار ونجاته من الاشرار فكان من رحمة الله

بصاحب القرآن ولطف تأديبه له وحسن عنايته به أن ختم بهاتين السورتين كتابه لتكونا آخر ما يستوقف القاريء المتفقه وينبهه الى ان في العلم والحكمة مسألة لم يتعلمها الى الآن . وهي انه مهما امتد في العلم باعه واشتد بالحكمة اضطلاعه . فانه لا يستغنى عن الله ولا بد له من الالتجاء اليه والاعتصام به يستدفع به شر الاشرار وحسد الحاسدين وكفى بهذه التربية قامعا للغرور . وانه لشر الشرور .

هذه هي المناسبة العامة بين جميع القرآن مرتبا ترتيبه التوقيفي وبين هاتين السورتين في اتحاد موضوعهما .

واما المناسبة الخاصة بين السورتين وسورة الاخلاص فهي ان سورة الاخلاص قد عرفت الخلق بخالقهم بما فيها من التوحيد والتنزيه والتمجيد . فاذا قرأت القرآن وتدبرته على ترتيبه ووجدت توحيد الله منبثا في آياته وسوره متجليا ذلك التجلي الباهر بمعارضه وصوره مادا ببراهينه على النفوس كل ثنية وكل مطلع — كانت آخر مرحلة يقطعها فكرك من مراحل التوحيد في القرآن هذه السورة المعجزة على قصرها فكأنها توكيد لما امتلأت به نفسك من معاني التوحيد وكأنها وصية مودع مشفق بمهم يخشى عليك نسيانه فليعمد فيها من الكلام الى ما قل ودل ولم يمل .

ومن صدقك في توحيدك لله في ربوبيته والهيته ان تنقطع عن هذا الكون وتكون منه وكأنك لست منه بصدق معاملتك لله واخلاص توحيدك اياه. فأنت وقد آمنت وصدقت وخرجت من سورة الاخلاص متشبعا بمعانيها ومنها معنى الصمد — تستشعر ان العالم كله عجز وقصور ، وان خيراته مكدرة بالشرور . وان لا ملجأ الا ذلك الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد . فتجييء المعوذتان بعد الاخلاص مبينتين لذلك الالتجاء الذي هو من تمام التوحيد .

ولأجل هذه المناسبة والارتباط بين السور الثلاث جمع بينهن التسمية ، ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفث عن نفسه بالمعوذات وسياق النساء لحديث عقبة بن عامر المتقدم ان رسول الله

قرأ وقرأت معه الاخلاص ثم قل اعوذ برب الفلق وقل اعوذ برب الناس فلما ختمهن قال : ما تعوذ بمثلهن أحد . وكما جمع صلى الله عليه وسلم بينهن في التسمية والتعوذ جمع بينهن عمليا في قراءة الوتر .

هذا اجمـال المناسبة الخاصة بين السور الثلاث .

سورة الفـلق

قال تعالى : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » [1] .

الأمر المفرد للنبي عليه السلام . ومن حسن الأدب في مقدرات القرآن أن تقدّر في مثل هذا الأمر أيّها الرسول أو أيّها النبي ، لأنهما الوصفان اللذان نطق بهما القرآن في نداء النبي عليه السلام، وان لا نقدر يا محمد كما هو جار على الالسنة وفي التصانيف فان القرآن لم يخاطبه باسمه والأمر لنبينا أمر لنا لأننا المقصودين بالتكليف ولا دليل على الخصوصية فهو في قوة : قل أنت ، وقل لأمتك يقولون .

وأعوذ : استجير وألتجيء ويتعدى هو وجميع تصاريفه بالبـاء ، كأستجير . والعوذ والعياذ مصدران منه كالصوم والصيام ، وفي القرآن مما جاء على المعنى اللغوي : يعوذون برجال من الجن [2] ومن كلام العرب : وقد استعذت بمعاذٍ [3] .

والرب الخالق المكون المربي ، ومواقع استعمال هذه الكلمة في القرآن هي التي تكشف كل الكشف عن معناها الكامل .

---

(١) ١١٣/١ الفلق .

(٢) وتمام الآية : (وانّه كان رجالٌ من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) وهي ٧٢/٦ الجن .

(٣) في الاساس (عوذ) : لقد عذت بمعاذ .

والفلق : الفجر المفلوق المفري ، ومن لطائف هذه اللغة الشريفة ان الفتح والفلح والفجر والفلق والفرق والفتق والفري والفأ والفقأ والفقه كلها ذات دلالات واحدة ، وتخصيصها بمتعلقاتها باب من فقه اللغة عظيم .

ومما وصف به ربنا نفسه في القرآن فالق الأصباح ، وفالق الحب والنوى ، فهما من أسمائه تعالى .

ومواقع هذه الألفاظ التي تضاف الى كلمة رب في القرآن كمواقع أسماء المخلوقات التي أقسم بها الله ، كلاهما عجيب معجز ، فكل لفظة تستعمل في المقام الذي يناسبها وتناسبه ، وكل لفظة تبعث في الأسلوب الذي وقعت فيه متانة وقوة وفي معناه وضوحا وجلاء ، وسر إضافة الفلق الى رب هنا أن الفجر بمعناه العرفي هو تشقق الظلمة عن النور ، فان الليل يكون مجتمع الظلمات عن النور مسدول الأرواق . فاذا جاء الصبح حصل الانفلاق . والذي يبقى بعد ذلك الانفلاق هو النور الذي نفى الظلمة . ولا ينفي ظلمات الشر والضلال والباطل الا أنوار الخير والهدى والحق من خالقها ، وفالق أنوارها . وكما أضيف الفلق ، بمعنى الفجر ، الى كلمة رب هنا اقسم به في آية أخرى وهي قوله تعالى : والفجر .

« مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » (١) .

من كل مخلوق فيه شر ، فلا يدخل في عمومه الا كل شرير من أي العوالم كان ، كما يدخل في عموم الناطق كل ذي نطق ، أو من شر كل مخلوق . ومن مخلوقات الله ما هو خير محض كالأنبياء والملائكة . ومعلوم ان المخلوقات كلها خلقت بحق ولحكمة فهي في نفسها خير ، فان كان لا ينشأ من أعمالها أو آثارها الا الخير فهي

(١) ١١٣/٢ الفلق .

الخير المحض ، وان كان ينشأ عنها الشر أحيانا أو دائما فعملها هو الشر وهو المستعاذ منه • وتصح نسبة هذا القسم الى الله من حيث الخلق والحكمة ، ونسبة أعماله اليه من حيث التقدير والتكوين لا من حيث الرضى والتكليف ، فالله لا يرضى بالشر ولا يكلف به ، وقصارى ابليس — وهو مادة الشر في هذا الوجود — ان يزيد الشر ويلبسه بالخير • فالشر بيد الله خلقة وحكمة لا رضا وتكليفا ، والخير بيد الله خلقة وحكمة ونعمة وأمرا •

وقد يكون الشر ذاتيا لا ينفك ، وقد يكون نسبياً باعتبار حالة تعرض واتجاه يقصد ونعم الله على عباده ، قد تنقلب عليهم شراً وبلاءً بسبب سوء تصرفهم فيها ، كالمال الذي سماه الله خيراً في القرآن — يكسبه صاحبه من الوجوه الشرعية وينفقه في الوجوه المشروعة • ويتحرى رضا الله في جمعه وتفريقه فيكون خيراً بذاته وبعمل صاحبه• ويتصرف فيه بعكس ذلك فيكون شراً لا من ذاته بل من عمل صاحبه •

وهذا العالم الإنساني المكلف هو الذي يتجلى الخير والشر في أعماله • ويتصلان بحياته اتصالا وثيقا • وانما عيب عليه الشر وقبح منه لأنه قادر على تمييزه واجتنابه ومكلف بذلك ، وقد وضع له الدين قوانين ثابتة للخير والشر ، ووضح له أن الخير ما نفع وأن الشر ما أضر • ولكنه وان أُوتي قوة التمييز لم يؤت قوة الاستعصام ابتلاء من الله • فأما المخذول فيأتي الشر عامداً متعمدا وهو يعلم أنه شر ، وأما الموفق فيواقع الشر في مواقف يشتبه عليه فيها الخير بالشر ويعسر التمييز ، والخير والشر لا يوزنان بميزان حيي يستوى الناس كلهم في ادراكه وقد تدق الفوارق بينهما حتى تخفى ، وفي هذه المواقف يجب الالتجاء الى الله ليرينا الخير خيرا ويكشف لبصائرنا عن حقائق الشر فلا يلتبس علينا شيء بشيء ، وبعد ان يوجه الاضطرار نفوسنا هذا التوجيه الصحيح تندفع ألسنتنا وتقول :

« أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » .

وبهذا تظهر المناسبة الدقيقة بين رب والفلق ، فـان ربّ الناس ومربيهم وسائقهم الى ما يكمل وجودهم هو الذي تتكشف لعلمه سرائرهم ، والفلق نور يكشف للعيان كل المبصرات فترى على حقائقها ومقاديرها ، لا يزيغ البصر في شيء منها ولا يطغى ، والانسان مهمايكن عالما فقد تخفى عليه حقائق المعقولات فيزيغ فكره ويطغى .

ومناسبة أخرى : وهي أنّ الشر ظلام ، وقد أجرى الله في فطر البشر تصور الشر كالظلام وأجرى على ألسنتهم تشبيه الشر بالظلام، ذلك أن ما يلابس احساسهم من الأنس بالنور والبشاشة له هو عين ما يلابسه من الأُنس والبشاشة للخير ، وان من يضايقهم من وحشة الظلام وتوقع الهلاك فيه هو عين ما يضايقهم من ذلك في الشر .

هذا كله في الشر على عمومه ، ثم خصص تعالى من هذا العموم ثلاثة أنواع من الشر لشدة تعلقها بحياة الانسان وكثرة عروضها له ، ويجيء أكثرها من أخيه الانسان ، ورتبها ترتيبا بديعا لا يستغرب في جنب بلاغة القرآن ودقته في رعاية المراتب وتنسيقها في العرض على الأذهان .

هذه الثلاثة هي : الغاسق اذا وقب ، والنفاثات في العقد ، والحاسد اذا حسد . والغاسق : الليل المظلم ، والمراد هنا المصيبة تطرق ليلا وعلى غرة . ووقب : دخل في الوقب ، وهو النقرة في الشيء . والنفاثات : السواحر ينفثن الريق واللفظ ، جمع نفاثة ، كثيرة النفث . والعقد : جمع عقدة ، بيان لعادة السواحر المعروفة من عقد الخيوط ونفث الريق عليها . والجامع بين الثلاثة هو اشتراكها في الخفاء ، فان الغاسق ظلام تخفى فيه الشرور ، والنفاثات مبني أمرهن على الاخفاء تخييلا وايهاما ، والحسد داء دفين . فالثلاثة كما ترون شرها خفي ،

وكل شر يخفى عمله أو يخفى أثره يجل خطبه ويعظم خطره • فيعسر التوقي منه والاحتياط له • لأنك تتقي ما يظهر ويستعلن لا ما يخفي ويستتر • لا جرم كانت الثلاثة جديرة بالتخصيص ، أما نكتة الترتيب فان الليل ليس شرا في نفسه ولا الشر في عمله ، وانما هو ظرف للشرور • والعلاقة بين الشيء وظرفه مكينة في النفوس قوية في الاعتبار مسببة للحكم على أحدهما بحكم الآخر • بخلاف النفاثات والحساد فان الشر من عملهما ومن وصفهما ، ولانطباعهما عليه صار ذاتيا لهما • ولا شك ان الشر الذاتي أمكن من العرضي ، كما أن بين الاثنين تفاوتا في ذاتية الشر وقوته وعسر التوقي منه • فالنفاثات وان كن يتحرين اخفاء عملهن ولكنه مما يمكن ظهوره وافتضاحه ، بخلاف الحاسد فانه يخفي شره ويبالغ فيظهر بمظهر الخير فشره أشد والتوقي منه أعسر ، ففي الترتيب بين الثلاثة ترق من الأخف الى الأشد • ومن جهة أخرى نجد التناسب ظاهرا بين الثلاثة : الغاسق والنفاثات والحاسد ، فان الجميع ظلام ، ظلام الزمن وظلام السحر وظلام الحسد • وفي تقييد الغاسق بالوقوب احتمالان كلاهما صحيح مفيد للمراد • الاول : أن وقوب الغاسق عبارة عن اعتكار الظلم وتكاثفها ، فكان بعض أجزائها يدخل بعضا ، والظلام يبدأ خفيفا مشوبا باسفار من أو من طبيعة الأرض ، ثم يشتد ويحلو لك حتى يغطى على كل شيء ، فتلك التغطية هي الوقوب • والوقوب على هذا الاحتمال منظور فيه الى ظرفه الزماني • وفائدة القيد حينئذ ان تلك الحالة المصورة بهذه الجملة هي التي تقع فيها الشرور من الآدميين وغيرهم • فالطارق يطرق والسارق يسرق والحيات تنتهش ، والضواري تفترس • وظلام الليل يستر ذلك كله ويعين عليه ويعوق عن الاستسراح والاستنجاد • والعرب تقول في ما يشير الى هذا : الليل أخفى للويل •

فالمستعاذ منه على هذا الاحتمال شر" يقع في زمان ، والاحتمال

الثاني أن الوقوب في حقيقته هو دخول شيء في شيء دخولا حسيا فيقتضي ظرفا مكانيا ، وما هذا الظرف الا الأبنية والمساكن ، والظلام حين يهجم يدخل المساكن فيملأها ويكون دخوله فيها أبين من دخولها في الفضاء وملؤه اياها أشد ، فالوقوب على هذا منظور فيه الى ظرفه المكاني ، لأن الشرور التي ترتكب في البيوت حين يغمرها الظلام أكثر مما يرتكب منها في الفضاء ، خصوصا من الآدميين والمستعاذ منه شر يقع في مكان ، وعلى الاحتمالين لما كان الليل معوانا لذوي الشر على شرهم أضيف الشر اليه واستعيذ بالله منه • والنفاثات : صفة اما للنفوس فتشمل الرجال والنساء وتكون الاستعاذة من شر كل من يتعاطى هذا الفعل رجلا كان أو امرأة ، وأما للنساء وخصصن بذلك لأن وقوع هذا الفعل منهن أكثر ، وهن به أشهر • والنفث اخراج الهواء من الفم مدفوعا بالنفس بدون بصاق ، أو مع قليل منه تتطاير ذراته وهو دون التفل ، والنفث وإن كان عاما لكنه اشتهر فيما يفعله السحرة ، يعقدون خيطا ويتمتمون عليه برقى معروفة عندهم وينفثون على كل عقدة منه بقصد ايصال الشر من نفوسهم الخبيثة الى نفس المسحور • وما هم بضارين به من أحد إلاّ باذن الله • وما أمرنا الله بالاستعاذة من شره الا لأنه يؤثر في بعض النفوس القابلة للتأثر به ، حاشا النفوس المعصومة كنفوس الانبياء ، فان شرور الدنيا وأسوأها لا تعدو أبدانهم الى أرواحهم • ولا يتعاصى على هذه القاعدة ما ورد في سحر لبيد بن الاعصم اليهودي لرسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — وما يوهمه لفظ الرواية فان ذلك كله لا يخرج عن التأثر البدني • ونحن نعتقد ديناً أن تأثير المؤثرات هو من وضع الله وحده • ونقطع علما وتجربة أن للقوى النفسية تأثيرا أعظم من تأثير القوى الجسمانية ، وان من مظاهر هذا التأثير النفساني تأثير العين في المعيون وتأثير التنويم في المنوَّم ، وان التأثير والتأثر النفسانيين

يختلفان باختلاف النفوس الفاعلة والمنفعلة قوة وضعفا ، وان تأثير العين ليس من ذاتها وانما هو من النفس التي من وراء العين ، ولو كان التأثير من ذات العين لكانت كل عين ناظرة تحدث ذلك الأثر ، وان هذا التأثير لون من ألوان النفس ، فان كانت خيرة كان تأثيرها خيرا وان كانت شريرة كان شرا . فالنفث المذكور في الآية إنْ أثَّر فانما يؤثر بالقوة النفسية التي من ورائه ، والساحر لا ينفث من نفسه الخبيثة الا نفث الشر ، لأن الشر هو صفته الطبيعية ، كالحية لا تنفث الترياق وانما تنفث السم . وكالعدو يلقاك بطعن الأسل ، لا بطعم العسل اذ كان ذلك من طبيعة العداوة . هذا نفث الشر من النفوس الشريرة كنفوس السحرة ، وأما النفوس الخيرة الطيبة كنفوس المؤمنين فانها تنفث الخير للخير . وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها : إن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — كان اذا أوى الى فراشه جمع بين كفيه ثم نفث فيهما وهو يقرأ المعوذتين ثم مسح بهما ما استطاع من بدنه ، يبدأ برأسه ووجهه ، يفعل ذلك ثلاث مرات ، فهذا نفث الخير من خير نفس خلقها الله ، ثم قالت في تمامه : فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك . وفي رواية : كان يقرأ بالمعوذات ، فلما ثقل كنت انفث عليه بهذا وامسح بيد نفسه رجاء بركتها . وفي رواية مسلم عنها : انه كان يفعل ذلك اذا مرض أحد أهله .

فهذه الأحاديث — وهي ثابتة صحيحة — تثبت أن رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — كان يقرأ المعوذات وينفث حين القراءة نفث الخير قطعا . وتبين لنا أن كل نفس تنفث ما وقر فيها . وان النفث إلاّ من فعل السحرة . والنفوس اذا استفزها شيء من ملابستها دليلنا على ما أسلفنا من أن في النفث خيرا وشرا ، ولولاها لما كان النفث إلاّ من فعل السحرة . والنفوس اذا ستفزها شيء من ملابستها تنفشى فيها الروحانية وتضطرب فكأنها بذلك النفث تنفض جزءا من

روحانيتها على نفس أخرى أو على بدن ، وكأن تحريك اللسان بقراءة أو غيرها اثارة لتلك الروحانية واستدعاء لها حتى تتصل بالريق الذي ينفث كما يتصل السيال الكهربائي بشيء مادّي • وقد علمنا ان السحرة لا ينفثون نفثا مجردا بل يغمغمون برقي شيطانية وأسماء أرواح خبيثة • ومن الشواهد لنفث الريق ما أخرجه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها ان رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كان اذا اشتكى الانسان الشيء منه أو كانت به قرحة أو جرح قال النبي باصبعه هكذا : « تعني وضعها على الأرض كما فسرها سفيان بالعمل » ثم رفعها وقال : **« بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا ــ ليشفى به سقمنا باذن ربنا »** •

✶ ✶ ✶

بعد رواية الاستاذ لهذا الحديث سكت لحظة كمن يستجمع خواطره ثم اندفع فقال ما معناه بتوسع:

ان القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة فلا يستقل بتفسيره الا الزمن ، وكذلك كلام نبينا ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ المبين له ، فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع لم تفهم أسرارها ومغزاها الا بتعاقب الازمنة وظهور ما يصدقها من سنن الله في الكون ، وكم فسرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث ، واظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين ، وأرتنا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم في وصف القرآن :**لا تنقضي عجائبه** •

والعلماء القوامون على كتاب الله وسنة رسوله لا يتلقونها بالفكر الخامد والفهم الجامد ، وانما يترقبون من سنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما ، ويكلون الى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم ، وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات ، لم يأت مصداقها أو تأويلها

بعد • يعنون أنه آت وان الآتي به حوادث الزمان ووقائع الأكوان وكل عالم بعدهم فانما يعطي صورة زمنه بعد ان يكيف بها نفسه • ولو أننا عرضنا حديث التوبة والريقة على طائفة من الناس مختلفة الاذواق متقسمة الحظوظ في العلم وسألناهم : أية علاقة بين الشفاء وبين ما تعاطاه النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — من أسبابه في هذا الحديث ؟ فماذا تقولهم يقولون ؟

يقول المتخلف القاصر : تربة المدينة بريق النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — شفاء ما بعده شفاء •

ويقول الطبيب المستغرب : هذا محال في التراب مكروب • وفي الريق مكروب • فاني يشفيان مريضا أو ينفسان عن مكروب •

ويقول الكيماوي : ها هنا تفاعل بين عنصرين ، ودعوا التعليل ، فالقول ما يقول التحليل •

ويقول ذوو المنازع القومية والوطنية ، ولو كانوا يدينون بالوثنية : آمنا بأن محمداً رسول الله • فقد علم الناس من قبل أربعة عشر قرنا ان تربة الوطن معجونة بريق أبنائه تشفي من القروح والجروح • ليربط بين تربته وبين قلوبهم عقدا من المحبة والاخلاص له • وليؤكد فيهما معنى الحفاظ له والاحتفاظ به وليقرر لهم من منن الوطن منة كانوا عنها غافلين • فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة ان تربة الوطن تغذي وتروي ، فجاءهم من علم النبوة انها تشفي ، فليس هذا الحديث ارشادا لمعنى طبي ولكنه درس في الوطنية عظيم • ولو أنصف المحدثون لما وضعوه في باب الرقي والطب فانه بباب حب الوطن أشبه ، وما نرى رافع اعقيرة بقوله :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بواد وحولي اذخر وجليل
وهل أرِدَنْ يوما مياه مجنة   وهل تبدون لي شامة وطفيل

إلاّ سائراً على شعاعه . وما نرى ذلك الغريب المريض الذي سئل : فيم شفاؤك ؟ فقال : شمة من تربة اصطخر . وشربة من ماء نهاوند الا من تلامذة هذا الدرس ، ولقد زادنا ايمانا به بعد ايمان انه يقول : **تربة ارضنا بريقة بعضنا** ، يقل : تربة الارض بريق بني آدم ، فليس السر في تربة ، وريق ومرض . ولكن السر في أرضنا وبعضنا ومريضنا ــ فهذه ــ والله ربنا ــ صخرة الأساس في بناء الوطنية والقومية لا ما يتبجح به المفتونون .

ويقول الروحانيون : ان هناك روحا طاهرة تتصل بتربة الارض التي خلق المريض منها وتغذى بنباتها ومائها . وتنفس كبده في جوها وهوائها .من ريقة منفوثة نفث الخير من نفس مؤمنة قوية الروحانية . فيكمل التكوين بين الريق والتربة مع اسم الله الذي قامت به السموات والارض وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة . فيحصل الشفاء بهذا العمل النفساني . واذا تجلت النفس بعجائبها لم يبق في الوجود عجيب .

ويقول غير هؤلاء ما يقول ، وهذه المتون كاسمها متون ، وهذه الاصول كاسمها اصول .

وهكذا تأتي بعض المتون مع كلام الله وكلام رسوله معجزة للعقول ، فتتطاير من حولها الفهوم والآراء تطاير الشعراء ، ويظن كل عقل أن حرفته آلة لتفسير تلك المتون ، والعلوم حرف العقول . والزمان من وراء الكل يصيح ان انتظروا ...

« وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ » (١) .

الحاسد: الذي قامت به صفة الحسد.وهو الذي يُحب أن تسلب النعم من غيره وقد تلج به هذه الصفة الذميمة فتزين له سلب النعم حتى من نفسه إذا توقف على ذلك سلبها من غيره ، فهو لا يحب الخير لأحد

(١) ١١٣/٥ الفلق .

ويتمنى أن لا يبقى على وجه الأرض منعم عليه . وانما ينشأ الحسد من العجب وحب الذات فتسول له نفسه أن غيره ليس أهلا لنعم الله ، وكفى بهذا محادة للمنعم . والحسد شر تلازمه شرور ، العجب والاحتقار والكبر ، وقد جمع ابليس هذه الشرور كلها حسد آدم عجبا بنفسه : « قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ »[1] ورآه لا يستحق السجود احتقارا له فقال : أهذا الذي أكرمت علي ثم تكبر ولم يسجد ورضي باللعنة والخزي ، ولا أشنع من صفة يكون ابليس فيها اماما . والحسد شر على صاحبه قبل غيره لأنه يأكل قلبه ويؤرق جفنه ويقض مضجعه ، ولا يكون شرا على غيره الا اذا ظهرت آثاره بأن كان قادرا على الاضرار أو ساعيا فيه ، ولهذا قال تعالى : « إِذَا حَسَدَ » . والمتمني للشيء لا يمنعه من اتيانه الا العجز . وأعظم ما ينمي الحسد ويغذيه امتداد العين الى ما متع الله به عباده من متاع المال والبنين ، ونعمة العافية والعلم ، والجاه والحكم وقد نهى الله نبيه عن مد العين الى ما عند الغير فقال : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى »[2] .

وفي هذه الآية مع النهي إرشاد الى علاج الحسد ، فان الحسد مرض نفساني معضل ، ولكنه كغيره من الأمراض النفسية يعالج ، وقد وصف الحكماء له أنواعا من العلاج فصلتها كتب السنة وكتب الفقه النفسي ككتاب الاحياء للغزالي[3] .

* * *

(١) ١١/٧ الاعراف و ٧٦/٣٨ ص .
(٢) ١٣١/٢٠ طه .
(٣) جـ ٤ ، م ٤ ، ص ١٨٦ ـ ٢١٢

سورة الناس

قال تعالى : « قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » [1] .

قد علمنا أن الصفة الجامعة بين هذه السورة وبين التي قبلها (هي المعوذتان) وعلمنا انها تسمية نبوية ، وقد جرت هذه الصفة مجرى الاسم لهما . أما الاسم الخاص بهذه السورة فهو الناس ، كما ان الاسم الخاص بالسورة الاولى الفلق . والمناسبة بين السورتين يرشد اليها اشتراكهما في الوصف وهو التعوذ بهما من الشرور المذكورة فيهما ، وفي السورة الأولى الاستعاذة من الشر العام ومن ثلاثة أنواع منه ذكرنا الحكمة في تخصيصها بالذكر . وفي هذه السورة الاستعاذة من شر واحد لكنه سبب في شرور كثيرة .

والمناسبة القريبة بين السورتين هي أن النفوس الشريرة ثلاثة أقسام: قسم يصدر عنه الضرر ويعمله ، وقسم لا يريد الخير فيسعى في سلبه وانتزاعه ، وهو شر من الأول . وقسم يعمل الى إيصال الشر الى سلطان الجوارح ومالك هديها ، وهو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله . فهو يحسن له الأشياء القبيحة ويأتيه من جميع النواحي على وجه النصح وارادة الخير ، ويزين للانسان كل ما يرديه من القبائح ويأتيه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، قريبا منه متصلا بهواه ، وهذا القسم الاخير هو الذي يوسوس بكلمة السوء مزينة الظاهر مغطاة القبح حتى تستنزل صاحبها الى الهلاك . ولما كان هذا القسم الثالث أعظم خطراً وأكثر شراً وأخسر عاقبة خصص التعوذ منه بسورة كاملة .

رب الناس : هو مربيهم ومعطيهم في كل مرتبة من مراتب الوجود

---

(١) ١١٤/١ الناس .

ما يحتاجون اليه لحفظها ، وهاديهم لاستعمال ما منّ به عليهم فيما ينفعهم : « رَبُّنَا الَّذِي أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وأصله من ربه يربه ربا ، اذا قام على إنشائه وتعاهده في جميع أطواره الى التمام والكمال . ولفظه المصدر ولكن معنى اسم الفاعل كالعدل يراد به العادل .

ومالك الناس : هو الذي يملك أمر موتهم وحياتهم ، ويشرع لهم من الدين ومن الاحكام ما يوافق حياتهم الدنيوية والأخروية . وإله الناس : هو الذي يدينون له بالعبادة والعبودية .

وبلاغة الترتيب انما تظهر جلية عند استعراض أطوار الوجود الانساني ، فالأول : طور التربية والاعداد ، وهما من مظاهر الربوبية ، والثاني : طور القوة والتدبير ، وهما من مظاهر الملك ، والثالث : طور الكمال والقيام بوظائف العبودية ، وهو من مظاهر الألوهية . والمستعاذ منه تارة يوسوس للانسان بما يفسد عليه صلته بربه ، وتارة بما يفسد عليه تدبيره وما شرع له لمنفعته وصلاحه . وتارة بما يفسد عليه عبوديته له وهي أشرف علائقه به وأقوى صلاته ، وجماع ذلك أن يبعده عن الله بالوسوسة بواحدة من هذه أو بكلها أو بما يتفرع عنها مما تضمنته الآيات المبينة لأفعال أصل هذه القوة الموسوسة ، مثل قوله تعالى: «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ »[1] أو لذلك الشأن الجاري مجرى الحوار بين ابليس وخالقه كقوله تعالى : « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعِينَ »[2]، وكقوله تعالى : « قَالَ أرَأيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أخَّرْتَنِي

(١) ٢٦٨/٢ البقرة .

(٢) ٨٢/٣٨ ص .

إلى يَوْمِ القِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلاَّ قَلِيلاً » [1] ،
وكقوله تعالى : « وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ » [2] فهو جاهد في أن يبعد الناس عن الله بافساد العقيدة الصحيحة فيه ، أو بالصرف عن شرع الله ، أو بالحمل على عبادة غيره ، فلذلك كله جاء الترتيب على هذا النمط المذكور بتلك العلائق القوية التي يريد الشيطان أن يقطعها . والرب رب الناس وغيرهم ، بل رب العالمين، وانماخص الناس بالذكر لأنهم هم هدفه ومرمىوسوسته.ولأنهم هم المأمورون بالاستعاذة منه . ولأن عالم التكليف أشرف ، فاليهم يوجه الخطاب واليهم يساق التحذير ، وهذه الوسوسة نتيجة للعداوة بين أصليهما ، فأمر الله بالاستعاذة منها هو تسليح إلهي لبني آدم لتثبيت سنة التعمير التي هي حكمة الله من وجودهم .

ونكتة أخرى في تخصيص الناس بالذكر دون بقية أفراد المربوبين وهي أنهم هم الذين ينطبق عليهم ناموس الهداية والضلال . وقد ضلّوا بالفعل في ربوبية الله وفي ألوهيته .. ضلوا في الربوبية باتخاذ المشرعين ليشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ويصدوهم بذلك عما شرع الله . وضلوا في الألوهية بعبادة غير الله بما لا يعبد به أحد غيره كالدعاء .

وأختير لفظ الناس من بين الألفاظ المشاركة له في الدلالة كالبشر والبرية لأنه ينوس ويضطرب وينساق وهي صفات يلزمها التوجه ويسهل التوجيه فلا غنى لصاحبها عن توفيق الله للوجهة الصالحة والتسديد فيها

---

(١) ٦٢/١٧ الاسراء .

(٢) ١١٨/٤ النساء .

ما دام لا يملك لنفسه ذلك وما دام محاسبا عليه وما دامت هناك قوة مسلطة تنزع به الى الشر •

ففي تخصيص الناس بالذكر تنبيه الى أنهم أحوج المربوبين الى تأييد الله وأحقهم بطلب ذلك منه ، وقد أرشدهم الى ذلك وله الحمد •

ولو تفقه الناس في معنى اسمهم واشتقاقه لعلموا بفطرتهم أنهم مخلوقات ضعيفة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ولأيقنوا أنه لا بد لهم من رب يربيهم ويحميهم ومالك يدبر أمورهم واله يعبدونه ويتخذون العبودية له جنة من استعباد الأقوياء •

ويجوز — اذا راعينا الأدب وكمال التنزيه في حمل الألفاظ التي تضاف الى كلمة رب على أشرف معانيها — أن تحمل كلمة (الناس) على معنى أخص مما يتناوله عموم الجنس • وهو الاماثل والاخيار منهم الجامعون لمعاني الانسانية الفاضلة ، وهذا المعنى تعرفه العرب فانهم كثيرا ما يطلقون اسم الجنس على الفرد أو الأفراد الكاملين في حقيقته • وان كان هذا من المجاز في كلامهم وقد حملوا على هذا المعنى قوله تعالى : « آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ »[1] •

ونكتة الاعادة والاظهار للفظ الناس ، توضيح المعنى والفات النفس اليه وايقاظ شعورها به والتسجيل على الناس بان لهم ربا هو مالكهم والههم •

« مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ » [2] — الوسواس هنا صفة الموسوس وان خالف المعهود في أبنية الصفات ، أو هو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال والزلزلة ، وأصل هذه الكلمة دائر على معنى الخفاء • والعرب

(١) ٢/١٣ البقرة .

(٢) ١١٤/٤ الناس .

تسمي حركة الحلي وسواسا ، وهذا المعنى واضح في المراد هنا فان الموسوس من الجن في نهاية الخفاء هو وعمله ، والموسوس من الانس يتحرى الاخفاء ما استطاع ويحكي الحيلة في ذلك ولا يرمي رميته الا في الخلوات • وان الناس ليعرفون عرفانا ضروريا من الفرق بين المصلحين والمفسدين ان الاولين يصدعون لكلمة الحق مجلجلة ويرسلون صيحته داوية ويعملون أعمالهم في وضح النهار ومحافل الخلق وان الآخرين يتهامسون اذا قالوا ويستترون اذا فعلوا ويعمدون الى الغمز والاشارة والتعمية ولو وجدوا السبيل لكانت لهم لغة غير اللغات • ولكان الزمن كله ظلمات ، والارض كلها مغارات •

والخناس — وصف مبالغة في الخانس من الخنوس وهو التأخر بعد التقدم ومن ملابسات هذا المعنى ومكملاته في المحسوس أنه يذهب ويجيء ويظهر ويختفي اغراقا في الكيد وتقصيا في التطور حتى يبلغ مراده • فالله تعالى يرشدنا بوصفه بهذه الصفة الى أن له في عمله كرا وفرا وهجوما وانتهازا واستطرادا على التصوير الذي صوره ابليس في ما حكى الله عنه : « ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ » (1) • يرشدنا بذلك لنعد لكل حالة من حالاته عدتها • ولنضيق عليه المسالك التي يسلكها ، كما ان وصفه بهذه الصفة يشعر بأنه ضعيف الكيد لأن الخنوس ليس من صفات الشجاع المقدام • وانما هو كالذباب تذبه بذكر الله من ناحية فيأتيك من ناحية ثم دواليك حتى تمل أو يمل ، وأما التهويل في وصفه بما يأتي بعد فهو مبالغة في التحذير منه لأن وصفه بالضعف مظنة لاحتقاره والتساهل في أمره •

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ — قال يوسوس

(1) الاعراف ٧/١٦ .

بالمضارع اشعارا بعد اشعار بتجدد الوسوسة منه وعدم انقطاعها . وقال : فِي صُدُورِ النَّاسِ . والصدر ملتقى حنايا الأضلع ومستودع القوى التي كان الانسان انسانا بها ومجمع المضغ التي تحمل تلك القوى . والقلب واحد منها ، فالقلب غير الصدر ، وانما هو فيه ولذلك قال : « وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »[1] . ومواقع استعمال القرآن لكلمة الصدر مفرداً وجمعاً والحكم عليها بالشرح والحرج والضيق والشفاء والاخفاء والاكنان ـ ترشدنا الى أنه ليس المراد منه الصورة المادية ولا أجزاءها المادية وانما المراد القوى النفسية المستودعة فيه ، وان الوسواس الخناس يوجه كيده ووسوسته الى هذه القلعة التي هي الصدر لأنها مجمع القوى .

وقال : « فِي صُدُورِ النَّاسِ » ولم يقل في قلوب الناس ، لأن القلب مجلى العقول ومقر الايمان ، وقد يكون محصنا بالايمان فلا يستطيع الوسواس أن يظهره ولا يستطيع له نقبا .

« مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » الجنة جماعة الجن وهم خلاف الانس ، والمراد هنا أشرار ذلك الجنس لأن منهم المسلمين ومنهم القاسطين . واستعمل لفظ الجنة في القرآن بمعنى المصدر الذي هو الجنون في قوله تعالى : «مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ»[3] ولما كان الموسوسون فريقين متعاونين على الشر ذكرهما الله تعالى في مقام الاستعاذة من شر الوسوسة ليلتئم طرفا الكلام ويحصل التقصي الوصفي في المستعاذ به والمستعاذ منه .

وقد قسم القرآن الشياطين ، وهم القائمون بوظيفة الوسوسة ،

---

(١) ٢٢/٤٦ الحج .

(٢) ٧/١٨٣ الاعراف .

الى قسمين : شياطن الانس وشياطين الجن ، وذكر ان بعضهم يوحي الى بعضٍ زخرف القول ، وشيطان الجن ميسر للشر فكل من يعمل عمله من الانس فهو مثله • ومن شياطين الانس بطانة السوء وقرين السوء •

وورد في الآثار ان لكل انسان قرينا من الجن ، وقال تعالى : « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ »[١] وقال «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ »[٢] وهومن باب توزيع الجمع على الجمع ، أي لكل واحد قرين ، فهذا الانسان الضعيف يلازمه قرين من الجن ثم لا يخلو من قرين أو قرناء من الانس يزينون له ما بين يديه وما خلفه ويصدونه عن ذكر الله فماذا يصنع ؟ ما عليه الا أن يلتجيء الى الله ويستعيذ به ويتذكر فانه لا يؤخذ وهو ذاكر مستيقظ وانما يؤخذ اذا كان غافلا ، قال تعالى : « وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ »[٣] وقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » [٤] •

ومن دقائق القرآن ولطائفه في البلاغة انه يقدم أحد الاسمين المتلازمين في آية لسر من أسرار البلاغة يقتضيها ذلك المقام ، ثم يؤخِّر ذلك المقدم في آية أخرى لسر آخر ، فيقدم السماء على الأرض في مقام ويؤخرها عليها في مقام آخر ، ومن هذا الباب تقديم الانس على الجن

---

(١) ٤٣/٣٦ الزخرف .

(٢) ٤١/٢٥ فصلت .

(٣) ٧/١٩٩ الاعراف و ٤١/٣٦ فصلت .

(٤) ٧/٢٠٠ الاعراف .

في آية الأنعام لأن معرض الكلام في عدواتهم للأنبياء وهي من الانس أظهر ودواعيها من التكذيب والايذاء أوضح • وفي آية (الناس) قدم الجنة على الناس لان الحديث عن الوسوسة وهي من شياطين الجن أخفى وأدق وان كانت من شياطين الأنس أعظم وأخطر وأدهى وأمرّ• فشيطان الجن يستخدم شيطان الأنس للشر والافساد فيربى عليه ويكون شراً منه لانه بمثابة السلاح الذي يفتك به ، ورب كلمة واحدة صغيرة يوحيها جنيّ لأنسي ويوسوس اليه بتنفيذها ، فتتولد منها فتن ويتمادى شرها من قرن الى قرن ومن جيل الى جيل ، وهذا النوع الانساني المهيأ لقابلية الخير وقابلية الشر ، اذا انحط وتسفل كان شراً محضاً ، واذا ترقى وتعالى شارف أفق الملأ الأعلى وأوشك أن يكون خيرا محضا لولا أن العصمة لم تكتب الا لطائفة منه وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام •

فالانسان اذا انحط يكون شراً من الشيطان ، واذا ارتقى يكون أفضل من الملك — أعني جنس الانسان — ومن هذا الجنس كان محمد — صلى الله عليه وآله وسلم — أكمل الخلق الذي ليس لمخلوق رتبة مثله في الكمال •

* * *

انتهى تلخيص الدرس وقد حرصنا على ما وعته الذاكرة من معانيه وقيده القلم من ألفاظه ثم تصرفنا في المواضيع التي طرقها الاستاذ بما لا يخرج عن مراده ولا يخالف طريقته في تفسير كلام الله والله ينفعنا بالقرآن ويوفقنا الى خدمته[1] •

---

(١) ش : ج ٤ ، م ١٤ ، ص ٢٠٦ — ٢١٢
غرة ربيع الثاني وجمادي الاولى ١٣٥٧ — جوان جويلية ١٩٣٨

حول كلمات الاستاذ الكبير

في تفسير آيات الزينة والستر

— ١ —

نشرت جريدة « الزهرة » الغراء حديثاً لفضيلة العلامة الكبير الشيخ محمد بن يوسف المفتي الحنفي بحضرة تونس ، أفضى به لأحد محرري جريدة « اللواء التونسي » ، فرأينا في بعض ما قاله الاستاذ نظراً لا ينبغي السكوت عليه فكتبنا عليه ما يلي :

قال المحرر : « ثم تلا ــ الاستاذ ــ قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ .. »[1] الآية ، يقال للمرأة اذا زال ثوبها عن وجهها : أدني عليك من ثوبك ، أي استري وجهك ، وتلا قوله تعالى : « وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ .. » الآية قلت ــ المحرر ــ وما المراد من الزينة ؟ قال : الزينة هي الوجه إذ الوجه هو مناط جمال المرأة » .

فظاهر من مساق تلاوة الاستاذ للآية ان يستشهد بها على وجوب ستر الوجه . وظاهر من السؤال انه عن المراد بلفظ الزينة من :

---

(١) ٣٣/٥٩ الاحزاب .

(٢) ٢٤/٣١ النور .

« وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ » وظاهر من الجواب انه فسر الزينة بالوجه في قوله « زِينَتَهُنَّ » .

ولو ذهبنا على هذا الرأي في الاستشهاد والجواب لكان تقدير الآية هكذا ، ولا يبدين وجوههن الا ما ظهر من وجوههن . وهذا لا قائل به وتكاد لا تكون فائدة لمعناه .

والصواب : ان الذي فسر بالوجه والكفين – لا بالوجه فقط – هو لفظة « ما » في قوله « إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا » وهي واقعة على الزينة الظاهرة . إذ الزينة منها باطن كالسوار للذراع والدملج للعضد والقُرط للاذن والقلادة للنحر والخلخال للساق ، ومنها ظاهر كالكحل للعين والخاتم للاصبع . والزينة هي هاته الأشياء المتزين بها ونحوها . فتعلق بها هذا الخطاب باعتبار محالها فالمقصود محالها بدليل انها اذا لم تكن في محالها لا يتعلق بها هذا الخطاب وقد جاء تفسير الزينة الظاهرة عن السلف مرة بالوجه والكف ومرة بالكحل والخاتم ، والثاني راجع للأول لأن الوجه محل الكحل والكف محل الخاتم ، فالثاني فسر على حقيقة اللفظ والأول على المراد .

ولما قال الله تعالى : « وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ » عمَّ اللفظ الباطنة والظاهرة . ولما قال « إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا » خص الظاهرة فجاز ابداؤها وبقيت الباطنة على المنع . وأفادت الآية منع كشف العنق والصدر والساق والذراع وجميع الباطن ، وأباحت كشف الظاهر ، وهو الوجه والكفان ، إذ هما ليس بعورة من المرأة باجماع .

فبان بهذا بطلان تفسير الاستاذ الزينة من « زِينَتَهُنَّ » بالوجه ، وبطلان استدلاله بالآية على وجوب ستره ، إذ هي بالعكس دالة على جواز ابدائه بحكم الاستثناء الصريح .

ونرى أن نزيد المقام تقريراً وتوضيحاً بما ننقله عن امامين كبيرين في الحديث والفتوى : الامام الجصاص الحنفي والقاضي عياض المالكي • ثم عن امام دار الهجرة •

قال الجصاص : ــ وهو يريد « إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا» ــ • «وقال أصحابنا: المراد الوجه والكفان، لأن الكحل زينة الوجه والخضاب والخاتم زينة الكف ، فاذ قد أباح النظر الى زينة الوجه والكف فقد اقتضى ذلك لا محالة اباحة النظر الى الوجه والكفين • ويدل على أن الوجه والكفين من المرأة ليسا بعورة أيضا أنها تصلي مكشوفة الوجه واليدين ، فلو كانا عورة لكان عليها سترهما كما عليها ستر ما هو عورة • واذا كان كذلك جاز للأجنبي أن ينظر من المرأة الى وجهها ويديها بغير شهوة » •

وقال عياض « في هذا كله ــ وهو يعني حديث نظر الفجأة ــ عند العلماء حجة انه ليس بواجب ان تستر المرأة وجهها وانما ذلك استحباب وسنة لها • وعلى الرجل غض بصره عنها الى ان قال : ولا خلاف ان فرض ستر الوجه مما اختص به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم • اه من الاكمال بنقل المواق • ونقل صدره النووي وأقره •

وفي الموطأ : (سئل مالك : هل تأكل المرأة مع غير ذي محرم منها أو مع غلامها ؟ فقال : ليس بذلك بأس ، اذا كان على وجه ما يعرف للمرأة أن تأكل معه من الرجال • قال : وقد تأكل المرأة مع زوجها ومع غيره ممن يواكله أو مع أخيها على مثل ذلك) •

فمالك يرى جواز مواكلة المرأة للأجنبي اذا لم تكن في خلوة معه ، بان كان ذلك بحضرة زوجها أو أخيها مثلا • وهي تقتضي ابــداء وجهها وكفيها للأجنبي إذ ذلك لازم عند المواكلة كما قاله الباجي وأقره •

فهذه النقول كلها مفيدة لما دلت عليه الآية من أن الوجه والكفين

ليسا بعورة وأنه لا يجب على المرأة سترهما • نعم نصّ أكثر الفقهاء المتأخرين مع جميع المذاهب على أن المرأة يجب عليها ستر وجهها اذا خشيت منها الفتنة ، وهذا حكم عارض معلل بهذه العلة ، فيدور معها وجودا وعدما • ولذا لما كنا تتحقق الفساد بسفور نساء المدن والقرى — وحالتنا هي حالتنا — لا نرى لهن جواز السفور ما دامت هاته الحال ، ونعرف نساء جهات في بادية قطرنا لا يسترن وجوههن وليس بهن فساد ولم تقع بهن من فتنة ، فلما سئلنا عن سفورهن اجبنا بتركهن على حالهن أخذاً بأصل الجواز •

اننا بما كتبنا أردنا اعتراض عبارة الاستاذ وبيان الحكم الأصلي لستر الوجه والكفين والحكم العارض ، وقد بينا ذلك حسب المستطاع • وبقي الكلام على آية الادناء التي ربما تظن معارضتها لآية الابـداء المتقـدمة وسنتكلم عليها في العدد الآتي ان شاء الله •

— ٢ —

نعيد اليوم — وقد عدنا الى تمام هذا الموضوع — ما كنا صرحنا به في القسم الأول من قولنا : « ••• فهذه النقول كلها مفيدة لما دلت عليه الآية من أن الوجه والكفين ليسا بعورة ، وأنه لا يجب عـلى المرأة سترهما •نعم نص أكثر الفقهاء المتأخرين مع جميع المذاهب على أن المرأة يجب عليها ستر وجهها إذا خشيت منها الفتنة ، وهذا حكم عارض معلّل بهذه العلة فيدور معها وجوداً وعدماً • ولذا لما كنا تتحقق الفساد بسفور نساء المدن والقرى — وحالتنا هي حالتنا — لا نرى لهن جواز السفور ما دامت هاته الحال • ونعرف نساء جهات في بادية قطرنا لا يسترن وجوههن وليس بهن فساد ولم تقع بهن من فتنة فلما سئلنا عن سفورهن اجبنا بتركهن على حالهن أخذاً بأصل الجواز » • نعيد هذا ليتقرر ما نريده عند قارئنا بجـلاء تام •

قد فرغنا في القسم الاول من الكلام على آية الابداء وهي آية قوله تعالى : « وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ » ونريد أن نتكلم في هذا القسم على آية الإدناء وهي قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً » • وفي هذه الآية تفسيران أخذ الاستاذ بأحدهما وهو مرجوح في نظرنا بما نقيمه من الادلَّة على مرجوحيته ، وسنتكلم على الآية في ثلاثة مباحث •

المبحث الأول

في معنى الادنـاء والجلابيب

الادناء من الدنو وهو القرب ، فالادناء التقريب ، فيدنين عليهن من جلابيبهن بمعنى يقرِّبن عليهن ، وأصل فعل دنا أن يتعدى بمن ، تقول : دنوت منه وادنيته منه ، وانما يتعدى بعلى اذا كان في الكلام معنى الارخاء أو الضم كما في قولـه تعالى « وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا »[1] وكما في « يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ » •

والجلباب ــ على اختلاف عبارات اللغويين في تفسيره ــ هو الثوب الأعلى الذي تجعله المرأة فوق رأسها وترسله على بدنها كالملحفة ونحوهـا •

و « من » للتبعيض لأن الذي تدنيه عليها من ناحية وجهها إنما هو بعض جلبابها •

فأفادت الآية طلب تقريب المرأة بعض جلبابها وارخائها وضمه عليها

---

(١) ١٤/٧٦ الدهر .

من ناحية وجهها . وهذا محتمل لان يكون بتغطية جميع الوجه وبتغطية بعضه . واختلاف المفسرين من السلف في معنى الآية دليل على وجود هذا الاحتمال . وما نقله الاستاذ بالمعنى من تفسير الزمخشري هو أحد الوجهين المحتملين وأجود ما نقل عن أئمة العربية في تفسير الآية قول الكسائي : « يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهن » قال الزمخشري : « أراد بالانضمام معنى ادناء » والتقنع لا يقتضي ستر الوجه كله .

المبحث الثاني
في اختلاف المفسرين من السلف

في الآية قولان لهم نقلهما ابن جرير في تفسيره الشهير .

الاول — هو أن يغطين وجوههن ورؤسهن فلا يبدين منهن إلاّ عيناً واحدة . وهذا قول عبيدة وقول ابن عباس من طريق ابي صالح .

الثاني — أُمرن أن يشددن جلابيبهن على جباههن ، وهو قول قتادة وقول ابن عباس من طريق محمد بن سعد .

المبحث الثالث
في الترجيح

قد مضت آية الابداء مفيدة جواز ابداء الوجه والكفين على مقتضى ما تقدم من البيان ، وجاءت بعدها هذه آية الادناء محتملة لطلب ستر الوجه كله كما في القول الأول . وتكون عليه معارضته لآية الابداء المتقدمة ، تلك تبيح كشف الوجه وهذه تحظره ، ومحتملة لطلب الارخاء والضم لبعض الجلباب على بعض الوجه وهو الجبين كما في القول الثاني ولا تكون حينئذ معارضة لآية الابداء .

وحملها على ما لا تكون به معارضة بين الآيتين ــ وهو الوجه الثاني ــ أرجح وأولى إن لم يكن متعينا .

ثم ان قوله تعالى : « ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ » يفيد أن علة طلب الادناء هي تمييزهن عن الاماء اللاتي كن يمشين حاسرات أو بقناع مفرد فيتعرضن لهن أهل الشطارة والسفهاء . وفي الادناء على الوجه الثاني في الآية تحصيل لهذا المقصود من التمييز ، فحملها عليه مناسب للعلة وسالم من المعارضة فهو المختار .

وبهذا التقرير تكون كل آية مفيدة معنى غير الذي أفادته الأخرى ، فآية الابداء أفادت طلب ستر الأعضاء الا الوجه والكفين ، وآية الادناء أفادت طلب الستر الأعلى الذي يحيط بالثياب ويعم الرأس وما والاه من الوجه وهو الجبين وينضم على البدن ، ليحصل به تمييز الحرائر بالمبالغة في التستر والاحتشام . وهذا هو المناسب لجوامع كلم القرآن والله أعلم [1] .

(١) ج ٣ ، م ٥ ، ص ١٩ ــ ٢١
غرة ذي القعدة ١٣٤٧ هـ ــ افريل ١٩٢٩

كلمة المحتفل بــه

ختم الاستاذ عبد الحميد بن باديس حفلة تكريمه بكلمة بليغة شكر بها الوفود الحاضرة ، وعاد بهم الى الماضي فوزع معاني التمجيد والتكريم التي تجلت عنها الحفلة ــ على الاصول التي كونته . فكانت كلمته درسا في التواضع وعرفان الجميل عرف منه الحاضرون ناحية نفسية من أخلاق الاستاذ المحتفل به . وقد حافظنا ما استطعنا على معاني تلك الكلمة اذ فاتنا أن ننقل ألفاظها ، قال حفظه الله(١) :

أيها الأخوان :

أنتم ضيوف القرآن . وهــذا اليوم يوم القرآن . وما أنا إلا خــادم القرآن .

فاجتماعكم على تنائي الديار وتباعد الأقطار هو في نفسه تنويه بفضل القرآن ودعوة جهيرة الى القرآن في وقت نحن أحوج ما نكون الى دعوة المسلمين الى قرآنهم . فهل علمتم أنكم باحتفالكم هذا قمتم بواجبات أهونها ما سميتموه احتفالا بشخصي .

إن أقوال خطبائكم وشعرائكم كلها في الحقيقة اشادة بيوم القرآن ووفود القرآن وكل ما لي من فضل في هذا فهو أنني كنت السبب فيه .

أيها الاخوان .

أنا رجل أشعر بكل ما له أثر في حياتي . وبكل من له يد في

(١) كلمة القاها الاستاذ الامام ابن باديس بمناسبة الاحتفال بختم القرآن .

الشيخ عبد الحميد يلقي كلمة شكر للمحتفين به بمناسبة ختم القرآن

صورة تمثل تقديم الهدايا لفضيلة الاستاذ عبد الحميد
بمناسبة الاحتفال بختم القرآن

تكويني • وان الانصاف الذي هو خير ما ربى عليه امرؤ نفسه ــ ليدعوني أن أذكر في هذا الموقف التاريخي العظيم بالتمجيد والتكريم كل العناصر التي كان لها الأثر في تكويني حتى تأخذ حظها مستوفى من كل ما أفرغتم على شخصي الضعيف من ثنـــاء ومدح بالقول والفعل • فاني أشهد الله أنكم بالغتم في التحفي بي والتنويه باعمالي ، وأشهد أن هذا التحفي عسير عليّ جزاؤه ثقيل علي حمله ، فلعلي إذا ذكرت هذه العناصر ووفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل توزعت حصصها من التنويه وتقاضت حقوقها من الثناء الذي أثقلتم به كاهلي • فأكون بذلك قد أرضيت ضميري وخففت عن نفسي •

ان الفضل يرجع أولاً الى والدي الذي ربّاني تربية صالحــة ووجهني وجهة صالحة • ورضي لي العلم طريقة اتبعها ومشربا أرده وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا • وكفاني كلف الحياة فلأشكرنه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر • ولأكل ما عجزت عنه من ذلك لله الذي لا يضيع جزاء العاملين •

ثم لمشائخي الذي علموني العلم وخطوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يبخسوا استعدادي حقه ، وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العملية ، وهما من مشائخي اللذان تجاوزا بي حد التعليم المعهود من أمثالهما لأمثالي ــ الى التربية والتثقيف والأخذ باليد الى الغايات المثلى في الحياة • أحد الرجلين الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني نزيل المدينة المنورة ودفينها ، وثانيهما الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور رحمهما الله •

واني لأذكر للأول وصية أوصاني بها وعهداً عهد بي اليّ وأذكر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مدينا لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر ، فقد أوصاني وشدّد عليّ أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت •

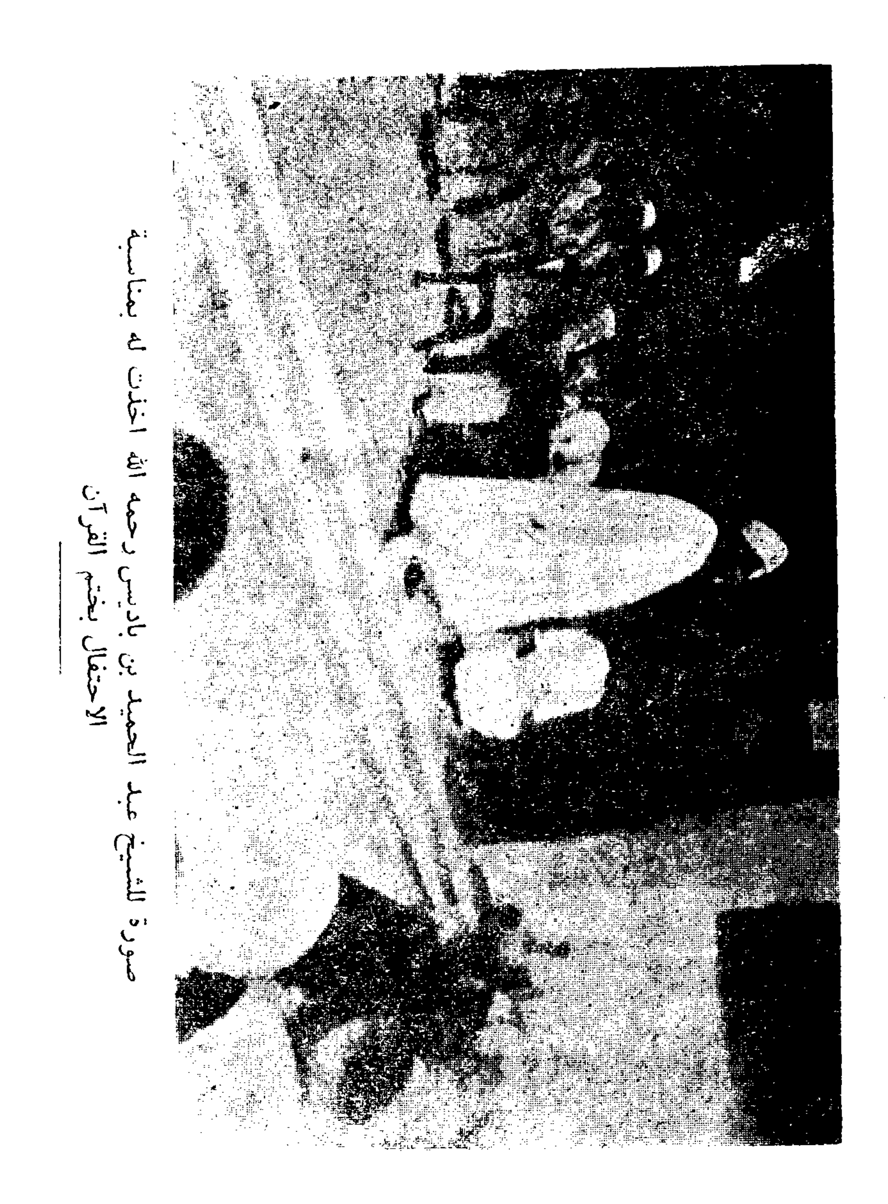

صورة للشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله اخذت له بمناسبة
الاحتفال بختم القرآن

وأذكر للثاني كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العلمية عن أثر تلك الوصية في ناحيتي العملية وذلك انني كنت متبرماً بأساليب المفسرين وادخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله ، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن ، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله • فذاكرت يوما الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال لي : اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهـذه الآراء المضطربة يسقط الساقـط ويبقى الصحيح وتستريح •

فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقاً واسعة لا عهد له بها •

ثم لأخواني العلماء الأفاضل الذين وازوني في العمل من فجر النهضة الى الآن ، فمن حظ الجزائر السعيد ومن مفاخرها التي تتيه بها على الأقطار انه لم يجتمع في بلدٍ من بلدان الاسلام فيما رأينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العلماء وافرة الحظ من العلم مؤتلفة القصد والاتجاه مخلصة النية متينة العزائم متحابة في الحق مجتمعة القلوب على الاسلام والعربية قد ألف بينها العلم والعمل ــ مثل ما اجتمع للجزائر في علمائها الابرار فهؤلاء هم الذين ورى بهم زنادي وتأثل بطارفهم تلادي ، أطال الله أعمارهم ورفع أقدارهم ، ثم لهذه الأمة الكريمة المعوانة على الخير المنطوية على أصول الكمال ذات النسب العريق في الفضائل والحسب الطويل العريض في المحـامد •

هذه الأمة التي ما عملت يوما ــ علم الله ــ لارضائها لذاتها • وانما عملت وما أزال اعمل لارضاء الله بخدْمة دينها ولغتها ولكن الله سددها في الفهم وأرشدها الى صواب الرأي فتبينت قصدي على وجهه وأعمالي على حقيقتها فأعانت ونشطت بأقوالها وأموالها وبفلـذات

صورة اخذت بمناسبة ختم القرآن في قاعة كلية الشعب بقسنطينة يوم الاثنين ١٤ ربيع الثاني ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م

أكبادها • فكان لها بذلك كله من الفضل في تكويني العلمي أضعاف ما كان لتلك العناصر في تكويني العلمي •

ثم الفضل أولاً وأخيراً لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه والتفقه في أسراره والتأدب بآدابه • وان القرآن الذي كوّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكوّن رجالاً في الخلف لو احسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه •

أيها الاخوان •

إذا لم يكن لي في حياتي العلمية من لافت للقرآن الا تلك الكلمة التي سمعتها من الشيخ النخلي ، وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي الى الدرجة التي تحمدونها اليوم فاننا — والحمد لله — نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم الى القرآن في كل يوم وغايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها • وان أعز ما وصلنا اليه هو تبين الغاية وتلاقي الجهود وفقنا الله واياكم للاعمال الصالحة ورزقنا الاخلاص فيها والثبات عليها انه سميع مجيب[1] •

كلمة الاستاذ الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس[2]

أيها الاخوان :

الاسلام دين الحياة والعلم والفن ، والحياة قوة وايمان وجمال ،

---

(١) ش : جـ ٤ ، م ١٤ ، ص ٢٨٨ — ٢٩١
غرة جمادى الثانية وربيع الثاني ١٣٥٧ — جوان وجويلية ١٩٣٨

(٢) كلمات قالها بمناسبة احتفال ختم تفسير القرآن ايضا .

اخذت هذه الصورة بمناسبة الاحتفال بختم الشيخ عبد الحميد لتفسير القرآن يوم الاحـد ١٣ ربيع الثاني ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م في الجامع الأخضر بقسنطينة ، وقد وقع احتفـال الختم في كليـة الشعب

والعلم يمثل القوة ، والفن يمثل الجمال وبهذا تحتفل بكم ــ ياضيوف القرآن ــ جمعيات قسنطينة الحيوية التي تمثل القوة والايمان والجمال.

أيها الاخوان :

إذا كنت استمد القوة والحياة فانما استمدهما ممن أولوني شرف الثقة والاخلاص لديني ولأمتي وأخص منهم الأسود الكبار ، وهم اخواني الأقوياء من رجال العلم الذين اجدني مهما وقفت موقفا الا وجدتهم معي كالاسود . وأما الاشبال الصغار فهؤلاء الأبناء الذين تشاهدونهم يحتفلون بكم الليلة . ولقد جاءت قسنطينة تحييكم بكبارها وصغارها . فذكراكم يا ضيوف القرآن خالدة وهي منقوشة في قلبي لا تفنى ولا تنمحي .

انني أعاهدكم على أنني أقضي بياضي على العربية والاسلام كما قضيت سوادي عليهما ، وأنها لواجبات ... وإنّي سأقصر حياتي على الاسلام والقرآن ولغة الاسلام والقرآن ، هذا عهدي لكم .

وأطلب منكم شيئا واحداً وهو أن تموتوا على الاسلام والقرآن ولغة الاسلام والقرآن .

انا زارع محبة ، ولكن على أساس من العدل والانصاف والاحترام مع كل أحد من أي جنس كان ومن أي دين كان ، من كل جنس من كل دين .

فاعملوا للأخوة ولكن مع كل من يعمل للأخوة فبذلك تكون الأخوة صادقة (١) .

---

(٢) ش : ج ٧ ، م ١٥ ، ص ٣٤٦
غرة رجب ١٣٥٨ هـ ــ اوت ١٩٣٩ م .

آثار ابن باديس

قسم الحديث

الفن الأدبي في الحديث النبوي

كان للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حادٍ يقال له انجشه وكان حسن الصوت ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في مسير له فحدا الحادي ، وكان يحدو بهن ، فقال له النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ويحك يا انجشه رويدك سوقك بالقوارير » . قال أبو قلابة : فتكلم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بكلمة لو تكلم بها بعضكم لعبتموها عليه قوله : « سوقك بالقوارير » رواه البخاري في باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه وفي باب المعاريض وغيرهما من طريق أبي قلابة وثابت البناني وقتادة ثلاثتهم عن أنس ـ رضي الله تعالى عنهم ـ وسقناه من مجموع ألفاظهم .

الاشخاص :

انجشة غلام حبشي كان يحدو في السفر بالنساء كما كان البراء بن مالك يحدو بالرجال . أبو قلابة : امام شهير من فقهاء التابعين نزل الشام ومات بها .

المفردات :

الحدو والحَداء : سوق الابل والغناء لها لتنشط وتسرع في السير . ويح : كلمة تقال لمن وقع في بلية أو توقعت له رحمة له ، بخلاف ويل فانها تقال لمن وقع في عذاب أو توقع له وهو يستحقه ولا يرحم فيه . وانجشة : هنا شارف أن يقع في بلية كسر القوارير فخوطب خطاب رحمة من الوقوع في ذلك . رويدك : مصدر مصغر

بمعنى امهال القوارير ، جمع قارورة ، وهي الزجاجة سميت بذلك لاستقرار الشراب فيها • القوارير : النساء •

التراكيب :

ويحك : منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف لم يستعمل ، وتقدير الكلام : هلكت هلاكك الذي تستحق عليه الرحمة • رويدك مثله وتقديره أمهل امهالك • ونصب سوقك على التوسع باسقاط الخافض أي في سوقك ، ولما كان يدعوه الى الرفق اقتضى الحال أن يعبر عن المطلوب الرفق به ، وهن النساء بالقوارير على طريق الاستعارة التصريحية حيث شبهن بها بجامع الرقة واللطف والضعف ، وحذف لفظ المشبه وذكر لفظ المشبه به • فكانت اللفظة المجازية بالغة غاية البيان عن حالة النساء وكان التركيب بها بالغا غاية البلاغة باشتماله على ما اقتضاه حال الدعاء الى الرفق مما صورهن بصورة تدعو الى الرفق وتستوجبه •

المعنى :

لما غنى انجشة للابل وعلى ظهورها النساء نشطت واعنقت في السير فاتعبتهن فاشفق النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — عليهن فأمر انجشة بالرفق بهن لانهن ضعيفات عن تحمل شدة الاضطراب فوق ظهور الإبل المسرعة •

الفن :

ادراك صفات الشيء على ما هي عليه من حسن وقبح ادراكا صحيحا ، والشعور بها كذلك شعورا صادقا والتصوير لها تصويرا مطابقا ، بالتعبير عنها بعبارات بليغة في الابانة والمطابقة للحال ذلك هو الفن الادبي ، والنفوس تميل الى الحسن وتنشرح له وتنفر من

القبيح وتنقبض عنه ، ولذا كان أكثر الفن الأدبي في تصوير الحسن وعرضه على الناس ليشاركوا الفنان في ادراك ذلك الحسن والشعور به والتذوق للذة ذلك الادراك والشعور • وفي ذلك تربية لملكة الذوق الحسن في النفوس • وان النفوس لفي أشد الحاجة الى تلك الملكة لتنعم بصور هذا الكون العظيم وما فيها من حسن فتقاوم بذلك ماتعانيه من متاعب الحياة وأوصابها وتدفع بلذة ذلك الشعور بالحسن ما تجده من آلامها ، واذا رجعت الى القرآن العظيم فانك تجد العدد العديد من آياته الكريمة يعرض علينا أنواعا من مخلوقات الله تعالى في صورها الحسنة الجذابة واقرأ في ذلك — مثلا — سورة الرحمن فانك واجد ما قلناه • وكذلك في الأحاديث النبوية عدد كثير من مثل ذلك ، ومنها هذا الحديث الشريف الذي بين أيدينا ، فقد صور النساء في صورة حسنة جذابة بما في القوارير من بياض ولمعان ودقة ولطف مع التصوير لحقيقة حالهن في الضعف الخلقي وفي الضعف القلبي وسرعة انكسار قلوبهن وعسر انجبارها ، فكانت هذه العبارة آية من آيات الفن الادبي ، التي تدخل على النفوس بهجة وانشراحا وتثير فيها حاسة الذوق للحسن والجمال • وقد القى كعب بن زهير قصيدته المشهورة في حضرة النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — فوصف المرأة والماء الذي مزجت به الخمرة والناقة وصورها تصويرا فنيا ولم ينكر عليها[1] لانه لم يكن يصف شخصا معينا يؤدي وصفه الى اثارة الشهوة البهيمية نحوه وانما كان يعرض صورا من محاسن تلك الأشياء التي تلذ للنفوس البشرية صورها الجمالية وتنمي فيها قوة الشعور والذوق •

الرد على المتشددين :

علم أبو قلابة — رضي الله تعالى عنه — تشددا وتنطعا مما كان

(١) كذا في الاصل وصوابه : عليه .

حدثهم بهذا الحديث يحملانهم على الامتناع من الكلمات التي فيها بعض وصف النساء فرد عليهم بتكلم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بهذا [1] الكلمة التي لو تكلم بها أحدهم لعابوها عليه وبين لهم أن لا عيب فيها وفي مثلها مما لا فحش في لفظه ولا قبح في معناه ولا غاية سوء من ذكره •

فقه :

في الحديث سماع النساء لصوت الحادي وفيه للعناية بهن في السفر والرفق بهن فيه • وفيه التنبيه على المحافظة على قلوبهن وعواطفهن ليدوم ودّهن وسلامتهن ، ويدوم الهناء معهن والاستمتاع بهن لأنهن ضعيفات القلوب رقيقات العواطف شديدات الاحسان [2] يصبرن على كل شيء من الرجل الا على كسر قلوبهن ومس عواطفهن ، فهذا الحديث الشريف من الأحاديث الكثيرة التي جاءت في الوصاية بالنساء والمحافظة عليهن ومراعاة جانبهن ، ويمتاز هذا الحديث بما فيه من ذكر السبب الذي يوجب ذلك ويقتضيه ، على أبين تصوير وأبلغه فليكن دائما على بالنا ، في معاملتنا للنساء وحياتنا معهن والله المستعان[3] •

(١) كذا في الاصل وصوابه : بهذه .

(٢) كذا في الاصل والصواب : الاحساس .

(٣) ش : ج ٢ ، م ٨ ص ٧٥ ـ ٧٩
غرة شوال ١٣٥٠ هـ ـ فيفري ١٩٣٢ م .

الراعي الغاش لرعيته

« عاد عبيد الله بن زياد معقل بن يسار المزني في مرضه الذي مات فيه ، فقال معقل : اني محدثك حديثاً سمعته من رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لو علمت ان لي حياة ما حدثتك به • إني سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول : ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت، وهو غاش لرعيته، الا حرم الله عليه الجنة» •

(رواه مسلم)

الصحابي الجليل والامير الظـالم :

معقل بن يسار (رضي الله عنه) :

أسلم قبل الحديبية وشهد بيعة الرضوان • سكن البصرة وبها مات في خلافة معاوية ــ رضي الله عنه ــ وحفر نهرا بالبصرة بأمر عمر ــ رضي الله عنه ــ واليه ينسب ، وفيه جاء المثل : (اذا جاء نهر الله بطل نهر معقل)•

عبيد الله بن زيـاد :

أبوه زياد بن سمية ، ألحقه معاوية بابي سفيان فنسب اليه • ولَّى (عبيدَ الله) معاويةُ البصرة وأقره عليها يزيد • وعبيد الله هذا هو الذي جهز الجيوش لقتال الحسين بن علي ــ رضي الله عنهما ــ وهو ألزمهم بقتاله ــ قتله الله ــ وقد قتله ابراهيم بن الأشعث بعد ، وخبره مذكور ومعروف •

ترك الموعظة خوف المفسدة :

كان معقل بن يسار يرى من ظلم عبيد الله بن زياد وغشه للرعية

ولم يستطع ان يواجهه بما في هذا الحديث من الموعظة خوف أن يبطش به فتثور من أجل قتله أو اذايته ثائرة بالبصرة تؤدي الى سفك دماء المسلمين دون ان تكف ابن زياد عن ظلمه فاتقاء لهذا لم يواجهه بالموعظة حتى جاء عبيد الله لعيادته وقد علم معقل انه في مرض موته فاغتنم الفرصة وجابهه بالموعظة لما خلصت للمصلحة وأمن المفسدة •

ما الراعي وما الرعية :

الرعاية : حفظ الشيء وتفقد أحواله واعطاؤه ما يحتاج اليه وصرفه عما يؤذيه وما لا فائدة له فيه ووقايته مما يعدو عليه ، وكل من جعل الله تحت يده شيئا من مخلوقاته فقد استرعاه ذلك الشيء أي : جعله في رعايته وطالبه وكلفه بان يرعاه ، فصار مسؤولا عنه عند الله ، وما من بالغ عاقل ذكرا أو انثى الا وقد جعل الله شيئا في رعايته ولو لم يكن من ذلك الا نفسه وعقله وبدنه ، وأعظم بهما من شيء تجب رعايته • وهذا معنى التعميم في الحديث •

الواجب على الراعي في رعيته :

يجب على كل راع — بالتعميم المتقدم المستفاد من الحديث السابق — أن ينصح لما استرعاه الله من رعية في القول والعمل وان لا يدخر شيئا من جهده في حفظه وتفقد أحواله ، واعطائه ما يحتاج اليه ، وصرفه عما يؤذيه وما لا فائدة له فيه ، ووقايته من كل ما يعدو عليه ، وان يستصفي له من الآراء والأعمال والأقوال أبلغ ما يقدر عليه ، فاذا قصر في شيء من هذا فقد غش رعيته بما يدخله عليها من الضرر في ولايته عليها وارتكب بذلك الكبيرة التي توعد عليها بالنار •

توجيـه :

لما كانت أعظم الرعايات رعاية أمر العامة بالامرة والولاية حدث

معقل بن يسار بهذا الحديث عبيد الله بن زياد لأنه كان أميرا لمصر عظيم ، فيكون من أول من يشمله عموم لفظ : (ما من أحد) • وهذا هو وجه تخريج مسلم لهذا الحديث في كتاب الامارة • واما اللفظ فهو على عمومه •

الوعيد ـ معناه وشرطه وعمومه :

توعد الله على لسان نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الراعي الغاش بتحريم الجنة عليه • والتحريم هو المنع ويكون موقتا موقوتا ويكون مؤبدا ، فان مات الغاش مستحلا للغش أو عوقب على اصراره بسوء الخاتمة ـ عياذا بالله ـ فتحريمها عليه مؤبد ، وان مات مسلما مصرا فتحريمها عليه موقت ، يدخل النار بغشه ثم يخرج منها بما في قلبه من ايمان « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » • وهذا المعنى ـ على تفصيله ـ عام بحسب صريح لفظه لكل راع غاش واقتضى قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في الحديث: (يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته) ان هذا الوعيد فيمن مات مصراً ولم يتب ، فاما من تاب ولم يمت يوم مات على غشه فليس داخلا في هذا الوعيد • نعم ينجو التائب من عقوبة الغش بتوبته ولكنه تبقى عليه تبعات العباد وما ألحق بهم من ضرر وهي حقوق أخرى جنى عليها زيادة على أصل الغش • فلهما عقوباتها والقصاص عليها •

تطبيق :

كل من تولى أمراً من أمور الأمة فهو من رعاتها المسؤولين عنها المتوعدين بهذا الوعيد الشديد اذا غشوها على أي وجه كانت تلك الولاية من الوجوه التي تختلف باختلاف الامم وأوضاعها ومما هو من أعظم الولاية على الامة اليوم بحسب وضعها ، النيابة عنها والتكلم بلسانها من أدنى درجات تلك النيابة الى أعلاها • فليعلم هذا من

يتقدم لهذه الولاية وليراقب الله فيها ، كما على كل راع أن يعلم هذا الوعيد ويحذر ان يقتحمه .

نسأل الله لنا وللمسلمين ان يوفقنا الى القيام باحسن الرعاية في كل ما استرعانا من انفسنا وغير أنفسنا [1] .

(١) ش : ج ٤ ، م ١١ ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦
ربيع الثاني ١٣٥٤ هـ ـ جويلية ١٩٣٥ م .

اتحاد المؤمنين وتعاونهم

(المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضا) • ثم شبك بين أصابعه • رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري ، ومسلم عنه أيضا الى قوله بعضا •

المفردات :

المؤمن ، (ال) في اللفظين جنسية استغراقية ، فالمراد جميع الأفراد • (للمؤمنين) : اللام لام الاختصاص • و (يشد) : يقوي بعضه بعضا بالتضام والالتحام • (شبك) : أدخل أصابع اليمنى بين أصابع اليسرى وأصابع اليسرى بين أصابع اليمنى •

التراكيب :

الجملة الأولى خبرية لفظا طلبية معنى ، أي ليكن المؤمن للمؤمن كالبنيان ، وجيء بالطلب على صورة الخبر تنبيها على أن هذا المطلوب هو الشأن الذي لا ينبغي أن يكون سواه ، فهو بحيث يخبر عنه لا أن يطلب • والجملة الثانية استئنافية لبيان وجه التشبيه •

المعنى :

الواجب على كل فرد من أفراد المؤمنين أن يكون لكل فرد من أفراد المؤمنين كالبنيان في التضام والالتحام ، حتى يكون منهم جسد واحد كما قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الآخر (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) •

زيـادة بيان :

لقد قرر الحديث الشريف معنى الاتحاد الذي يجب أن يكون بين جميع أفراد المؤمنين على أكمل وجه في التصوير وأبلغه في التأثير ، فقد شبههم بالبنيان وذلك وحده كاف في افادة الاتحاد ، وزاد عليه التصريح بالشد والتقوية ليبين أن في ذلك الاتحاد القوة للجميع تأكيدا للزوم الاتحاد بذكر فائدته ، ثم زاد عليه التصوير بالمحسوس لما شبك صلى الله عليه وآله وسلم بين أصابعه ، هذا كله ليبين للمؤمنين لزوم الاتحاد وضرورته •

تبصر :

ألا ترى البنيان كيف يتركب من الحجارة الكبيرة والحجارة الصغيرة والمواد الأخرى التي تلحم بها الحجارة وتكسى ، وكل ذلك محتاج اليه في تشييد البنيان ، فكذلك بنيان المؤمنين فانه متكون من جميع أفرادهم على اختلاف طبقاتهم ، فالكبير والجليل له مكانه ، والصغير والحقير له مكانه ، وعلى كل حال أن يسد الثغرة التي من ناحيته مع شعوره بارتباطه مع غيره من جميع أجزاء البنيان التي لا غناء لها عنه كما لا غناء له عن كل واحد منها ، فكل واحد من المؤمنين عليه تبعته بمقدار المركز الذي هو فيه والقدرة التي عنده ، ولا يجوز لأحد وان كان أحقر حقير أن يخل بواجبه من ناحيته ، فانه اذا أزيل حجر صغير من بنيان كبير دخل فيه الخلل بمقدار ما أزيل ، واذا ابتدأ الخلل من الصغير تطرق للكبير • ثم ألا ترى أصابعك وفيها القوي وفيها الضعيف حتى اذا شبكتها صارت كشيء واحد له قوة ومتانة زائدة ، وكل أصبع منها يمكن أن يلوى ما دام وحده ، فاذا شبكتها عسر ليها وقوي أمرها ، فكذلك المؤمنين باتحادهم — وفيهم القوي وفيهم الضعيف — تكون لهم قوة عامة زائدة ، وكل واحد منهم بمفرده يمكن قهره ، فاما اذا اتحدوا فانهم يكونون بقوة اتحادهم في مأمن من كل قهر •

تفقـه :

لما قال صلى الله عليه وآله وسلم (المؤمن للمؤمن •• الخ) علق الحكم على الوصف فاقتضى ذلك أن هذا هو واجب كل مؤمن من حيث انه مؤمن مع كل مؤمن من حيث انه مؤمن ، فيجب لهذا أن تطرح في مقام الاتحاد والتعاون جميع المفرقات من المذاهب والمشارب وينظر الى وصف الايمان فقط ، فهذه المذاهب وهذه المشارب أهلها كلهم أهل ايمان لا يدفع بعضهم بعضا عن ذلك ، والنبي — صلى الله عليه وآله وسلم — قد أمرهم بالاتحاد والتعاون باعتبار الوصف الأصلي الذين هم مشتركون فيه ليكون الاتحاد والتعاون في مكنتهم دون التفات الى ما أحدثوه من مفرقاتهم • فمن تعامى عن وصف الايمان الموجب للاتحاد ونظر الى مذهب أو مشرب من موجبات الافتراق فقد عصى أبا القاسم — صلى الله عليه وآله وسلم — وحاد الله ورسوله وأعرض عن دعوة الحق وأجاب داعي الشيطان •

سـلوك :

علينا أن نعتقد بقلوبنا أن الاتحاد واجب أكيد محتم علينا مع جميع المؤمنين ، وأن فيه قوتنا وحياتنا وفي تركه ضعفنا وموتنا • وأن نعلن ذلك بألسنتنا في كل مناسبة من أحاديثنا • وأن نعمل على تحقيق ذلك بالفعل باتحادنا وتعاوننا مع اخواننا في كل ما يقتضيه وصف الايمان الجامع العام والله المستعان وعليه التكلان[1] •

●

(١) ش : ج ٧ ، م ٧ ، ص ٤٢٩ — ٤٣١
ربيع الاول ١٣٥٠ هـ — جويلية ١٩٣١ م .

دعوى الجاهلية او الكلمة المنتنة

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : (كنا مع النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — في غزاة فَكَسَعَ رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال الانصاري : ياللأنصار ، وقال المهاجري: ياللمهاجرين، فقال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ » قالوا : يا رسول الله ، كسع رجل من المهاجرين رجلا من الانصار فقال : « دعوها فانها منتنة » السند رواه الشيخان وغيرهما •

الالفـاظ :

كسعه : ضرب دبره بيده أو صدر قدمه • رجل ••• رجلا : كان الرجلان من الموالي • يا للانصار ، يا للمهاجرين : استغاثة من كل بقومه ومواليه لينصروه على الآخر • دعوى الجاهلية : الدعاء الذي كان يدعو به أهل الجاهلية بنعرة العصبية لاثارة الحمية ، يدعو الرجل قومه لينصروه ولو على الباطل • دعوها : اتركوها • منتنة : مكروهة في العقل والدين ككراهة الشيء المنتن في الشم ومفرقة للجمع كما يفرق النتن المجتمعين •

المعنى :

كان الرجل في الجاهلية — اذا نزل له أمر — استنصر بقبيلته وتعضد بهم ودعاهم الى معونته ونصرته ، بما بينه وبينهم من عصبية قبلية فتثور حميتهم فيندفعون الى مؤازرته فيؤيدونه ظالما أو مظلوما ، فاذا كان ظالما زادوا في ظلمه واذا كان مظلوما لم ينتهوا عند حد في الانتقام له من ظالمه ، فلما جاء الاسلام أبطل الانتصار بالعصبية ،

والتعضد على الانتقام بالقبيلة . وجعل الحكم بالقضاء الشرعي والتوصل اليه بالبينات والحكام . فلو أن ذلك المكسوع كان ممن تأدب بالاسلام وتغلغلت روح الاسلام في قلبه لكان دعا بدعوى الاسلام فقال : يامسلمون قد ضربني هذا . وأقام عليه البينة وساقه الى النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — ليقتص له منه ، ولما لم يكن كذلك وكانت الروح الجاهلية لا تزال منها عقابيل في صدره دعا بدعوى الجاهلية ، وكان صاحبه مثله فقابله بمثلها ، فلما سمع النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — ذلك منهما سأل عن السبب الذي أثار تلك الدعوى فلما عرّفوه بسببها نهى عنها وحذر منها فأبرزها في أقوى صورة تنفر منها ابرازا للمعقول في صورة المحسوس لأنه أبلغ في التأثير على السامع فوصفها بأنها منتنة .

الدعويان وأثرهما :

دعوى الجاهلية — يا بني عمي ، أو يا قومي ، أو يا أهل بلدي ، أو يا أهل وطني — انتقموا لي . فاذا دعا بها وقعت التفرقة بين عشيرة وعشيرة أو بين قوم وقوم ، أو بين بلد وبلد ، أو بين وطن ووطن ، وأثارت الحمية في كل واحدة من الناحيتين على الأخرى ودفعت الى الاسراف والتعدي فأوسعت الظلم والشر وأبقت الاحن والاحقاد والترّات مما يسترسل معه الظلم والفساد في المستقبل . أما دعوى الاسلام فهي: يا عباد الله ، أو يا مسلمون ، اني ظُلمت فانقذوني اشهدوا لي . فاذا دعا بها كانت جامعة لا تفريق فيها ، وأهابت بالسامعين كلهم كذاتٍ واحدةٍ كلهم ينصرون الحق فيكفوا الظلم ان كان واقعا على المظلوم في الحال ويشهدون بالظلم عند الحاكم ليجري العدل مجراه . فأين تلك الآثار من هذه الآثار ؟ ولقد ظهرت آثار الأولى في الأمة العربية في جاهليتها ، وظهرت الثانية فيها بعد إسلامها فأرى الله العباد — عيانا

جهرة ـــ اختلاف الأثرين في أمة واحدة في زمن قريب وأقام عليهم حجته • ولكن أكثر الناس لا يعلمون •

تفرقـة وتمييز :

كل من سعى الى تحصيل شيء مستعينا بذوي عصبية له لنسبة جنس أو قبيلة أو بلد أو حرفة أو فكرة غير ناظر الى انه على حق أو على باطل ، فقد دعا دعوى الجاهلية ، وكل من أجابه فقد شاركه في دعواه • أما من عرف الحق وتيقن من نفسه الصدق في طلبه واستعان على تحصيله بمن تربطهم به روابط خاصة ولا يأبى أن يعينه عليه من لم يكن من جماعته ، لأن قصده الى تحصيل الحق باعانة أي كان ، فهذا لا يكون دعا دعوى الجاهلية بل دعا دعوى اسلامية لانها لم تخرج عن التعاون على الحق وهو من التعاون على البر والتقوى •

استـدلال :

ثبت في صحيح مسلم في غزوة حنين ان رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ قال : (أبا عباس ناد أصحاب السمُرة) فنادى بأعلى صوته : أين أصحاب السمرة ؟ وكانت الدعوة : يا معشر الانصار يا معشر الانصار ثم قـُصِرَت على بني الحرث بن الخزرج فصارت يا بني الحرث بن الخزرج يا بني الحرث بن الخزرج • فكانت الدعوة ـــ في ذلك اليوم الشديد ـــ لمن جمعتهم بيعة الرضوان ، وهم أهل السمرة ثم لمن جمعهم اسم الانصار ثم لمن جمعهم اسم أب • وكان ذلك كله حقا لأنه دعوة الى الحق •

تحـذير وارشـاد :

ليحذر المسلم من كل كلمة مفرقة من كل ما يثير عصبية للبـاطل وحمية جاهلية ، يدعو بها ولا يجيب من دعا اليها • فان بلاء كثـيراً حل بنا وفتنة كثيرة أصابتنا من تلك الكلمات المفرقة •

ولتكن دعوته – اذا دعا – بالكلمات الجامعة التي تشعر بالاخوة العامة وتبعث على القيام بالواجب بايد متشابكة وقلوب متحدة . حتى اذا دعا جماعة خاصة يعلم منه نفعا خاصا في مكان خاص ، فليكن بما يفهمهم انه الى الحق دعاهم وعلى القيام به استعان بهم دون ابابة من انضمام كل من ينضم اليهم ، فانه ما توجه قوم الى نصرة الله – ورضا الله قصدهم – الا كان الله معهم : (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز)[1] .

(١) ش : جـ ٢ ، م ١٣ ، ص ٧٧ – ٨٠ .
صفر ١٣٥٦ هـ – افريل ١٩٣٧ م .

تكثـير السواد ..!

« من كثّر سـواد قـوم فهو منهـم »

عن أبي الأسود قال : « قُطِعَ على أهل المدينة بعثٌ فاكتُتِبْتُ فيه فلقيت عِكْرِمَةَ فأخبرته فنهاني أشد النهي » . ثم قال : أخبرني ابن عباس أَن أناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — فيأتي السهم فيرمى فيصيب أحدهم فيقتله أو يضربـه فيقتله فأنزل الله تعـالى : « إنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أنْفُسِهِم » رواه البخاري في كتاب الفتن .

الالفـاظ :

سواد القوم : أشخاصهم . قطع عليهم : بعث ، فرض عليهم جيش يبعث للقتال . اكتتبت : كتب اسمه في جملة الجيش .

المعنى :

كان عبد الله بن الزبير قائما بمكة ، وكان عبد الملك بن مروان ، بالشام ، والفتنة مشتعلة بين المسلمين ، بسبب النزاع ما بينهما . فكان عبد الله بن الزبير يبعث البعوث من الحجاز الى قتال عبد الملك بالشام ففرض على أهل المدينة جيشا ، فكتب فيه أبو الاسود محمد ابن عبد الرحمن الأسدي اسمه ليكون من جملته . ثم لقي عكرمة مولى ابن عباس ، فذكر ذلك له ، فنهاه عكرمة عن أن يكون [1] في

---

(١) في الاصل : ايكون .

ذلك الجيش ، وأخبره عن ابن عباس ، بما كان من سبب نزول قول الله تعالى : « إنَّ الَّذِينَ تَوفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أنْفُسِهِم » وهو أن قوما من المسلمين كان المشركون يخرجونهم معهم لا ليقاتلوا المسلمين ، وانما ليكثروا سواد المشركين ، ويظهروا عظيم جيشهم ، وكثرة عددهم في أعين المسلمين • فكانوا يقتلون بما يصيبهم من رمي السهام وضرب السيوف ، فواخذهم الله لمجرد تكثيرهم سواد المشركين ، وان لم يشاركوهم في القتال ، ولا حضروه طائعين ، وانزل الآية الكريمة فيهم •

المطابقة :

ذكر عكرمة هذا لأبي الاسود لأنه أفاد حكم الله فيمن كثر سواد المقاتلين للمسلمين دون أن يقاتل ، أو يكون راضيا أو طائعا بالحضور • فكيف بمن اكتتب للقتال مثل أبي الاسود ؟ ولا فرق في المؤاخذة في قتال المسلمين بين أن يكون مع المشركين ، أو مع المسلمين في الفتنة •

الاحكام :

من حضر مع قوم وكثر جمعهم فهو منهم وشريك لهم في عملهم ، سواء أكان خيراً أم شرا ، كما يفيده الحديث الذي جعلناه ترجمة • وهو في مسند أبي يعلي • فأما في الشر فالنص فيه حديث ابن عباس هذا ، وأما في الخير فحديث ابي هريرة في الصحيح ، في القوم الذين يجتمعون فيسبحون الله ويكبرونه ويهللونه ويحمدونه ويسألونه ، ويستجيرونه ويستخبرونه ويستغفرونه فيقول الله للملائكة عليهم السلام، قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا ، فتقول الملائكة : ربِّ ، فيهم فلان عبد أخطأ، انما مر فجلس معهم فيقول تعالى: « وله غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » •

الاهتــداء :

فحق على المسلم ان يختار من يصاحب من رفقة ، أو يجالس من جماعة ، أو يكثر من سواد قوم فانه محاسب على أعماله ، ومن أعماله مجرد حضور بدنه .

جنبنا الله الفتن ودعاتها ، والمظالم وأهلها ، وكثر بنا سواد المؤمنين وحشرنا في زمرة الصالحين آمين (١) .

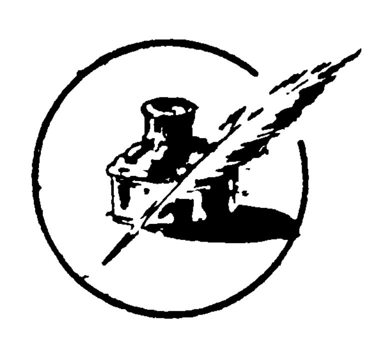

(١) ش : ج ٤ ، م ١٥ ، ص ١٦٦ ــ ١٦٨
غرة ربيع الثاني ١٣٥٨ هـ ــ ماي ١٩٣٩ م .

من رغب عن سنتي فليس مني

السنة :

قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « اذا سمعت الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم » .

السند :

رواه مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة . ومسلم يحيى عن ابن يحيى عن مالك .

المتن

روي بوجهين ثابتين : الأول فهو أهلكُهم برفع الكاف ، اسم تفضيل ، والثاني بفتح الكاف فعل ماض .

الالفـاظ :

الهلاك : الاستحالة الى الفساد وذهاب حالة الصحة والاستقامة التي تصدر عنها الفوائد ، ويكون بها الاستعداد ، يقال هلك زيد اذا مات ، وهلك الطعام اذا تغير واستحال . فهلاك الناس فسادهم فـي أحوالهم بفساد عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم ، وذلك عنوان ذهابهم واضمحلالهم . وأهلكُهم على الوجه الأول أشدهم هلاكا ، وعلـى الوجه الثاني أوقعهم في الهلاك .

المعنى على الوجه الاول :

اذا سمعت الرجل يقول هلك الناس ، يعيبهم وينقصهم ويحقر من

أمر جماعتهم ، فقد صار بذلك أعظم هلاكا منهم لارتكابه معصية كبيرة تعدت الى غيره وعمتهم ، وهي معصية الكبر الذي هو احتقار المرء من عداه ، فهذا قد تكبر على جميع الناس فكان عظم هلاكه على حسب عظم معصيته بهذا العموم في الكبر والاحتقار •

وعلى الوجه الثاني :

اذا سمعت الرجل يقول هلك الناس يثبطهم ويقنطهم فهو بذلك التثبيط والتقنيط أيأسهم من رحمة الله وصدهم عن الرجوع اليه وبالتوبة ودفعهم الى الاستمرار فيما هم عليه ، فأوقعهم بكلمته تلك في الهلاك ، هلاك اليأس والقنوط والاندفاع في الشر •

الاحكام :

على الوجه الاول : لا يجوز الحكم على عموم الناس بالشر والفساد ولو كان ذلك ظاهراً بينهم فاشيا فيهم ، لأنه حكم بدون علم ، وظن سوء بمن قد يكون في غمار الناس على خلاف ما عليه أكثرهم • هذا اذا حكم حكما لمجرد الاخبار فاحرى وأولى اذا زاد على ذلك تحقيرهم •

وعلى الوجه الثاني : لا يجوز لمن رآى الناس في حالة سيئة أن يقنطهم من رحمة الله وامكان تدارك أمرهم واصلاح حالهم • هذا اذا كان يحمله على ذلك ما تعظمه من سوء حالهم في ظاهر أكثرهم وأحرى وأولى اذا كان يحمله على ذلك صدهم وتثبيطهم عن التوبة والأخذ بأسباب الاصلاح •

توجيه :

كان الحديث الشريف مفيدا لعدم الجواز لما ذكر ، لانه سيق مساق الذم لهذا القول ووصف قائله بانه أعظم الناس هلاكا أو أوقع الناس في الهلاك وما أدى الى أحد هذين لا يكون الا ممنوعا •

ويؤيد هذا الحديث في المنع الادلة الدالة على منع الحكم بدون علم • وظن السوء بالناس وتحقيرهم وتقنيطهم عن الخير وصدّهم عنه •

تقييد وتعميم :

قد يقول الانسان هلك الناس اشفاقا عليهم وتحزنا لما هم فيه فلا يكون مثل من قاله تحقيرا وتقنيطا غير انه يبقى في عبارته ذلك التعميم الذي هو حكم بغير علم •

مع ما توقعه هذه العبارة من القنوط ـ خصوصا اذا تكررت ـ ولو لم يقصده القائل فلا ينبغي ان تقال هذه العبارة ومثلها من كل ما يفيد هلاك جميع الناس •

الآداب :

على الوجه الأول : على من يريد أن يرشد المسلمين ويعمل لاصلاح حالهم أن ينظر اليهم بعين الشفقة والحنانة لا بعين الزراية والاحتقار • فان الشفوق تدفعه شفقته الى المبالغة في العناية بتتبع الأدواء واستقصاء أنواع العلاج ، بخلاف الزاري المحتقر فانه يترفع بنفسه عن الناس ويتركهم فيما هم عليه وان باشر شيئا من معالجتهم فانه يباشره من استثقال واشمئزاز لا يصل معهما الى داء الامة شيء من علاجه ولن يستطيع هو معهما صبرا على الاستمرار في عمله او على اتقان القليل منه •

على أن الشفوق تشعر نفوس الامة منه بتلك الشفقة فتقابله بمثلها وبالامتثال لما يأتيها منه لمعالجتها واثقة منه بنصحه منقادة لارشاده راجية نيل الخير على يده •

والزاري المحتقر تشعر منه الامة بذلك فتقابله بمثله وتنقبض نفوسها عنه وتقوي ريبتها في قوله وفعله وقد تصارحه ببعضه فتؤدي الحال

بينهما الى العداوة والمقاطعة • ويكون خيرا له لو تركهم من أول الامر وشأنهم •

وعلى الوجه الثاني : على مرشدي المسلمين أن يعانوا أدواءهم بالعلاجات النافعة ويشخصوها لهم عند الحاجة بالعبارات الرقيقة المؤثرة في رفق وهوادة مجتنبين كل ما فيه تقنيط أو تثبيط ، وأن يعرّفوهم بانهم — وان ساءت نواح من أحوالهم — فهنالك[1] نواح ما تزال صالحة • وهنالك علاجات من الاسلام قريبة ناجعة وأن يعرفوا ما فيهم من فضائل ومالهم من مجد ، وما لهم بهذا الاسلام من قدر وعز ليثيروا فيهم النخوة ويبعثوهم على العمل والخير • واذا ذكروا لهم سيئاتهم ذكروا لهم قرب السبيل الى النجاة منها بالاقلاع عنها فيسرعون بالتوبة والانابة •

اصل عام في التربية :

هذا الحديث أصل عظيم في التربية المبنية على علم النفس البشرية فان النفوس عندما تشعر بحرمتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب • وعندما تشعر بحقارتها وعجزها تقعد عن العمل ، وترجع الى أحطّ دركات السقوط • فجاء هذا الحديث الشريف يحذّر من تحقير الناس وتقنيطهم ، وذلك يقتضي أن المطلوب هو احترامهم وتنشيطهم وهذا الأصل العظيم الذي دل عليه هذا الحديث الشريف يحتاج اليه كل مرب سواء أكان مربّيا للصغار أم للكبار ، وللأفراد أم للامم ، اذ التحقير والتقنيط وقطع حبل الرجاء قتل لنفوس الافراد والجماعات ، وذلك ضد التربية ، والاحترام والتنشيط وبعث الرجاء احياء لها وذلك هو غرض كل مرب ناصح في تربيته •

---

(١) في الاصل : فهالك .

فاللهم صلي على هذا النبي الكريم العظيم الرحيم الذي علمته ما لم يكن يعلم وكان فضلك عليه وعلينا به عظيما ، فكم من علوم وأسرار انطوت عليها أحاديثه الشريفة قد أتت على ما لم تعرفه البشرية الا بعد حين ولا عجب فهو الذي أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم[1] .

(۱) ش : ج ۳ ، م ۱۰ ، ص ۹۹ ــ ۱۰۲
غرة ذي القعدة ۱۳٥۲ هـ ــ ۱٥ فيفري ۱۹۳٥ م .

نظافة الطرق والمجالس

او مصلحة من مصالح البلدية

« قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : اتقوا اللعّانين قالوا : وما اللعانين يا رسول الله ؟ قال : الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم » . رواه مسلم عن ابي هريرة (رضي الله عنهم) .

المفردات :

اتقوا : اجتنبوا . اللعانين : الكثيرو اللعن ، واللعن الابعاد من رحمة الله ، واللعان في الحقيقة من يصدر منه اللعن بكثرة ، وقيل في التخلي في الطريق والتخلي في الظل لعانان لأنهما سبب في صدور اللعن بكثرة من الناس لفاعلهما ، فاسند ما في معنى الفعل الى سببه مجازا . التخلي أصل معناه الذهاب الى الخلاء ، والمراد به هنا قضاء الحاجة البشرية من بول أو غائط ، وأطلق التخلي عليها لأن الشأن أن تكون في الخلاء ففي اسمه أدب من آدابه .

المعنى :

اذا أردتم قضاء الحاجة فاجتنبوا الطرقات واجتنبوا الأماكن التي اتخذها الناس للجلوس في ظلها ، ومن تخلى في واحد من هذين فانه يجلب على نفسه لعنا كثيرا .

الحكم :

المتخلي في طرقات الناس وأماكن جلوسهم متعد عليهم مؤذ ظالم لهم فهو داخل في لعن الله للظالمين ، وشأن الناس عندما يجدون القذر

في طرقاتهم وأماكن جلوسهم أن يلعنوا من آذاهم بذلك ، وهم مظلومون منه ، فيكون لعنهم من دعوة المظلوم ، ودعوة المظلوم مستجابة ، فصار المتخلي قد أوقع نفسه في لعنة الله ولعنة الناس المظلومين ، والذنب الذي يؤدي الى هذا اللعن لا يكون الا من الكبائر . فالتخلي في طريق الناس أو في ظلهم كبيرة من الكبائر .

تعميم :

تشمل الطرق الطرق الى البيوت والاسواق والقرى وموارد الماء والطرقات كلها ومثل المكان الذي اتخذه الناس للجلوس في ظله كل مكان اتخذوه للجلوس فيه لمنفعة من منافعهم فيدخل في ذلك الاسواق والمنتزهات وغيرها ، فكل ذلك مما يحرم التخلي فيه ويلحق بالتخلي وضع القذر والوسخ والزبل والشوك وكل ما فيه مضرة لما في الجميع من التعدي والاذاية .

تتميم :

كما انتظم الحديث الصحيح المتقدم النهي عن تقذير الطرقات والأماكن العامة بذلك الترهيب الشديد كذلك جاء الترغيب في تنقيتها وازالة الأذى عنها شاملا ذلك ما كان من المستقذرات وغيرها من كل ما فيه أذى ، فقد ثبت في الصحيح ان أبا برزة الأسلمي ــ رضي الله عنه ــ قال للنبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : يا نبي الله علمني شيئا انتفع به ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أعزل الأذى عن طريق المسلمين » وثبت قول صلى الله عليه وسلم : بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخَّره فشكر الله له فغفر له . واذا كانت ازالة الأذى عن الطريق ــ ومثلها كل مجتمع عام ــ فيها الأجر والمثوبة فوضع الأذى فيه الاثم والعقوبة .

تطبيق :

من أحسن المصالح التي يقوم عليها اجتماع الناس في التمدن الحاضر وألزمها ، مصلحة التنظيف في الادارات البلدية ، وأنت ترى أن الاحاديث النبوية المتقدمة قد انتظمت ذلك التنظيف بالترهيب من التقذير وكل مؤذ ، والترغيب في ازالتها ، فوضع الاسلام بذلك أصل هذه المصلحة قبل أن يعرفها تمدن اليوم ، فعلى المسلم أن يلتزم ذلك كأمر ديني يثاب عليه عند ربه ليكون دافعه الى القيام به من نفسه ورقيبه في تنفيذه ضميره الديني وايمانه ، وقد شهد التاريخ لمدن الاسلام أيام مدنيته الزاهرة بانفرادها بين مدن عصرها بالنظافة وحسن المظهر ، ومـا ذلك الا من تطبيق مثل ما تقدم مما وضعه الاسلام من أصول المصالح التي تقوم عليها الحياة ويترقى بها المجتمع • فعلينا ــ معشر المسلمين ــ أن نعني بما دعتنا اليه هذه الاحاديث النبوية الشريفة لنكون بين الناس مثلا حسنا راقيا في النظافة البلدية لنفع أنفسنا ومجتمعنا ونرفع اسم ديننا ونفوز بالأجر والرضى من ربنا •

وفقنا الله لاحياء معالم الدين ، ورفع اسم الاسلام والمسلمين[1] •

(١) ش : ج ٤ ، م ١١ ، ص
ربيع الثاني ١٣٥٤ هـ ــ جويلية ١٩٣٥ م .

الصحة والفراغ

استغلالهما والاستفادة منهما

قال صلى الله عليه وآله وسلم : نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ • (البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهم) •

اللغة :

النعمة : ما يفعل على وجه الاحسان ضد النقمة ، وهي ما يفعل على وجه العقوبة • المغبون : المنقوص في حقه ، أصله من غبن في البيع اذا نقص من حقه ، ثم يستعمل في كل من نقص من حظه في كل شيء • الصحة : اعتدال المزاج وقوة البنية ضد المرض • الفراغ : الخلاء ، ومصدر فرغ يفرغ اذا كان خاليا من الشغل ، وهذا هو المراد •

التراكيب :

مغبون خبر مقدم لكثير والجملة نعمتان • والصحة والفراغ خبر لهما مقدر والجملة مستأنفة بيانيا •

المعنى :

ان كثيرا من الناس يكونون في صحة من أبدانهم وفراغ من أشغالهم ولا يعمرون أوقاتهم الفارغة بطاعة الله ، ولا يستعملون أبدانهم الصحيحة فيها ، فتضيع عليهم تلك الأوقات ، وتلك الصحة باطلا فيخسرونهما ، ولا يستفيدون منهما فيكون ما خسروه منهما نقصا في حظهم من حياتهم ، واذ كانت الحياة هي أغلى شيء عند

الانسان يحافظ عليه ، ولا يبذل شيئا منه الا بحقه ، فهؤلاء الذين نقصوا حظهم في حياتهم هم أعظم المغبونين .

فقه الحديث ومقصوده :

عمر الانسان أنفس كنز يملكه ، ولحظاته محسوبة عليه وكل لحظة ثمرة معمورة بعمل مفيد ، فقد أخذ حظه منها وربحها ، وكل لحظة تمر فارغة ، فقد غبن حظه منها وخسرها . وكذلك بدنه فهو أنفس آلة عنده ، وانما فائدة الآلة بالعمل ، فاذا كانت الآلة ، في عمل فهو ربح وزيادة ، واذا كانت في بطالة فهو في نقص وخسران ، فالرشيد الرشيد ، هو من أحسن استعمال ذلك الكنز الثمين ، وتلك الآلة العظيمة ، فعمَّر وقته بالأعمال ، وداوم على استعمال ذاته فيها فربحهما، والسفيه السفيه من أساء التصرف فيهما فأخلى وقته من العمل ، وعطل ذاته عن الشغل فخسرها .

ولما كان الانسان مضطرا الى السعي في معاشه فيشغله ذلك عن وجوه الطاعات ، من العلم ونوافل الصلاة والصوم والحج وغيرها . ومعرضا للأمراض فتمنعه منها ، ولكنه لا يخلو من حالة يكون فيها فارغا من الشغل لمعاشه ، ومعافى من المرض في بدنه ، ذكره هذا الحديث الشريف بما عليه في هذه الحالة من المحافظة عليها وعمارتها بالطاعات حتى لا يخسرها وتنقص من عمره بلا فائدة فيكون مغبونا فيها .

تفريغ على الحديث :

فاذا عمَّر الانسان وقت فراغه من الكد لعيشه ، بطاعة من طاعات الله واستعمل بدنه مغتنما فرصة صحته فيها ، ثم عرض شغل من اشغال عيشه فقطعه عنها ، أو طرأ عليه مرض فمنعه منها ونيته المداومة على تلك الطاعة لولا الشاغل والمانع ، فانه يكتب له في شغله وفي مرضه ، ثواب ما كان يعمله في صحته وفراغه ، ومن الدليل على ذلك حديث البخاري ـ

رضي الله عنه ــ عن أبي بردة بن أبي موسى الاشعري ــ رضي الله عنهم ــ سمعت أبا موسى مرارا يقول: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: **اذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا** ، والسفر نوع من الشغل •

تفريغ آخر :

واذا كان المؤمن عاملا في طاعة الله ــ تعالى ــ أيام صحته ، وفراغه ، ثم مرض فان له أجرين أجرا على ما كان يعمل في صحته بدليل ما تقدم ، وأجرا على مرضه لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : **ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه** • رواه البخاري ــ رضي الله عنه ــ وكذلك اذا شغل بالسعي على نفسه أو على العيال ، فان له أجرين أجر ما شغل عنه ، وأجر سعيه على عياله ، وأدلة ثواب الساعي على عياله كثيرة منها حديث الرجل الذي رأى الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ من جلده ونشاطه فقالوا : يا رسول الله، لو كان في سبيل الله ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : **ان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على ابوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله** • رواه الطبراني بسند صحيح • ومثله من شغل بطاعة عن طاعة كمن شغل بالرباط عن نافلة الحج ، مثلا لأنه اذا كان المشغول بالسفر المأذون فيه يكتب له ما كان يعمله مقيما لأن نيته المداومة لولا عارض السفر ــ فالمشغول بالطاعة عن طاعة كان ينوي فعلها لولا عروض الطاعة الأخرى ــ أحرى وأولى •

سلوك العاملين بهذه الأحاديث :

يعمرون أوقاتهم كلها بالأعمال ، أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال

الجوارح فلا يشتغلون عن طاعة الا بطاعة ولا يخرجون من عمل الا الى عمل فاذامرضوا صبروا واحتسبوا وأتوابما يستطيعون فتتضاعف أجورهم بأعمالهم وبنيانهم ويربحون جميع حياتهم ، وأولئك هم الفائزون ، سلك الله بنا وبالمسلمين مسلكهم بمنه وكرمه آمين[1] .

(1) ش : ج ٢ ، م ٧ ، ص ٨٤ ـ ٨٦
غرة شوال ١٣٤٩ هـ ـ مارس ١٩٣١ م .

نظام الغـذاء

« ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطن • بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه • فان كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » •

رواه الترمذي وغيره وقال : حسن صحيح

ان الانسان بجزئه الترابي ، وهو بدنه ـ مخلوق أرضي ، وبجزئه النوراني ـ وهو روحه ـ مخلوق سماوي ، فاذا جذبه جزؤه الترابي بزمام الشهوة الى السفليات الارضية ، طار به جزؤه النوراني على بساط العقل الى علويات السماء • وهو لن يزال دائما بين هذا وذاك في انحطاط واعتلاء •

لم يخلق الانسان للأرض وان خلق منها ، وانما خلق للسماء وللملأ الأعلى ، وآخر كلمة قالها النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « **اللهم الرفيق الأعلى** » وانما ينتهي الى هذا بصفاء روحه واستنارة عقله ، وما البدن الترابي الا آلة لهما ، لاستكمال قوتهما ، ومظهر لتلك الاستنارة وذلك الصفاء ، وعيار على ما فيهما من قوة وضعف بما يكسبانه ويكتسبانه في طريق الاختبار والابتلاء • لينال الانسان ما يستحقه على حسن تصرفه او سوء تصرفه من عادل الجزاء ، بعد خروجه من دار الفناء الى دار البقاء •

فالجسد آلة بديعة للروح لازمة لها في الدنيا وملازمة لها في الأخرى ، فمن العدل الالهي أن يكون لها حظها هنالك ، كما كان لها حظها هنا • ومن العدل الواجب على الانسان أن يعطيها ـ كما يعطي الروح ـ حقها من الاعتناء ، فكما يغذي روحه بما ينير عقلها

من العلوم والمعارف ، وما يزكيها من الأخلاق والأداب ، وما يقويها من صالح العمل ، ومفيد السعي في وجوه الحياة ويحفظها من كل ما يغشى العقل من جهالات وأوهام ، وما يدسي النفس من رذائل ، وما يضعفها من كسل وبطالة ، كذلك عليه أن يغذي بدنه بما ينميه وما يصلحه وما يقويه ، ويحفظه من كل ما يفسده أو ينهكه أو يؤذيه •

يتوقف هذا البدن وصلاحه على الغذاء ، وقد جعل الله فيه وعاءً ، وأي وعاء ، وهو المعدة ، مخزن الغذاء وبيت الداء ، وعلى حفظ نظام هذا الوعاء تترتب الصحة والمرض والسقم والشفاء •

فاذا ملأ ابن آدم بطنه كان عليه شر وعاء ، وانبعثت منه شر الأدواء: أسقام للبدن وأثقال على الروح وظلمات للعقل ، فانقلب على الانسان مع انتفاع به الى أصعب الشر وأقسى البلاء •

واذا اقتصر على أكلات تقيم الصلب وتمسك البدن حصل من البدن على العمل ، وسلم من آلام المرض ، ونعم بالعافية ، وكان انتفاعه بالآلة البدنية خالصا من شوائب الضرر •

واذا غلبته الشهوة ، وكان — لا محالة — منقادا للذة ، فليقف دون الشبع ، ولا يملأ كل الملأ المعدة حتى لا تثقل حركتها في الهضم ، وحتى لا تتنفخ في البطن فتسد مجاري النفس وبذلك يكون قد عدل بين أصول الحياة البدنية الثلاث : طعامه وشرابه ونفسه ، فأعطى لكل واحد الثلث من بطنه •

غير ان الانسان اذا كان هكذا تغلبه الشهوة ، وتقوده اللذة ، فانه بمظنة أن يتجاوز — ولو في بعض الاحيان — العدل الى الامتلاء • فشرع له الصوم ليقاوم شر ذلك بما فيه من راحة للمعدة ونقاء ، وتربية على امتلاك زمام نفسه عن الشهوات والملذات وعلى استطاعة حملها على الجوع والعطش عند الاقتضاء ، هذا للمعتدل وللمالئي للبطن المملوك للشهوة بالاحرى والاولى ، اما ذاك المقتصر على الاكلات فهو له

زيادة في القوة ورسوخ لما تمكن منه من العادة المشروعة الحسنة •

فالصوم ضرورة لنظام الغذاء وحفظ الصحة البدنية وعون للانسان على حسن استعماله لآلته الترابية الارضية للترقي الى آفاقه الروحية النورانية وكمالاته العلوية •

فالحمد لله الذي شرع لنا الصيام وفرض علينا رمضان ووفقنا الى القيام به في كل عام • نسئله المزيد انه الحميد المجيد •

ليس الخبز كل ما نريد :

نحن — المسلمين — ربينا تربية اسلامية على الفة الجوع ، والتقلل من الاكل والاقتصار على قدر الحاجة ، والمواساة في المطعم والمشرب • فطعام الواحد عندنا يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الأربعة وطعام الثلاثة يكفي الستة وطعام الأربعة يكفي الثمانية ونعتقد عن تجربة ان الرجل لا يهلك عن نصف قوته •

بهذه التربية استطعنا ان نبقى ونعيش في مثل ما عليه حالة معظم الامة الجزائرية من الفاقة والعوز والجوع والمسغبة ، بينما هي تنظر الى ما ينعم فيه غيرها من النعمة والرخاء ، مما لو أصاب أمة أخرى لاجتاحها وأفناها ، أو لأثارها ودفعها الى موارد العذاب والردى •

وكما ربانا الاسلام هذه التربية من ناحية الغذاء فقد ربانا تربية اخرى من نواحي اخرى • ربانا على محبة العلم والمعرفة والرغبة فيهما والتلهف على ما فات منهما والاحترام لمن كان له حظ فيهما •

وبهذه التربية استطعنا ، رغم الفاقة ورغم الجوع ورغم التثبيط والمعاكسة أن نحافظ على قرآننا وخطنا ، وبقايا علوم لغتنا وديانتنا ، وجملة معارفنا ، واندفعنا الى تأسيس المكاتب العربية رغم ما يحول بينها وبيننا واندفعنا الى المكاتب الحكومية فضاقت عنا وبقيت مئات الآلاف في انياب الجهل والفقر من أبنائنا •

ولولا تلك التربية الاسلامية التي زرعتها القرون فاستقرت في قرارات النفوس ، وصارت من الخلق الموروث لكان ما نحن فيه من ظلم وتعاسة وتقديم كل احد علينا في وطننا والترك لمعامل التجويع والتجهيل تخرج آلاتها الفتاكة المتنوعة للقضاء علينا ، شاغلا لنا عن العلم وعن الشعور به وعن طلبه وعن المزاحمة عليه •

جهل قوم من ذوي السلطة هذا الخلق منا فحسبوا ـ وهم جد عالمين بما فيه الامة من جوع وفاقة ـ اننا قوم لا نريد الا الخبز ، وان الخبز عندنا هو كل شيء واننا اذا ملئت بطوننا مهدنا ظهورنا ، وانهم اذا أعطونا الخبز فقد أعطونا كل ما نطلب ، اذ الخبز ـ في زعمهم ـ هو كل ما نريد ، فاذا حادثناهم في حالنا سكتوا عن كل شيء الا عن الجوع والخبز ، واذا رفعنا اصواتنا بمطالبتهم بحقوقنا لديهم ، أو بانجاز مواعيدهم خرجت المراسيم بتوزيع قناطير القمح أو الفرينة أو الدقيق أو سلفات البذر التي لا ينال المحتاج الحقيقي منها ما يسد حاجته وتذهب في اثناء توزيعها في تعاريج والتواءات أخرى ••• فاذا صدرت تلك المراسم طبل المطبلون وزمر المزمرون ، وحسب المغرورون اننا قد رضينا وفرحنا وانتهى أمرنا •

لا يا قوم ، اننا أحياء ، واننا نريد الحياة وللحياة خلقنا ، وان الحياة لا تكون بالخبز وحده ، فهنالك ما علمتم من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكلها ضروريات في الحياة • ونحن نفهم جيدا ضروريتها للحياة ، وقد بذلنا فيها لكم ما كان ـ يوما ـ سببا قويا في حياتكم فلا تبخلوا علينا اليوم بما فيه حياتنا ان كنتم منصفين ، وللايام والامم مقدرين • والا فالله يحكم بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين[1] •

---

(١) ش : ج ٩ ، م ١٢ ، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٦
غرة رمضان ١٣٥٥ هـ ـ ديسمبر ١٩٣٦ م

اثر النيات في الاعمال

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امريء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » ٠

اخرجه الشيخان في صحيحهما

الالفـاظ :

الأعمال : هي الأفعال التي تصدر عن الجوارح فتدخل فيها الاقوال، والغالب أن الاعمال أخص من الأفعال فهذه فيما كان عن قصد وغيره وتلك فيما كان عن قصد ٠ النية : هي القصد الى الفعل ٠ الهجرة : الترك ، والمراد هنا مفارقة دار الكفر الى دار السلام خوف الفتنة على الدين بالمنع من اقامته ٠ يصيبها : يحصل عليها ٠ ينكحها : يتزوجها ٠

التراكيب :

بالنيات يتعلق بمحذوف تقديره معتبرة ، ودل هذا المتعلق الخاص ما جاء بعده من التفصيل بين الهجرتين والمقام الذي القى فيه الكلام ٠ كما سنبينه في مورد الحديث ٠ ونظيره في هذا التقدير قولهم : المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، أي معتبر بهما ٠ والمرء بأدبه ، أي معتبر أو يعتبر به والباء سببية ٠ وانما للحصول والمحصور فيه هو الجار والمجرور وما أفادته الباء من معنى السببية أي لا سبب تعتبر به الاعمال الا النيات نظيره إنما زيد قوي بقومه أي لا سبب لقوته الا قومه ٠ فأفاد التركيب حصر اعتبار الاعمال في نياتها والمقصود بها لا في صورها وظواهرها ٠

ولكل امرىء خبر ما نوى ، أي نواه . قدم عليه ليحصر فيه بانما فأفاد التركيب ان حظ كل عامل من عمله هو ما قصده أي عين ما قصده في كميته ومقداره دون ما لم يقصد فمن كانت هجرته الى الله ورسوله أي قصدا فهجرته الى الله ورسوله أي وقوعا واعتبارا ففعل الشرط وجوابه لم يردا على معنى واحد . ومثل هذا يقال في الشرط الثاني وجوابه وذكر تزوج امرأة بعد دنيا يصيبها تخصيص بعد تعميم لان ذلك الخاص هو سبب الحديث ، واللام في الدنيا لام الاجل والعلة فتفيد ان طلب الدنيا أو طلب التزوج هو العلة الباعثة له دون قصد طاعة الله فلا يدخل فيه ما اذا كان الباعث هو الطاعة . وطلب هذه الاشياء ، جاء على سبيل التبع .

سبب الورود :

قال القسطلاني : قد اشتهر ان سبب هذا الحديث قصة مهاجر أم قيس ، المروية في المعجم الكبير للطبراني باسناد رجال ثقات من رواية الاعمش . ولفظه : « عن أبي وائل عن ابن مسعود قال : كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها أم قيس فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر فهاجر فتزوجها . قال : فكنا نسميه مهاجر أم قيس » .

المعنى :

ان أعمال الناس قد تشترك في صورها ومظاهرها ، حتى لا يكون في ذلك فرق بينها ولكنها بذلك التساوي الصوري الظاهري لا تكون متساوية في الاعتبار والحقيقة وما يتبعها من القبول والرد في نظر الشرع فقد هاجر مهاجر أم قيس كما هاجر سائر المهاجرين . الجميع قد كان منهم مفارقة الديار وترك دار الكفر الى دار الاسلام واللحوق بالنبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فالعمل عمل واحد قطعا ، ولكن القصد مختلف فقد كان قصدهم بهجرتهم طاعة الله ورسوله ، وكان

قصده بهجرته التزوج بأم قيس فكانت هجرتهم واقعةعند الله ــ تعالى ــ موقعها محصلة لهم رضاء ومثوبته ، وكانت هجرته لا موقع لها عند الله ولا حظ لها من ثوابه ، وكانت معتبرة من عمله الدنيوي لا من عمله الديني ومثله كل من قصد بهجرته غرضا من أغراض الدنيا ما حمله على الهجرة إلا هو . هذا معنى الجملة الاولى من الحديث الشريف

ومعنى الثانية : ان الأعمال المعتبرة عند الله التي قصد بها طاعته تتساوى أيضا في صورها ومظاهرها ولكنها لا تتساوى منازلها في الاعتبار والقبول والمثوبة ، بل تتفاوت حظوظ اصحابها في ذلك بحسب تفاوتهم في مقاصدهم منها فيهاجر المهاجران ــ مثلا ــ كلاهما يقصد بهجرته طاعة الله ورسوله هذا لا يقصد الا ذلك ، وذاك يقصد معه على سبيل التبع غرضا دنيويا من تجارة أو تزوج . فحظ الاول من هجرته هو طاعة الله ورسوله وحدها غير متبعة بشيء وحظ الثاني هو الطاعة المتبعة بشيء . وثواب الاولى ــ قطعا ــ أعظم من ثواب الثانية . أو يكون أحدهما قصد الهجرة وما يكون معها من جهاد بالنفس والمال ومصاحبة النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وخدمته وصحبته والتفقه عليه وتكثير سواد اصحابه وعمارة مدينته . والآخر لم يخطر بباله شيء من هذا . فحظ الاول من عمله عظيم وثوابه كثير على حسب كثرة مقاصده وتنوعها وحظ الثاني واحد وهو الهجرة، وثوابه عليها بالخصوص . وذلك على حسب قصده ونيته . ومثل هذين القاصدان للمسجد لأجل صلاة واحدهما يقصده مع ذلك عمارة المسجد وحبس الجوارح على الطاعة وارشاد الضال وتنبيه الغافل وتعليم الجاهل ، وتكثير الجماعة والتعاون على الخير بحضور مشاهده وبعث غيره على الاقتداء به فيه . والآخر لم يخطر بباله شيء من هذا . فحظ الاول من عمله وثوابه عليه اكثر بكثير من حظ الثاني وثوابه وان كانا كلاهما في طاعة الله .

فالنيات والمقاصد كما تفرق بين العملين المتماثلين وتؤثر فيها بالقبول والرد وهو مقتضى الجملة الأولى ، كذلك تفرق بين العملين المقبولين وتؤثر فيهما باختلاف مقدار الثواب وحظ العامل منه وهو مقتضى الجملة الثانية ، وهذا أثر كبير للنيات في الاعمال .

الاحكام :

أفاد الحديث إن العمل الديني لا يكون مقبولا حتى تقصد به طاعة الله وإن من قصد به غير ذلك فعمله مردود عليه وان أجر العامل يقل ويكثر على حسب نيته بعمله وانه يمكنه ان يقصد مقاصد كثيرة من الخير بعمل واحد فيتضاعف ثوابه عليه بحسب نيته وان لم يقع ذلك فعلا بعمله ، كقصد ارشاد الضال في المسجد ولم يجده أو تعليم الجاهل ولم يلقه وقصد الجهاد من الهجرة ومات قبله وامثال ذلك كثيرة .

تفريع :

كما أثرت النية في الأفعال التعبدية بالقبول والرد أو بتفاوت الأجر كذلك تؤثر في الأعمال المباحة فان المباحات في نفسها لا يثاب ولا يعاقب عليها ولكنها بالنية والقصد منها يدخلها ذلك وتلحق بما أريد منها الحاق الوسائل بمقاصدها . فالشيء — مثلا — مباح وقد ينوي به الذهاب الى التعلم فيصير عمل طاعة فيثاب عليه ولو لم يجد المعلم فلم يتعلم ، وقد ينوي به الذهاب الى السرقة فيصير عمل معصية فيأثم به وان حيل بينه وبين ما قصد فلم يسرق وكذا سائر المباحات .

ارشاد وترغيب :

كما علينا ان نجتهد في تطهير أعمالنا من المخالفات وقصرها على الطاعات والمباحات ، كذلك علينا ان نجتهد في طاعتنا ان تكون خالصة لوجه الله وان نبعد عنا كل خاطر يلفتنا الى غيره حتى يسلم لنا القصد

كله خالصا والعمل كاملا أو يسلم لنا القصد الاول الذي هو شرط القبول فاذا كان شيء آخر بعده يكون لاحقا وتابعا وان تنفقه وتتدبر بعد ذلك في نيتنا بطاعتنا فنوفرها ونستثمرها وتقصد بها ما حضرنا من وجوه الخير التي يمكن أن تقصد بها • وان ننظر مثل ذلك في أعمالنا المباحة كأكلنا وشربنا ونومنا ومشينا وراحتنا ورياضتنا فنقصد بها الاستعداد للطاعات والتقوى لفعل الخيرات وكل ما يمكن أن تودي اليه أو تعين عليه من معروف فتصير أعمالنا المباحات من قسم الطاعات فما أسعدنا حينئذ وما أعظم ثروتنا من الخير •

نحن لا نسلم من مخالفة وتقصير وفي ذلك علينا خسار كثير ولا يجبر ذلك الخسار الا بسلوك هذا الطريق الشرعي القويم ، فهلم أيها الاخوان في الله اليه ، ففيه ـ والله ـ التجارة الرابحة ، والحياة الناجحة وارضاء الرحمن وارغام الشيطان والسعادة في الدارين •

تنبيه وتحذير :

الاعمال اما طاعات لانها مأمور بها وجوبا أو استحبابا ، واما مخالفات لانها منهي عنها تحريما أو كراهة ، واما مباحات لانها غير مأمور بها ولا منهي عنها ، فالمخالفات بقسميها لا تقبلها النيات طاعات لانها في قسمها غير عمل صالح ولاننا علمنا بالنهي عنها ان قصد الشارع هو تركها وعدم وجودها فقصد المكلف مضاد لقصد الشارع فكان ساقطا لا عبرة به ولا اهلية له لقلب الوضع الشرعي ••• والطاعات بقسميها هي التي تؤثر فيها النية بالقبول والرد بحسب قصد الله بها وقصد غيره أو بتفاوت درجات القبول وبحسب المقصود على ما تقدم وهي المقصودة بالقصد الأول من الحديث •

والمباحات مثلها تؤثر فيها النيات فتقبلها طاعة أو معصية لان الشرع لما اباحها علمنا انه لا قصد له لا في وجودها ولا في عدمها من حيث

ذاتها فكان لقصد المكلف حينئذ سبيل الى التأثير فيها • وقد غفل عن هذه الحقيقة أقوام — عفا الله عنهم — فتراهم يستدلون على أعمالهم بقوله — صلى الله عليه وآله وسلم — : **« انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى »** قاصدين الى تبريرها غير ملتفتين الى كونها من قسم الطاعات أو المخالفات أو المباحات • وكثيرا ما يرتكبون البدع كدعاء المخلوقات وكالحج الى الاضرحة وايقاد الشموع عليها والنذور لها وكالرقص وضرب الدف في بيوت الله وغير هذا من أنواع البدع والمنكرات ، ويتوكؤون في ذلك كله على « انما الاعمال بالنيات » كلا ، ليس بامانيكم ولا أماني أهل الكتاب فان البدع كلها من قسم المخالفات وان المخالفات لا تنقلب طاعات بالنيات •

فحذار أيها الأخوان في الله من هذا الجهل الذي أدى الى تحريف الكلم عن مواضعه والى المداومة على المنكر والفرح به ، ونعوذ بالله — لنا ولجميع اخواننا المسلمين — أن نكون من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا • ونسأله تعالى — لنا ولاخواننا المسلمين — أن نكون من الذين يرجون لقاء ربهم فيعملون الاعمال الصالحة ولا يشركون بعبادة ربهم أحدا[1] •

(١) ش : ج ١ ، م ٧ ، ص ٦ — ١١
رمضان ١٣٤٩ هـ — فيفري ١٩٣١ م .

التوجه الى الله برسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

قال أبو عيسى الترمذي : « حدثنا محمود بن غيلان ، ثنا عثمان بن عمر ثنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت ، عن عثمان ابن حنيف : ان رجلا ضرير البصر أتى النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — فقال : ادع الله أن يعافيني ، قال : إن شئت دعوت وإن شئت صبرت ، فهو خير لك . قال : فادعه ، قال : فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « **اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة اني توجهت بك الى ربي في حاجتي هذه لتقضي لي اللهم فشفعه في** » ، هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه من حديث ابي جعفر — وهو غير الخطمي — » .

السند :

محمود بن غيلان : ثقة من رجال البخاري ومسلم . عثمان بن عمر هو ابن فارس العبدي المتوفي سنة (٢٠٩ هـ) ثقة ، روي عنه الستة ، وهو الراوي عن شعبه . ولهم عثمان بن عمر بن موسى التيمي متقدم غير هذا . أبو جعفر ، هكذا عند الترمذي غير منسوب وقال فيه : هو غير الخطمي ، يعني أبا جعفر يزيد بن عمير الأنصاري الخطمي ، لكن أبن ماجة قال : حدثنا أحمد بن منصور بن يسار ، ثنا عثمان بن عمر ، ثنا شعبة عن أبي جعفر المدني الى آخر السند والمتن . فصرح بأن أبا جعفر هو المدني . وهذا هو أبو جعفر القاري يزيد بن القعقاع . قال ابن سعد : كان ثقة قليل الحديث ، وكان امام أهل المدينة في

القراءة فسمي القارئي لذلك • عمارة بن خزيمة بن ثابت الانصاري روي له أصحاب السنن الأربعة وثقه النسائي وابن حبان وابن سعد • عثمان بن حنيف هو الأنصاري الأوسي الصحابي المشهور •

مخرجو الحديث :

رواه ابن ماجة في باب ما جاء في صلاة الحاجة من سننه والنسائي والحاكم والبيهقي وابن خزيمة والطبراني •

رتبة الحديث العلمية والعملية :

قال فيه الترمذي كما تقدم حسن صحيح غريب • فالصحيح مارواه العدل الضابط عن مثله الى آخر سنده سالما من العلة والشذوذ فاذا خف الضبط في بعض رواته فهو الحسن • وما يقول فيه أبو عيسى الترمذي حسن صحيح أقوى مما يقول فيه حسن فقط ، لأن وصفه بالصحة مع وصفه بالحسن يفيد أن خفة الضبط في بعض رجاله تكاد لا تؤثر عليه حتى كأنها لم تحطه عن رتبة الصحيح التام • وأما الغريب فهو ما انفرد بروايته راو فقط واذا كان ذلك المنفرد ثقة فذلك الانفراد لا يضر فالغرابة لا تنافي الصحة والحسن • وغرابته جاءته من انفراد أبي جعفر به كما تقدم • وصححه أيضا ابن ماجة والحاكم والبيهقي والطبراني • فبعدما عرفنا من حال سنده وتصحيح هؤلاء الأئمة له حصل لنا العلم الكافي — وهو الظن الغالب — بثبوته • وحيث كان بهذه المنزلة من الثبوت فانه صالح لاستنباط الاحكام الشرعية العملية منه •

الفاظ المتن :

زاد ابن ماجة بعد قوله : « فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه » قوله « ويصلي ركعتين » ولذلك أخرجه في باب ما جاء في صلاة الحاجة •

وهذه زيادة عدل فهي مقبولة • والأمر بالوضوء مما يؤيدها • وزاد النّسائي بعد قوله : اللهم شفعه في : وشفعني في نفسي ، فرجع وقد كشف الله عن بصره •

المفردات :

التوجه الى الشيء : هو القصد إليه ، فأتوجه اليك أي أقصد اليك • و (الباء) في بنبيك وفي اني توجهت بك هي باء الاستعانة ، والمستعان به هو السبب المحصل للمستعان عليه ولذلك جعل بعضهم باء الاستعانة من باء السببية ، فالنبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ مستعان به على السؤال أي على نجح السؤال بحصول الشيء المسؤول من الله تعالى ، ومستعان به على التوجه بمعنى القصد أي على نجح ذلك القصد بحصول المطلوب منه تعالى فهو متوصل به الى نجح السؤال ونجح القصد ، وكل ما يتوصل به الى شيء يقال فيه وسيلة اليه ، فالسؤال به توسل به ، فيمكن أن تسمي هذه الباء باء التوسل ، وهي الداخلة على ما هو وسيلة في حصول شيء • و (الهاء) في قوله (فادعه) هاء السكت أو ضمير عائد على الله تعالى • الشفاعة : سؤال الخير لغير السائل ، فقوله شفعه فيّ أي اقبله في أي اقبل دعاءه وسؤاله لي •

التراكيب :

قوله أسألك وأتوجه اليك بنبيك • وقوله إني أتوجه بك يحتمل أن يكون على ظاهره ، فالسؤال والتوجه والتوسل بذات النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ نظرا لمقامه عند الله تعالى ويكون هذا نظير قول القائل : أسألك بالله ، من قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ » وفي سنن أبي داود والنّسائي مرفوعا « ومن سألكم بالله فأعطوه » وقول القائل : أسألك بالرحم ، من قوله تعالى :

« وَالْأَرْحَامِ » بالجر في قراءة الشاميين ، وقول عائشة لفاطمة رضي الله عنهما : « عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » ويحتمل أن يكون على تقدير مضاف هكذا بدعاء نبيك في العبارة الاولى وبدعائك في العبارة الثانية ، لأنه انما سأله أن يدعولك ، فيكون التوسل بدعائه ولقوله : فشفعه فيّ أي اقبل دعاءه لي . وجملة (فشفعه) معطوفة على جملة (أسألك) ، وجملة (اني توجهت بك) معترضة بين المتعاطفين .

المعنى :

هذا رجل أعمى جاء النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — يسأله أن يدعو الله تعالى له أن يشفيه من العمى فخير بين أن يدعو له وأن يصبر على بلواه ، وأخبره أن الصبر خير له من جهة الأجر والمثوبة ، فاختار الرجل أن يدعو له فأمر أن يتوضأ وضوءاً حسناً مستكملا لفرائضه وفضائله في ظاهره وباطنه ، وأن يصلي ركعتين ويدعو بالدعاء المذكور . والظاهر أنه بعد الفراغ من الركعتين مثل ما جاء في دعاء الاستخارة بعد ركعتيها ، وكان الدعاء سؤالا من الله تعالى وتوجها اليه وتوسلا بنبيه أو بدعائه وثناءاً على النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — بما بعثه الله من الرحمة المناسب ذكرها غاية المناسبة في مقام الدعاء والتوسل وخطابا له عليه السلام بأنه توجه به الى ربه لتقضى حاجته ثم رجوعا الى سؤال الله تعالى أن يقبل فيه شفاعة النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم .

سؤال :

الرجل قد اختار أن يدعو له فأمره أن يتوضأ ويصلي ويدعو بذلك الدعاء ولم يدع هو له مع انه قال له في التخيير إن شئت دعوت وان شئت صبرت .

جوابه :

الظاهر انه دعا له وان لم يصرح بذلك في متن الحديث لقول الأعمى : (اللهم شفعه فيّ) أي اقبل دعاءه وسؤاله لي .

الأحكام :

لم يدع الأعمى النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — ولم يسأله أن يشفيه هو ، لأن الدعاء لقضاء الحوائج وكشف البلايا ونحو ذلك هو العبادة،وفي حديث النعمان بن بشير المرفوع ((**الدعاء هو العبادة**)) رواه أحمد وأصحاب السنن . والعبادة لا تكون الا لله لم يدعه لا وحده ولا مع الله ، لأن الدعاء لا يكون الا لله . وهذا بخلاف ما يفعله الجهال والضلال من طلبهم من المخلوقين من الأحياء والأموات أن يعطوهم مطالبهم ويكشفوا عنهم بلاياهم ، وإنما سأله أن يدعو له الله تعالى أن يعافيه وهذا جائز أن يسأل المؤمن من أخيه في حال حياته أن يدعو الله تعالى له . ومن هذا حديث البخاري في سؤال أم انس ابن مالك من النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أن يدعو لأنس خادمه ، فدعا له . ومن هذا ما رواه الترمذي وابو داود عن عمر بن الخطاب قال : استأذنت النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — في العمرة فأذن لي وقال **اشركنا يا اخي في دعائك ولا تنسنا** زاد في رواية الترمذي فقال : **كلمة ما يسرني ان لي بها الدنيا** . يعني قوله : اشركنا ... الخ ثم انه توسل بذاته بحسب مقامه عند ربه وهذا على الوجه الأول من الوجهين المتقدمين في فصل التراكيب أو توسل بدعائه ، وهذا على الوجه الثاني منهما . فمن أخذ بالوجه الأول قال يجوزالتوسل بذاته ، ومن أخذ بالوجه الثاني قال انما يتوسل بدعائه ، ثم ان من أخذ بالوجه الأول فهذا الدعاء حكمه باق بعد وفاته كما كان في حياته ، ومن أخذ بالوجه الثاني لا يكون بعد وفاته . لان دعاءه انما

كان في حياتــه لمن دعا له • فالوجهان المتقدمان ــ كما ترى ــ هما مثار الخلاف في جواز التوسل بذاته وعدم جوازه ، فمن أخذ بالوجه الأول جوّز ومن أخذ بالثاني منع •

سؤال :

فان قلت قــد عرفنا القولين وعرفنا مدركهما فما هو الراجــح عندك منهما ؟

جوابه :

الراجح هو الوجه الأول الذي يجيز السؤال بذات النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ نظرا لمقامه العظيم عند ربه لوجهين : لأول : ان ذلك هو ظاهر اللفظ ولا موجب للتقدير ولا منافاة بين أن يكون في قوله أسألك وأتوجه اليك بنبيك وقوله اني توجهت بك قد سأل بذاته • وفي قوله : (اللهم شفعه فيّ) قد سأل قبول دعائه له وسؤاله • والثاني : انه لما كان جائزاً السؤال من المخلوقين بما له من مقام عظيم عندهم فلا مانع من أن يسأل الله تعالى بنبيه بحسب مقامه العظيم عنده •

سؤال آخر :

بعد ما رجحت جواز التوسل بذاته ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ نظراً لمقامه العظيم عند الله تعالى فهل يقاس عليه غيره من كل ذي مقام عند الله تعالى فيتوسل به أو يكون هذا مقصوراً عليه ؟

جوابه :

القياس في باب العبادات ضعيف ، واذا ارتكب هنا فلا يقاس عليه الاّ كلّ ذي مقام محقق عند الله تعالى •

سؤال آخر :

بعد ما عرفنا حكم سؤال الله تعالى بأهل المكانة عنده من مخلوقاته •

فهل الأفضل هو سؤاله بمخلوقاته أو سؤاله بأسمائه وصفاته وأعمال العبد في طاعاته ؟

جوابه :

الأفضل هو سؤاله تعالى بأسمائه وصفاته وأعمال العبد في أنواع طاعاته ، وذلك لوجهين : الأول : ان ذلك هو مقتضى النص القرءاني الصريح القطعي فيقوله تعالى : « وَلله الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » ويشمل ذلك تسميته بها ونداءه بها . الوجه الثاني : ما جاء في السنة العملية في أحاديث كثيرة ثابتة مستفيضة ، كان سؤاله تعالى فيها كلها بأسمائه وصفاته منها حديث : **(أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك الخ)** رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود ، ومنها حديث رجل كان يصلي في المسجد فقال : اللهم اني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والاكرام يا حي يا قيوم أسألك . فقال النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : **دعا الله باسمه الأعظم الذي اذا دعي به أجاب واذا سئل به أعطى .** رواه أصحاب السنن الأربعة من طريق أنس ، ومنها حديث : **اني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق** . رواه النسائي والحاكم من طريق عمار بن ياسر ، وهكذا سائر الأحاديث التي جاءت في هذا الباب كلها متواردة على دعاء الله تعالى بأسمائه وصفاته ؛ وهي كلها تحقيق وبيان لقوله تعالى : (وَلله الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) . هذا كله في دعائه تعالى بأسمائه وصفاته . وأما ما جاء في دعائه والتوسل اليه بعمل العبد في أنواع طاعاته ، فمنها حديث بريدة : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ سمع رجلا يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد (والشهادة عمل العبد) أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ، فقال رسول الله ــ صلى لله عليه وآله وسلم ــ : **لقد سألت الله بالاسم الأعظم**

الذي اذا سئل به اعطى واذا دعي به اجاب • رواه أبو داوود والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والحاكم إلا أنــه قال : **لقد دعوت الله باسمه الاعظم** ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، قال الحافظ عبد العظيم المنذري ، قال شيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسي : وإسناده لا مطعن فيه • ومنها حديث الثلاثة الذي[1] آووا الى غار فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها لعله يفرجها عنكم فدعا أحدهم ببروره والديه ، فانفرجت منها فرجة ، ودعا الثاني بعفته عن الزنا بعد ما كاد فانفرجت فرجة ، ودعا الثالث بوفائه لأجيره ، فانفرجت البقية • وهذا حديث صحيح مشهور رواه الشيخان وغيرهما [2] • ومن ذلك حديث سارة زوج ابراهيم عليه السلام لما مدّ الجبار الظالم اليها يده يريدها على السوء ، قامت تتوضأ وتصلي وقالت : اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلاّ على زوجي فلا تسلط علي الكافر ، فغط حتى ركض برجله • فقالت : اللهم ان يمت يقال هي قتلته ، فأرسل فعاد اليها وعادت الى الدعاء كالمرة الأولى ، وفي الثالثة تركها وقال : ارجعوها الى ابراهيم • رواه مفصلا البخاري في كتاب البيوع من صحيحه من طريق أبي هريرة ، فانظر اليها كيف توسلت لربها بايمانها الذي هو أشرف أعمالها ، وبعفتها

(١) كذا في الاصل وجوابه : الذين .

(٢) رويت القصة باختلاف الالفاظ في كتاب الفرج بعد الشدة ص ٢٨ ــ ٢٩ وقال التنوخي صاحب الكتاب : هذا حديث مشهور رواه عن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ علي بن ابي طالب ، وعبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن ابي اوفى ، والنعمان بن بشير الانصاري ، رضي الله عنهم . وعن كل واحد منهم عدة طرق . وقد اختلف في الفاظه والمعنى واحد .

وإحصانها لفرجها ولم تتوسل اليه برسوله وخليله زوجها ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

سؤال آخر :

بعد ما عرفنا رجحان سؤاله تعالى بالأسماء والصفات والطاعات فهل ثبت عن الصحابة سؤالهم وتوسلهم بذاته ؟

جوابه :

لم يثبت عن واحد منهم شيئاً [1] من ذلك فيما لدينا من كتب السنة المشهورة ، بل ثبت عدولهم عن ذلك في وقت مقتض له لو كانوا يفعلونه وذلك في حديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله تعالى عنهما ، فقد أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن أنس : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، فقال : اللهم إنا كنا نتوسل اليك بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقينا ، وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا . قال : فيسقون . ومعنى الحديث أنهم كانوا يتوسلون بالنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يدعو لهم في الاستسقاء ويدعون ، ثم صاروا يتوسلون بالعباس فيدعو لهم ويدعون ، فالتوسل هنا قطعا بدعائهما لا بذاتهما . ووجه الاستدلال بهذا الحديث على مرجوحية التوسل بالذات أن الصحابة لم يقولوا في موقفهم ذلك : اللهم انا نتوسل اليك بنبينا أي بذاته ومقامه بل عدلوا عن ذلك الى التوسل بالعباس يدعو لهم ويدعون كما كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يفعل في الاستسقاء . ولقد استدل بعضهم بعدول الصحابة عن التوسل بذات النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في هذا المقام على منعه ، ونحن لما بينا قبل من دليل جوازه انما نستدل بعدولهم على مرجوحيته .

---

(١) كذا في الاصل جوابه : شيء .

سؤال آخر :

قد عرفنا فيما تقدم مشروعية سؤال المؤمن من أخيه المؤمن في حياته أن يدعو له فهل يشرع الذهاب الى القبر وطلب الدعاء من الميت ؟

جوابه :

لو كان هذا جائزاً لفعله الصحابة في الحديث المتقدم ولذهبوا لقبر النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يسألونه أن يدعو لهم كما كان يدعو لهم في حياته ، ولم يرد في حديث عن واحد منهم أنه كان يذهب الى القبر النبوي ويطلب منه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أن يدعو له ، بل جاء عن ابن عمر ــ وهو من عرف بشدة اتباعه وتحريه ــ أنه كان يقف فيسلم على النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ثم على أبي بكر ثم على عمر رضي الله تعالى عنهما ثم ينصرف لا يزيد شيئاً • أخرجه مالك في الموطأ •

تلخيص وتحصيل :

تحصل لنا من جميع ما تقدم : (١) أن دعاء المخلوق وحده أو مع الله ممنوع • (٢) وأن التوسل بدعائه في حياته وهو من المؤمنين مطلوب ومشروع • (٣) وأن التوسل بذات النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ جائز مرجوح • (٤) وأن التوسل بذات غيره من أهل المكانة المحققة له وجه في القياس • (٥) وأن التوسل بذات غيره ممن ليس لنا اليقين القاطع بمقامه لا وجه له • (٦) وأن طلب الدعاء منه بعد موته بدعة لم يفعلها الصحابة • (٧) وأن الراجح في التوسل الى الله هو التوسل اليه بأسمائه وصفاته وأعمال العبد في أنواع طاعاته •

هذه سبع مسائل كثر فيها هذه الايام القال والقيل ، وتعرض لها من الكتاب الأصيل والدخيل ، وقد منّ الله بتحريرها على هذا الوجه الذي لم أره لغيري ، وقد كنت في تحريرها علم الله باحثاً منصفاً

متجرداً فما كان فيها من حق وصواب فهو من الله وما كان فيها — عياذاً بالله — من باطل وخطأ فهو مني وأستغفر الله والخير قصدت وحسبنا الله ونعم الوكيل [1] .

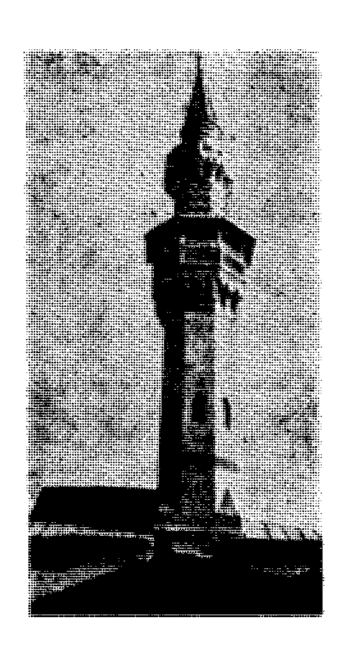

(١) ش : ج ٣ ، م ٨ ، ص ١٤٥ — ١٥٥
غرة ذي القعدة ١٣٥٠ هـ — مارس ١٩٣٢ م .

حق النساء في التعليم

عن أبي سعيد الخدري — رضي الله عنه — : قالت النساء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : « غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك » فوعدهن يوما لقيهن فيه ، فوعظهن وأمرهن • فكان فيما قال لهن : « ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها الا كان لها حجابا من النار » • فقالت امرأة : واثنتين ، فقال : واثنتين • رواه البخاري •

الشرح :

كان الرجال يلازمون النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — فيحيطون به للتعلم فلا يستطيع النساء مزاحمتهم عليه وكن يجلسن في آخر صفوف المسجد ، فاذا تحدث النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — بالعلم بعد الصلاة لا يتمكن من كمال السماع ، وكانت لهن رغبة في العلم مثل الرجال إذ كلهن يعلمن أنهّن مكلفات بأحكام الشريعة مثلهم• فلذا سألن رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — أن يعيّن لهن يوما باختياره هو يخصصهن به • فأجابهن الى ما طلبن ووعدهن يوما يعينه ووفى لهن بوعده ، فلقيهن في ذلك اليوم وحدهن فوعظهن وأمرهن بأشياء مما عليهن من أمر الدين • واخبرهن بأن كل واحدة منهن يموت لها ثلاثة من ولدها فتقدمهم قبلها فان ذلك التقديم يكون لها حجابا ووقاية من النار لعظم الأجر بعظم المصيبة ، فطمعت احداهن في فضل الله وخافت أن يكون هذا الفضل محصورا فيمن قدمت ثلاثة فسألت عمن قدمت اثنتين فاخبرها رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — بانه لمن قدمت اثنتين أيضا •

الأحكام والفوائد :

النساء شقائق الرجال في التكليف ، فمن الواجب تعليمهن وتعلمهن وقد علمهن — صلى الله عليه وآله وسلم — وأقرهن على طلب التعلم ، واعتنى بهن وتفقدهن كما في حديث ابن عباس : ان رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — خرج ومعه بلال ، فظن انه لم يسمع النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم . وبلال يأخذ في طرف ثوبه .

✓ لا يجوز اختلاط النساء بالرجال في التعلم ، فأما أن يفردن بيوم كما في هذا الحديث ، وأما أن يتأخرن عن صفوف الرجال كما مرّ في حديث ابن عباس — رضي الله عنه — يجعل لتعليم [1] النساء يوم خاص بهن ويتكرر هذا اليوم بقدر الحاجة . ولما كانت الحاجة دائمة فاليوم مثلها .

فيه عظيم أجر من أصيب في أفلاذ كبده اذا حزن ولم يقل قبيحا وجاء التنصيص على الرجال فهم مثل النساء في هذه المثوبة .

وفيه البداية في التعليم بما تشتد اليه حاجة المتعلم . فان حنان النساء وضعفهن يحملانهن على الجزع الشديد وقد يخرج بهن الى القبيح فذكر لهن ما يكون عدة لهن ووقاية عند نزول المصيبة .

وفيه ما ينبغي من تهيئة القلوب وتحضير النفوس لتلقي التكاليف الشرعية لتنشرح لها الصدور وتنشط فيها الجوارح ولذا قدم الوعظ على الأمر .

اقتداء :

ان الجهالة التي فيها نساؤنا اليوم هي جهالة عمياء ، وان على

(١) في الأصل : لتعيلم .

أوليائهن المسؤولين عنهن اثما كبيرا فيما هن فيه • وان أهــل العلم والارث النبوي مسؤولون عن الأمة ، رجالها ونسائها ، فعليهم أن يقوموا بهذا الواجب العظيم في حقّ النساء بتعليمهن خلف صفوف الرجال ، وفي يوم خاص بهن اقتداء بالمعلم الأعظم : عليه وعلى آله الصلاة والسلام[1] •

(١) ش : جـ ٢ ، م ١٥ ، ص ٦٤ ـ ٦٦ •
صفر ١٣٥٨ هـ مارس ١٩٣٩ م •

تعليم النساء الكتابة

عن الشفاء بنت عبد الله قالت : دخل عليّ النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — وأنا عند حفصة فقال لي : « ألا تعلمين هذه رقيـة النملة كما علمتها الكتابة » . رواه ابو داوود .

السند :

رجاله رجال الصحيح الا ابراهيم بن مهدي البغدادي فلم يخرج له فيهما ، لكنه ثقة . وثقه أبو حاتم وابن نافع وابن حيان ، وقد تابعه غيره . وخرج الحـديث أيضا النسائي والبيهقي في السنن الكبرى والامام أحمد .

المتـن :

الأشخاص : الشفاء هي بنت عبد الله القرشية العدوية من السابقات والمهاجرات الأول — رضي الله عنها — وحفصة هي بنت عمر بن الخطاب أم المؤمنين رضي الله عنهما .

الألفـاظ :

النملة قروح تخرج في الجنب ، ورقيتها كلام كانوا يقولونه عليها مما لا محظور فيه فأقره النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — . ولم يذكر الرواة نصه .

المعـنى :

عرف — صلى الله عليه وآله وسلم — ان الشفاء كانت علمت حفصة

الكتابة ، وكانت الشفاء من عاقلات النساء وعارفاتهن ، فدعاها الى تعليم حفصة رقية النملة وحثها عليها ، ونشطها لذلك بتذكيرها بتعليمها لها الكتابة ، فمن كان من شأنه عمل من الأعمال خف عليه القيام به . مبينا لها بذلك أن تعليم هذه مثل تعليم تلك في النافع وفعل الخير .

الأحكام والفوائد :

فيه مشروعية الرقية وذلك بشرط أن تكون بالكلام المفهوم الذي لا محظور فيه كما دلت عليه الآثار ، واذا كانت الأدوية سببا للشفاء بخواصها فبعض الأقوال تكون في ذلك مثلها تلك من ناحية البدن وهذه من ناحية الروح وقد دلت على هـذا وذاك التجربة وأقرت الجميع الشريعة .

وفيه تعلم الرقية وتعليمها مثل كل ما يمكن أن ينتفع به على الوجه المشروع وفيه حث العارف بشيء مما يحتاج اليه الناس أن ينشره بينهم ويعلمهم اياه .

وفيه تعليم النساء الكتابة واستدل به على ذلك جماعـة من الأئمة منهم الخطابي في شارح السنن ، وصاحب المنتقى .

توسع في الاستدلال :

وأقوى منه في الاستدلال العمومات القرآنية المتكاثرة الشاملة للرجال والنساء ، فان مذهب الجماهير وهو المذهب الحق ان الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء الا بمخصص يخرجهن من نص او اجماع أو بضرورة طبيعية . لان النساء شقائق الرجال في التكليف ولا خلاف في انه اذا اجتمع النساء والرجال ورد الخطاب او الخبر مذكرا على طريقة التغليب .

وتأمل قوله تعالى : « وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالعَدْلِ »

وقوله تعالى : « وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُم ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ » . كيف نص في الثانية على الرجال لما كان الحال مقتضيا لهم ، وأطلق في الأولى فدل على انه لا فرق بين أن يكون الكاتب رجلاً أو امرأة ، وهو من أدلته مشروعية تعلم النساء الكتابة ، وكل آية دعت للعلم ، قد دعت للكتابة لأن الله قد بين لنا أنه علم بالقلم ليبين لنا أن القلم هو طريق العلم وآلة حفظه وتدوينه وأقسم بالقلم تنويها بشأنه وجاء ذلك كله على الخطاب العام الشامل للنساء شموله للرجال والعمومات اذا تكاثرت افادت القطع ولهذا جعلنا هذا الطريق من الاستدلال اقوى من الاستدلال بالحديث الذي هو خبر آحاد وخبر الآحاد ـ من حيث ذاته ـ يفيد الظن وان كان صحيحا . وحيث تواردت تلك العمومات وثبت هذا الحديث فقد بلغ الدليل بنصه وقطعيته غاية القوة والبيان .

الاقتداء :

فاستنادا الى هذه الأدلة ، وسيراً على ما استفاض في تاريخ الأمة ، من العالمات الكاتبات الكثيرات ـ علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا في رجالنا ونسائنا على أساس ديننا وقوميتنا الى أقصى ما يمكننا أن نصل اليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء ، وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة ، وبذلك نستحقُ ان تتبوأ منزلتنا اللائقة بنا والتي كانت لنا بين الأمم[1] .

● ●

(١) ش : ج ٣ ، م ١٥ ، ص ١١٠ ـ ١١٢ .
غرة ربيع الاول ١٣٥٨ هـ ـ افريل ١٩٣٩ م .

ستر وجه المرأة من الدين

على ما فيـــه من تفصيل

« مالك عن هشام بن عروة ، عن فاطمة بنت المنذر أنها قالت : كنا نخمر وجوهنا ونحن محرمات ونحن مع أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما » .

السند :

هذا سند من بيت البركات على المسلمين : بيت الصديق رضي الله عنه ، فعروة هو ابن الزبير وأمه أسماء . والمنذر أخوه شقيقه . وهشام وفاطمة زوجان وأبناء عم وجدتهما أسماء ، رضي الله عنهم .

المـــتن :

تخمير الوجه : تغطيته بغير النقاب وما في معناه مما يشد على الوجه. وذلك بأن تسدل الثوب على وجهها نازلا من رأسها . وجاء هذا مبيناً في حديث عائشة الذي رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجة وغيرهم ، قالت : « كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ محرمات . فاذا حاذوا بنا أسدلت احدانا جلبابها من رأسها على وجهها ، فاذا جاوزونا كشفناه » .

الاحتجاج :

أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما من أهل العلم والدين ، فما كان يخفي عليها ما جاء من نهي المرأة عن النقاب وهي محرمة .

فلو كان التخمير مثله لما أقرتهن عليه وما كانت لتفرق بينهما برأيها ، وفي كليهما ستر وتغطية لولا أنها على توقيف من النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — في التفريق ما بينهما • ولهذا احتج مالك رضي الله عنه بتقريرها فخرجه في موطئه •

التاييد :

يؤيد هذا حديث عائشة المتقدم وفيه تقرير النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — لهن على ما فعلن • وهو حديث محتج به : والذي وقع فيه كلام من رواته — وهو يزيد بن أبي زياد — قد قبله مسلم وجعله ممن يشمله اسم الستر والصدق وتعاطي العلم • كما في مقدمة صحيحه•

الأحكام والاستدلال :

ستر وجه المرأة عن رؤية الأجنبي مشروع بالتقرير النبوي له في وقت الاحرام الذي هو وقت كشف وجه المرأة : ولذلك كن — كما في حديث عائشة — يكشفن وجوههن اذا جاوزهن الركبان • ومانهيت المرأة عن النقاب في الاحرام الا وقد كان النقاب من شأنها وعادتها — والعادة التي يقرها النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — لمصلحة تصير من الدين باستنادها الى التقرير النبوي الذي هو أصل من أصول التشريع ، والمصلحة المراعاة هنا هي سد ذريعة افتتان الرجال بالنساء بسبب النظر ، ودفع هذه الفتنة على اعتباره القول والفعل النبويان كما في حديث الخثعمية الآتي قريبا ، ولما لم يكن وقوع الافتتان محققا دائماً لم يكن ستر الوجه حتما لازما في كل حال بل يجوز للمرأة الكشف عند عدم تحقيقها كما في حديث الخثعمية ايضا على ما سيأتي من البيان •

حديث الخثعمية :

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كان الفضل بن عباس

رديف رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر اليها وتنظر اليه ، فجعل رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يصرف وجه الفضل الى الشق الآخر اهـ

المقصود منه :

رواه مالك والجماعة ، وفي رواية الترمذي من طريق علي كرم الله وجهه قال : واستفتته جارية شابة من خثعم فقالت : أبي شيخ كبير قد أدركته فريضة الله في الحج أفيجز لي أن أحج عنه ، قال : حجي عن أبيك ، قال ــ علي ــ ولوى عنق الفضل فقال العباس : يا رسول الله ، لويت عنق ابن عمك ، قال : رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما .

ففي قوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لم آمن عليهما الشيطان أن الفتنة لم تقع وانما خاف وقوعها فسد ذريعتها ، وفي قوله هذا وفعله دليل على مراعاة الفتنة ، وسد ذريعتها ، وفي عدم أمره للمرأة بستر وجهها دليل على جواز ذلك لها ، وهذا بناء على أنها كانت مكشوفة الوجه ، كما هو الظاهر من نظر الفضل اليها ، ومن خوف الفتنة وهو الذي فهمه أكثر الناس ، وان احتمل ان تكون مستورة الوجه بما سدلته من رأسها كما قاله ابن العربي .

تحصيل :

ستر وجه المرأة مشروع راجح وكشفه عند أمن الفتنة جائز وعند تحققها واجب ، وأمر الفتنة يختلف باختلاف الأعصار والأمصار والاشخاص والأحوال فيختلف الحكم باختلاف ذلك ويطبق في كل بحسبه .

تطبيق :

من المسلمين اليوم أقوام ــ معظمهم من غير أهل المدن والقرى ــ

ألفوا خـروج نسائهم سافرات فـلا يلفتن أنظارهم بذلك ، فهؤلاء لا يطالبن بستر الوجوه مع بقاء حكم غض البصر وحرمة تجديد النظر ، ومن المسلمين أقوام ــ معظمهم من أهل المدن والقرى ــ ألفوا ستر وجوه النساء فكشف المرأة بينهم وجهها يلفت الانظار اليها ، ويغري أهل الفساد بها ، ويفتح بابا للقال والقيل في شأنها ، وشأن أهلها ، وعشيرتها ، فهؤلاء يجب عليهن ستر وجوههن ، اتقاء للشر والفتنة والوقيعة في الأعراض .

هذه أحكام عامة لنساء المؤمنين ــ ولأمهات المؤمنين زوجات النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أحكام خاصة بهم ، على أنهن خـير القدوة للنساء أجمعين .

تفرقة وتحذير :

هنا سفور إسلامي وهو كشف المرأة وجهها ــ دون شعرها وعنقها ــ عند أمن الفتنة ، مع عدم إظهار الزينة ، غير الوجه والكفين ، وعدم إثارة الفتنة بروائح الطيب وخشخشة الحلي ورنين الخلخال .

وهنالك سفور إفرنجي فيه كشف الشعر والعنق والأطراف مع التبرج بالزينة وما اليها ، فعلينا ــ معشر المسلمين ــ أن نوجه قوتنا كلها الى منع السفور الافرنجي الذي قد طغى حتى على نساء أمراء الشرق المسلمين ووزرائه ، وان نحذر كل ما يؤدي اليه وأن نحافظ على الوضعية الاسلامية العفيفة الطاهرة بسفورها ــ اذا كان سفوراً على ما فصلناه ــ في دائرة محدودة ليس فيها إثارة ولا إغراء .

توصية :

على المربين لأبنائنا وبناتنا أن يعلموهم ويعلموهن هذه الحقـائق

الشرعية ليتزودوا وليتزودن بها وبما يطبعوهم ويطبعوهن[1] عليه من التربية الاسلامية العالية ،لميادين الحياة فيكونوا ويكنّ – ان شاء الله تعالى – مثال الطهر والعفاف ، والصون للاجيال ، حقق لله الآمال ويسر الصالح من الأعمال إنه عظيم الفضل كريم النوال [2] .

(۱) كذا في الاصل .

(۲) ش : جـ ۱ ، م ۱۳ ، ص ٥ – ۸ .
غرة محرم ١٣٥٦ هـ – ١٤ مارس ١٩٣٧ م .

النساء والكمال

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « كمل من الرجال كثير ، ولم تكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون . وان فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

رواه البخاري ومسلم

تمهيد :

ان الكمال الانساني متوقف على قوة العلم وقوة الارادة وقوة العمل ، فهي أسس الخلق الكريم ، والسلوك الحميد ، اللذين ينهض بهما بجلائل الأعمال ويبلغ بهما الى أسمى غايات الشرف والكمال ، والمرأة لما خلقت لقسم الحياة الداخلي أعطيت من القوى الثلاث القدر الذي تحتاج اليه منها وهو دون ما يحتاج اليه الرجل الذي خلق للقيام بقسم الحياة الخارجي فكانت بخلقتها أضعف منه في العلم والارادة والعمل فكانت لذلك دونه في الكمال ، وتقسيم الحياة الى قسميها ضروري لبقاء النسل وحفظه وتقسيم وظيفة الحياة بين الرجل والمرأة ، واعطاء كل واحد منهما القدر الذي يحتاج اليه في وظيفته من بديع صنع الحكيم الخبير ، فلو لم يعط الرجل ما أعطى من كمال القوى لما استطاع القيام بالاعمال الكبيرة في قسمه ولو اعطيت المرأة مثل ما أعطى لما صبرت على البقاء في قسمها فأخلته فاختل النظام فحصل الفساد . ونحن نرى اليوم المرأة في المدنية الغربية ومقلديها لما خيل اليها انها قوية مثل الرجل هجرت وظيفتها أو اهملتها وخرجت

تزاحم الرجل في وظيفته فأضرت بالقسم الداخلي من الحياة باهماله واضطرابه وأضرت بالقسم الخارجي بمزاحمة الرجل وزحزحة قسم كبير منه عن العمل وتعريضه للفتن ، والامم الغربية اليوم تشكو مر الشكوى من تفكك نظام الاسرة وانحلال رباط الاخلاق الزوجية وبعضها عاجز عن تدارك أمره بما فيه من فوضى الآراء وتشعب الاهواء وتأصل الداء ، وبعضها قد أخذ يعالج الحالة بما فرضه على العزابة من ضريبة مالية وما جعله من مكافآت للمتزوجين والمتزوجات .

الارشاد النبوي :

فأراد النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أن يعرفنا بهذا الضعف في جنس المرأة حتى لا نعدو بها ما خلقت له من وظيفة القسم الداخلي من الحياة فنظلمها ونظلم الحياة ، وأراد أن يدلنا على ضعفها بدليل تاريخي مشاهد للأجيال ، فذكر لنا تخلفها عن الرجل في بلوغ ذروة الكمال ، فأخبرنا انه قد كمل في الأمم الماضية من الرجال كثير وما كمل منهم من النساء غير امرأتين . وذكر فضل عائشة على نساء وقتها كفضل الثريد على الطعام من أطعمة العرب ليجمع بين الحديث على الأمم الماضية وأمته ويدل على استمرار الكمال في النساء مثل استمراره في الرجال كل بما قدر ويسر له .

الى اي درجات الكمال بلغتا :

قد بينت درجات الكمال في قوله تعالى : « فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » وقد ذهب بعض الناس الى أن كمال مريم وآسية ببلوغهما درجة النبوة ، وذهب الأكثرون الى أنهما لم تبلغا اليها وانما بلغتا ما دونها من رتبة الصديقية ، واستدلوا بما تقتضيه

رتبة النبوة من الظهور لهداية الناس وارشادهم ، وذلك غير ما خلقت له المرأة ، وهذا الحديث ليس نصا في كمال النبوة فلا تقوم به الحجة . وقد جاء في صحيح مسلم من طريق علي ــ رضي الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول : **«خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة»** . فاخبر بخير نساء الدنيا في الأمم الماضية وخير نساء الدنيا في هذه الأمة ، فكما لم تكن هذه نبية لم تكن تلك نبية ، على ظاهر الفرق مابينهما في الخيرية.وذهب قوم الى نبوة مريم بدليل أن الملائكة خاطبتها باصطفاء الله لها وأمرها بالقنوت والسجود والركوع في قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » وهذه هي النبوة : تبليغ الملائكة وحي الله بالاصطفاء والتكليف لمن يشاء من عباده . فهذا الدليل القوي دليل على خصوصية مريم البرة النقية عليها السلام بهذه المزية بين بنات حواء كلهن .

الاقتداء :

هؤلاء السيدات الكاملات كلهن قد كملن في الدين فمنهن أمّ نبي ومنهن زوجة نبي ومنهن منقذة نبي . فعلينا أن نكمل النساء تكميلا دينيا يهيئن للنهوض بالقسم الداخلي من الحياة واعداد الكاملين ومساعدتهم للنهوض بالقسم الخارجي منها . وبذلك تنتظم الحياة انتظاما طبيعيا تبلغ به الانسانية سعادتها وكمالها (١) .

(١) ش : ج ٦ ، م ١١ ، ص ٣٤٦ ــ ٣٤٨
جمادي الثانية ١٣٥٤ هـ ــ ١٩٣٥ م .

شهيدة في ميدان الوغى[1]

« مالك ، عن اسحق بن أبي طلحة ، عن أنس بن مالك ، قال : كان رسول الله اذا ذهب الى قبا يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه — وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت — فدخل عليها رسول الله فأطعمته وجلست تفلي في رأسه ، فنام رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — يوما ثم استيقظ وهو يضحك ، قالت : فقلت : ما يضحكك ؟ قال : ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة — يشك اسحق — قالت : فقلت : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، فدعا لها ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ يضحك ، قالت : فقلت : يا رسول الله ما يضحكك ؟ قال : ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة ، كما قال في الأولى ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : أنت من الأولين ، قالت : فركبت البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت » .

السنـد :

ثبت عند البخاري من طريق الليث تصريح أنس بالرواية عن أم حرام خالته ، فكان أنس مرة يصرح بها ومرة لا يصرح ، واذا روى الصحابي ما هو من أقوال النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — وشؤونه عن غيره فلا يقدح في حديثه عدم تصريحه بمن روى عنه لأن غيره

---

(١) العنوان من وضع المعلق .

صحابي مثله ، والصحابة كلهم عدول ، ورواة هذا الحديث ــ غير مالك ــ أقارب ، فان اسحاق ابن عم أنس وأم حرام خالة أنس ، وقد روى هذه القصة بلفظ أخصر عن أم حرام أو آخر عمير بن الاسود العنسي • اخرجه البخاري •

المتن :

جاء عنه بألفاظ متقاربة كلها متفقة على أصل المعنى ، وخرجه البخاري بتلك الألفاظ في مواضع من صحيحه •

العربية :

فلي الرأس : تفتيشه لاخراج الهوام أو للتنظيف من غبار ونحوه ، والمقصود هنا الثاني لأن الاخبار متواترة تواتراً معنوياً بنظافة جسمه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وطيب ريحه وعرقه • وثبج البحر : وسطه ، وهو معظمه ومحل هوله •

سؤال وجوابه :

ما وجه دخوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ عليها وتمكينها من فلي رأسه ؟ كانت محرما له بالخؤولة أو بالرضاعة ؛ حكاه الأئمة •

تحقيق تاريخي :

أول ما ركب المسلمون البحر للغزو في خلافة عثمان ــ رضي الله عنه ــ استأذنه معاوية ــ رضي الله عنه ــ فأذن له فغزا قبرص سنة سبع وعشرين • ذكره ابن الاثير وغــيره ، وأول ما غزا المسلمون القسطنطينية وركبوا اليها البحر كان في خلافة معاوية سنة ٢٨ هـ ، وكان في ذلك الجيش أبو أيوب الانصاري دفينها •

تطبيق على هذا الحديث :

خرجت أم حرام مع زوجها وركبت البحر في زمان معاوية ، أي

في زمان امارته ، وكان ذلك أول جيش ركب البحر ، وكانت هي معهم وتوفيت بعد خروجها من البحر ونزولها في أرض قبرص ، كما ذكره ابن عبد البر وغيره ، وأما الجيش الثاني فهو الجيش الذي غزا القسطنطينية ولم تكن أم حرام معهم . وما جاء في صحيح البخاري صريح فيما قلناه من تعين الجيش الأول والجيش الثاني . ونصه من طريق عمير بن الأسود عن أم حرام قالت : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول :**أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا** قالت أم حرام قلت : يارسول الله ، أنا فيهم ، قال : **أنت فيهم** . ثم قال النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : **أول جيش من امتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم** . فقلت : أنا فيهم يا رسول الله ؟ قال : لا » .

فكانت مع أول جيش غزا البحر وهو جيش معاوية الى قبرص لا غيره كما حققنا .

الاحكام :

فيه دخول الرجل على محرمة دون حضور الزوج . وفيه سنة إطعام الزائر ، وفيه تصرف المرأة فيما تحت يدها من مال زوجها من الطعام بالمعروف . وفيه مباشرة محرم الرجل له في غير العورة . وفيه سنة القيلولة . وفي سنة إظهار السرور بالنعم والطاعات ، وفيه جواز سؤال من بدر منه ما لا يعرف سببه ، وفيه الاهتمام بكل ما يصدر منه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ، وفيه جواز ركوب البحر ، وفيه جواز التوسع بالحلال ، وفيه فضل الغزو في البحر ، وفيه سؤال الشهادة،وفيه سنة طلب الدعاء ممن ترجى اجابته ، وفيه الدعاء ممن طلب منه ، وفيه غزو النساء مع الرجال .

الفوائــد :

منها : ان رؤيا الأنبياء ــ عليهم الصلاةوالسلام ــ وحي محفوظ،وقد

كان الصحابة يعلمون هذا علما عاماً ولذلك سألت أم حرام أولا وثانيا سؤال المتيقن بوقوع الغزو على الوجه الذي ذكر ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ثم قد تكون رؤياهم بالمثال كما رأى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بقرة تنحر فأولها بمن قتل من أصحابه في غزوة «أحد» وقد تكون بالصريح الذي لا يحتاج الى التأويل كما هنا ، ومنها تحقيق استجابة دعائه اذا دعا ، ولهذا قال لها في الثانية ـ جازما ـ : أنت من الأولين • وهذا فيما لم يعلم بالمنع منه كما في حديث وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض ، يعني أمته فمنعنيها • ومنها أن من معجزاته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اخباره بأمور غيبية لم يكن شيء مما يدل عليها أو يقتضي وقوعها يوم أخبر فوقعت كما أخبر فركب أصحابه البحر وغزوا الروم ومدينة قيصر من بعده بينما كانوا يوم أخبر بهذا من أبعد الامم عن ركوب البحر والبراعة فيه وكانت أم حرام مع الطائفة الأولى كما أخبرها ، وكانت منهم على أبلغ وجه حيث فازت بالثمرة المقصودة من الغزو وهي الشهادة وان كان موتها في غير مباشرة القتال لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : **ومن قتل في سبيل الله فهو شهيد ومن مات في سبيل الله فهو شهيد** • رواه مسلم ولقوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إلى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموْتُ فَقَدْ وَقَعَ أجْرُهُ عَلَى اللهِ »

الموعظة :

علم الله ان السيادة في البر لمن ساد في البحر ، وان أقسام الأرض المتقاطعة وأصناف الأمم المتباينة ، لا يقرب بينها • ويفتح الطريق لتواصلها وتعارفها ، وينقل مدنياتها من بعض الى بعض منها إلا ركوب البحر وملك ناصيتها ، فجاءت الآيات القرآنية العديدة في ذكر البحر

وصفاته ومنافعه وسفنه وبديع الصنعة فيه وعظيم النعمة به . وجاء هذا الحديث يبشر الأمة الاسلامية بما هيء لها من أسباب السيـادة ويعرفها انها أمة ملك وسلطان وقوة وانها ستملك البحار ، وتغزو الأمصار الكبار ، يعرفها بهذا ويدعوها اليه لتعد له عدته وتأخذ له طريقه وتتوصل اليه بأسبابه . اذ لا يكون ملك الا باسباب الملك ، ولا تكون قوة الا باسباب القوة ولا تكون السيادة الا باسباب السيادة، وقد علمت من دينها ان السيادة لا تكون الا بالملك وان الملك لا يكون الا بالقوة : قوة الأبدان وقوة العقول وقوة الأخلاق وقوة المال — وبهذه يكون العدل الذي هو أساس الملك — وان لا قوة الا بالعلم والعمل والتهذب ، فاذا دعاهم هذا الحديث الى السيادة فقد دعاهم الى هذا كله ونبههم على هذا التقدير المحكم الذي ارتبط بعضه ببعضه وعلى انه لا سبيل الى غايته إلاّ باتيانه من بدايته ، وقد فهم المسلمون هذا دهرا فسلكوه فانجز لهم الله وعده ، وجهلوه ادهارا فتركوه فاذاقهم الله بأسه ، وما ربك بظلام للعبيد . ولئن عادوا اليه ليعودن اليهم ، ولن يخلف الله الميعاد (١) .

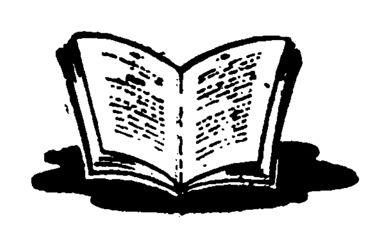

(١) ش : ج ١ ، م ١٠ ، ص ٩ — ١٤
غرة رمضان ١٣٥٢ هـ — فيفري ١٩٣٤ م .

خروج النساء الى المساجد

« روى مسلم في صحيحه بسنده عن سالم بن عبد الله بن عمر ، إن عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول: لاتمنعوا نساءكم المساجد اذا استأذنكم اليها • قال : فقال بلال بن عبد الله : والله لنمنعهن • قال : فأقبل عليه عبد الله فسبه سبا سيئا ما سمعته سبه مثله قط ، وقال : أخبرك عن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وتقول : والله لنمنعهن » •

الشرح :

قد صح من السنة العملية والسنة القولية خروج النساء الى المساجد وحضورهن مشاهد الخير ، وثبت نهي الرجال عن منعهن من ذلك ، ومنه ما في هذا الحديث • وعليهن قبل الخروج أن يستأذن الرجال كما هو مقتضى قوله اذا استأذنكم اليها ، كما ثبت أيضا نهيهن عن مس الطيب اذا أردن الخروج وعليهن لا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وأن يضربن بخمرهن على جيوبهن وان يدنين عليهن من جلابيبهن وهي ما يجعل فوق الثياب كلها كالملاءة ونحوها وان لا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن فلا يسمع منها خشخشة الحلي ولا رنين الخلخال • وأن يمشين في حافات الطريق ولا يحاققن الطريق ، أي لا يمشين في وسطه وهذه كلها مأخوذة من الآيات والأحاديث في هذا الباب ولما سمع بلال بن عبد الله أباه يحدث بهذا الحديث عن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قابله بالرد وقال والله لنمنعهن فغضب أبوه غضبا شديدا وسبه وشتمه سبا سيئا مقابلا لقوله السيء ومقابلته للحديث النبوي بالمعارضة •

نفي تعارض :

ثبت عن عائشة انها قالت : لو ان رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ رأى ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء بني اسرائيل ، وهذا لا يعارض ما تقدم ، لأن الذي أحدثنه هو الطيب والزينة وهو نهي عن منعهن ونهاهن عن مس الطيب عند ارادة الخروج فلو رأى ما أحدثن لمنعهن لاخلالهن بالشرط حتى يلتزمنه ولا يمنعهن منعا يكون ابطالا لنهيه الاول عن منعهن .

قــدوة :

لما سمع عبد الله بن عمر ابنه بلالا يصارحه بمعارضة السنة ومخالفتها لم يملك نفسه واستشاط غضبا حتى سبه سبا سيئا لم يكن من عادة ابن عمر صدور مثله منه . وهكذا كل مسلم غيور على الاسلام والكتاب والسنة يسمع من أهل الاسلام التكذيب بهما أو التعدي عليهما أو المعارضة لهما بالرأي والهوى أو تحريفهما عن مواضعهمـــا كذلك فانه لا يملك نفسه ان يدافع عنهما وقد يملكه الغضب لله فيكون منه بعض ما ليس من عادته ان يصدر منه من قول .

تحذير وارشاد :

هذا الذي وقع من بلال كثيرا ما يقع مثله أو نحوه من أهل الجهل والبدعة الذين شبوا عليهما وشاخوا حتى صارت البدعة عندهم سنة والسنة بدعة فاذا ذكرت لهم الحكم الشرعي بدليله من الكتاب والسنة صدوا ونفروا وأبوا واستكبروا وصارحوا بالمخالفة أو سكتوا واضمروا الخلاف . وما هذا شأن المؤمنين فحذار اذا سمعت حكما شرعيا ونصا قرآنيا أو حديثا صحيحا نبويا أن تقابل بالخلاف بل انشرح بذلك صدرا ولا يكن في صدرك من حرج مما قضى الله ورسوله وسلم تسليما[1] .

---

(١) ش : ج ٥ ، م ٨ ، ص ٢٥٠ ــ ٢٥٢
غرة محرم ١٣٥١ هـ ــ ماي ١٩٣٢ م .

تحريم الخلوة بالأجنبية

خصوصا على الاقـارب

« أخرج مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر : ان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : إيّاكم والدُخول على النساء • فقال رجل من الانصار : يا رسول الله ، أفرأيت الحمو ؟ قال : الحمو الموت » •

المفردات :

الحمو : على وزن دَلو قال الليث بن سعد : هو أخ الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج ابن العم ونحوه ، فالأحماء أقارب الزوج والأختان أقارب الزوجة والاصهار يقال عليهما •

التراكيب :

نصب اياكم على التحذير • أفرأيت معناه اخبرني • الحمو الموت تشبيه بليغ كزيد أسد ، وفي الموت استعارة تصريحية شبه فساد البيوت وخرابها وانحلال روابطها بالموت بجامع الهلاك والزوال في كـل • فجاء عليه وآله الصلاة والسلام بهذا التركيب البليغ البالغ للمبالغة في التحذير والبلوغ الى غاية التأثير •

المعنى :

حذر عليه وآله الصلاة والسلام الرجال من الدخول على النساء ، وكانوا يتساهلون في الدخول على نساء أقاربهم ، فسأل هذا الانصاري ـ رضي الله تعالى عنه ـ عن أقارب الزوج ، فأجابه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ

بأن الخوف منه أكثر والشر منه أقرب والفتنة به أشد ، لأنه متمكن الدخول الى بيت أخيه دون انكار عليه ، فيتوصل الى المرأة ويخلو بها دون كلفة ولا مراقبة ، بخلاف الاجنبي فهو بعيد عن الدار ينكر عليه دخولها ويخشى من مراقبة أهلها ، فاذا كان الاجنبي ممنوعا من الخلوة بالاجنبية فأحرى وأولى قريب زوجها • وبيّن عليه وآله الصلاة والسلام ان الخلوة بالاحماء مؤدية الى الهلاك والفتنة في الدين والى خراب البيت وفساد الاسرة واضمحلالها •

الاحكام :

حرم الحديث الخلوة بالاجنبية خصوصا على الاقارب اما المحرم كزوجة الابن أو زوجة الاب فلا تحرم الخلوة بها للمحرمية واما الدخول دون خلوة فاذا انتفت الريبة فهو غير ممنوع •

العمل بالحديث :

الناس ــ الا من شاء الله ــ بهذا الحديث جاهلون ، وعن سوء العاقبة التي حذر منها غافلون ، وفي الهلاك الديني والعرضي واقعون ، فحق على من قرأ هذا الحديث أن يعلمه للناس وينشره فيهم ويحث نفسه واياهم على العمل به والسير على أدبه ولا يستعظمن ما يراه من جهل فانه ما جاء الا من قلة نشر العلم فاذا نشر العلم ــ ولو كان في أوله قليلا ــ فانه لا يلبث باذن الله ان يصير كثيرا ، وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين [1] •

● ●

---

(١) ش : ج ٩ ، م ٨ ، ص ٤٥٩ ــ ٤٦٠
غرة جمادى الاولى ١٣٥١ هـ ــ سبتمبر ١٩٣٢ م .

خير النساء

عن أبي هريرة رضي الله عنه ان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ خَطَبَ أُمَّ هَانِيءٍ بِنْتَ أبِي طَالِبٍ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ وَلِيَ عِيَال» • فقالَ رسولُ اللهِ ـ صلى اللهُ عليه وآله وسلم ـ : خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ صَالِحُ نِسَاءِ قريش أحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ • رواه مسلم

السند :

الحديث ثابت في الصحيحين وانما انفرد مسلم بهذه الرواية التي فيها ذكر سبب ورود الحديث وهو خطبة النبي ـ صلى الله وآله وسلم ـ أم هانيء ـ رضي الله عنها ـ وما أجابت به •

الكلمات :

حنا عليه : يحنو حنوا عطف فالاحنى هو الاكثر عطفا • وحنت المرأة على ولدها حنوا فهي حانية اذ لم تتزوج بعد أبيه فاذا تزوجت فلا يقال فيها حانية • رعي الشيء يرعاه رعاية حفظه فالارعى هو الاحفظ • وذات اليد هي الاموال لانها صاحبة اليد تجعل فيها •

التراكيب :

ركبن الابل : كناية عن نساء العرب وقصد بها التعميم أي خير نساء العرب كلهن • وجملة احناه مستأنفة لبيان ماكن به خير النساء ، وأفردَ الضمير في احناه باعتبار الجنس •

الاشخـــاص :

أم هانيء بنت أبي طالب كانت تزوجت هبيرة بن عمر المخزومي أسلمت عام الفتح وهرب زوجها الى نجران فاولادها منه هم العيال الذين اعتذرت به وأبت أن تتزوج عليهم فقبل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عذرها •

المعنى :

خير نساء العرب نساء قريش لجمعهن بين : الرأفة بالولد والشفقة عليه والعناية به في تربيته حتى يتركن التزوج من اجل التفرغ للقيام به ، وحفظهن للمال وحسن التدبير فيه والامانة عليه • فيكفين الزوج أعز شيء لديه وهو ماله وولده اللذان بهما حسن حاله وبقاء أثره •

تنبيه على استلزام :

لا تستطيع ترك التزوج بعد تأيمها للتفرغ لتربية أولادها الا المرأة الكاملة العفاف الشديدة الرأفة التي أنساها حبها في أولادها والشفقة عليهن داعية النفس الى الزواج وما استطاعت ذلك الا بما عندها من ملكة العفاف فوصفها بانها حانية يستلزم انها عفيفة •

توجيه :

لا بقاء لأمة من الأمم الا بانتظام أسرها وحفظ نسلها وقد خصص الله المرأة للقيام بهذين الامرين العظيمين وزودها من الرحمة والشفقة ما يعينها عليهما ، وانما تقوم بهما اذا جمعت ما بين العفة في نفسها والاقتصاد في نفقتها والتفرغ للقيام باولادها ولهذا لما جمع نسوة قريش ذلك كله كن خير نساء العرب •

ارشـــاد :

يبين لنا هذا الحديث الشريف ما خلقت له المرأة من العمل العظيم

في الحياة ويرشدنا بذلك لوجوب القيام عليها وتهيئتها لذلك بالتربية والتعليم فتكون تربيتنا وتعليمنا لها بما يقوي فيها هذه الصفات : العفة وحسن تدبير المنزل والنفقة فيه ، والشفقة على الولد وحسن تربيته ، وكل زيادة على هذه ــ بعد تهذيب اخلاقها وتصحيح دينها وتحبيبها في قومها ــ فهي ضارة بها أو مخرجة لها عن مهمتها العظيمة ملحقة الضرر بقومها فلنجعل هذا الحديث الشريف دليلنا ومرشدنا في كل ما نسعى اليه من تعليم النساء والبنات •

الاحكام :

امتنعت أم هانيء من التزوج للقيام باولادها فأقرها النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ واثنى على المتصفات به فدل ذلك على استحسانه لمن ملكت عفتها وقدرت عليه • وثناء النبي ــ صلى الله عليه وآلــه وسلم ــ على نساء قريش بوصفهن دليل على ما ينبغي من اختيار المرأة المتصفة بمثل هذا الوصف • ودليل ما ينبغي ان يتخير من معادن النساء في بيوتهن وأقوامهن فان الاخلاق تتوارث والبنات متأثرات بالأمهات في الغالب •

تصديق :

ان نساء أنجبن من أنجبن من رجالات قريش في الجاهلية والاسلام وولدن محمدا ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لهن خير نساء في كل ما توصف به النساء من خير فصدق رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وبرّ وشهدت بصدقه الايام [1] •

● ●

(١) ش : ج ٩ ، م ١١ ، ص ٤٩٦ ــ ٤٩٨
رمضان ١٣٥٤ هـ ــ ديسمبر ١٩٣٥ م .

الآية الخالدة لنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين

صلى الله عليهم وسلم

أبو هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ما من الأنبياء نبيٌّ إلاّ أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

رواه البخاري ومسلم وغيرهما

لما كان المقصود من الرسالة هو هداية الخلق واقامة الحجة عليهم كان الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ اكمل الناس في أخلاقهم وأنزههم في سيرتهم ، معروفين بذلك بين أقوامهم قبل نبوتهم ، ثم اذا بعثهم الله تعالى آتاهم من العلم وقوة الادراك ووضوح البيان ما تنهض بـه حجتهم وتتضح به دعوتهم ويقطع بكل من يعارضهم بشبهة ويموه بباطل ، واذا قرأت ما قصّه علينا القرآن العظيم من مواقف الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم ـ رأيت كيف أنهم كانوا يدعون الناس بالحجج والبراهين والأدلة العقلية الجلية ، وأنهم كانوا اذا سئلوا الآيـات المعجزات الخارقة للعادة ردوا الأمر الى الله ونفوا أن تكون لهم قدرة على الاتيان بها الا باذن الله كما قال تعالى : (وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) فيظهر الله على أيديهم الآيات تأييداً لهم وتخويفا لأقوالهم وقطعا لمشاغبتهم ، فيخضع لها بَعضهم ويستمر الأكثرون على العناد ، فما من نبي من الأنبياء الا وقد أعطاه الله من الآيات والمعجزات ما مثله في وضوحـه وظهوره والعجز عن

معارضته ما يؤمن عليه العباد ، ويتفقون عليه لولا ما يصدهم عنه من العناد ، وهو معني قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ **« ما من الأنبياء نبي الا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر »** .

والنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قد أوتي مثل هذه الآيات ، وقد نقل الكثير منها كثير من أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ واشتهرت عند أئمة الحديث والنقل ، غير أن آيته الخالدة الدائمة كعموم رسالته ودوامها هي القرآن العظيم وهو الوحي الذي أوحاه الله اليه ، فهي المعول عليها في دوام الحجة على تعاقب العصور والأجيال ، اذ لا يقوم غيرها مقامها في بقائها مشاهدة لجميع الناس ، ولذا حصر آيته فيهافقال: **« وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله الي »** .

تفرقة وترجيح :

آيات الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ كانت معجزات كونية لايشهدها إلاّ من حضرها ، ثم تبقى أخبارا يمكن للجاحد انكارها ويتأتي للمشاغب أن يصنع من الخزعبلات والمخارق ما يموه به على ضعفه العقول ويدعي مماثلتها .

وآية النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهي القرآن العظيم معجزة علمية عقلية يخضع لسلطانها كل من يسمعها ويفهمها ولا يستطيع معارضتها ، لا في لفظها وأسلوبها وبيانها ، الذي عجزت عن معارضة اقصر سوره العرب ، على ما كان من حميتها وانفتها وشدة رغبتها في إبطالها لو وجدت سبيلا اليها فقط ـ بل لا تستطاع معارضتها فيما اشتملت عليه من أصول العلوم التي يحتاج اليها البشر في كمالهم وسعادتهم أفرادا وجماعات ، واما وما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة والحكم الباهرة في كل ما دعت اليه الى ما اشتملت عليه من حقائق كونية كانت مجهولة عند البشر حتى كشفها العلم في هذا العصر مثل

انباء الخلق كله على أساس الزوجية في أشياء كثيرة • مصداق قوله تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ » • فبهذا كانت آية النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أعظم الآيات وأبقاها ، وكانت مغنية عن غيرها كافية عما عداها كما قال تعالى : « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ » •

تفريــع

لما بقيت هذه الآية الكبرى على العصور — وانبنت على الاحتجاج بالعلم والعقل كان لها في كل عصر اتباعها الكثيرون عن اقتناع واطمئنان ويزداد ويكثر عددهم بتوالي الأزمان • ويكثر الداخلون فيهم بقدر ما يزداد تقدم البشر في العلم والعرفان ، وقد شوهد هذا اليوم وقبل اليوم • ونحن نرى في هذا العصر كيف ينتشر الاسلام تباعا لهذه الآية بين الأمم وفي علمائها دون نشر للدعوة من المسلمين تبينها ولا قوة لهم تؤيدها • وانما بما فيه من علم وحجة وأدب وحكمة تخضع العقول وتجذب القلوب • ولهذا فرع النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — على كون آيته ، وحياً رجاء أن يكون اكثر الأنبياء —صلوات الله عليهم— أتباعا يوم القيامة الذي تظهر فيه التابعية الصادقة فقال : (فَرَجُوْ أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ القِيَامَةِ) •

انفراده — صلى الله عليه وآله وسلم — بالاتباع من يوم بعثته :

ليس المنتمــون لموســى — صــلى الله عليــه وسلم — ولعيسى — صلى الله عليه وسلم — باتباع لهم ، لأن دعوة الأنبياء — صلوات الله عليهم — واحدة ودينهم — وهو الاسلام — واحد وان اختلفت بعض الفروع العملية في شرائعهم ، فمن لم يؤمن بواحد منهم كمن لم

يؤمن بهم كلهم ، وما كان محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بدعا من الرسل وما جاء الا بمثل ما جاؤا به ، وما جاء الا مصدقا لهم • فالذين لم يتبعوه من المنتمين اليهما عليهما السلام غير متبعين لهمـا فانقطعت تابعيتهما ببعثة محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فمن آمن به كان من أتباعه والا كان من الهالكين • وقد قال ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ **(والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي احد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي ارسلت به الا كان من اصحاب النار)** •

اقتـــداء :

كل داع له من الأجر مثل أجور من اتبعه على دعوته لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، فرجا النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كثرة أتباعه إذ في ذلـك انتشار الهداية ، وكان ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أحرص الناس على هداية الناس ، وفي ذلك مضاعفة أجره وجزائه عند الله ، فلنا فيه الأسوة الحسنة بالحرص على نشر هدايته وتبليغ دعوته ورجاء كثرة الاجر والثواب بكثرة ما نوفر من اتباعه فليعمل العاملون لهذا وليجهدوا فيه •

وقد رجا النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كثرة أتباعه لدوام وظهور آيته الخالدة ، وهي القرآن العظيم ، فعلى الناشرين لهدايته والمبلغين لدعوته أن يجعلوا القرآن أمامهم وحجتهم ومرجعهم ، فانه هو كتاب الدعوة ، ومنشور الهداية ، ومظهر الحجة • وأتباع النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ هم أتباع القرآن وخلفاؤه في التبليغ، وورثته في العلم هم الذين يبلغون القرآن ويتلون القرآن وينذرون بالقرآن كما كان هو ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كذلك وكما قال الله فيه : «يَا أيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ»

«لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ» «إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ القُرْآن» .

جعلنا الله ممن اتبعوا دينه ، ونشروا هدايته وبلغوا حجته غير مبدلين ولا مغيرين[1] .

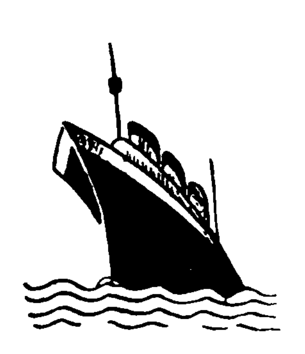

(١) ش: ج ٣، م ١١، ص ١٤٥ ـ ١٤٩
صفر ١٣٥٤ هـ ـ ٣ جوان ١٩٣٥ م .

قيمة الرجل بقيمة قومـه

لما قال النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالحمى والسهر) (١) نبه على معنى عظيم في ارتبـاط كل فرد بامته ارتباط الجزء بكله وهذا الارتباط يقتضي أموراً كثيرة منها ما جاء نصاً في الحديث الشريف ومنها ما يؤخـذ مما يقتضيه التشبيه ومن هذا أن الفرد منظور اليه في النظر الاجتماعي العام بما ينظر به الى أمته ، سواء أساواها في المستوى الذي هو فيه من رقي وانحطاط ، أم كان أسمى منها او أدنى فقيمته في النظر الاجتماعي العام هي قيمتها .

جمعتني ليلة بثلاثة من شبابنا المتعلم التعليم الأوروبي والمتأدب الأدب الإفرنجي ممن لا ينقصه شيء عن الطبقات الراقية منهم ، وانساق بنا الكلام الى ما تكتسب به الأمم والأفراد الاحترام في عين غيرها ، واتفقنا على أن الامة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها لا تعد أمة بين الأمم ، ولا ينظر اليها الا بعين الاحتقار مع القضاء عليها في ميادين الحياة بالتقهقر والاندحار . وان الفرد الذي لا يحافظ على ذلك من أمته لتأخرها في سير الزمان بما أحاط بهـا من ظروف الحياة وان تحلى بأعظم وأحسن مـا يتحلى بـه الراقون من أمة أخرى لا ينظر اليه الا بالعين التي ينظر بها الى أمته .

أخذ أولئك الشبان — وقد زالت عن أبصارهم غشاوة الغرور

(١) رواه مسلم ولفظه : تداعى له سائر الجسد (المعلق) .

والغفلة لما أقنعتهم بأن قيمة الرجل بقيمة أمته ـ يقصون علي من الوقائع التي وقعت لهم هم أنفسهم ما يثبت تلك الحقيقة ويؤيدنهـا . قلت لأولئك الأخوان ـ وقد اندهشت مما لم أكن أحسبه يقع ـ : لا تلوموا من عاملكم بما تقتضيه نظرة اجتماعية عامة ، ولكن لوموا أنفسكم ان جهلتم هذه الحقيقة ، وأنتم أبناء دين قررها من أول أيامه في مثل الحديث الشريف الذي افتتحنا به هذا المقال . واليوم ـ وقد تجلت لكم الحقيقة علميا وعملياً ـ عليـكم أن تلتفتوا الى أمتكم فتنشلوها مما هي فيه بما عندكم من علم وما اكتسبتم من خبرة محافظين لها على مقوماتها سائرين بها في موكب المـدنية الحقة بين الأمم ، وبهذا تخدمون أنفسكم وتخدمون الانسانية بانهاض أمة عظيمة تاريخية من أممها ، ثم لا يمنع هذا من أخذ العلم عن كل أمة وبأي لسان واقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا ومد اليد الى كل من يريـد التعاون على الخير والسعادة والسلام[1] .

(١) ش : ج ٨ ، م ١١ ، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤
شعبان ١٣٥٤ هـ ـ نوفمبر ١٩٣٥ م .

من السنة

تعلم اللغات المحتاج اليها

زيد بن ثابت قال : أمرني رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أن أتعلم له كتاب يهود ، قال : اني والله ما آمن يهود على كتاب ، قال : فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته • قال : فلما تعلمته كان اذا كتب الى يهود كتبت اليهم ، واذا كتبوا اليه قرأت له كتابهم •

رواه الترمذي وحسنه ورواه غيره

لما نزل النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بالمدينة مهاجراً كان بها وبضواحيها مع الأوس والخزرج ــ رضي الله عنهم ــ اليهود ، فأقرهم النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وكتب بينه وبينهم عهداً ، وكانت الكتب تدور بينه وبينهم في الشؤون والمصالح من الطرفين • فكانوا يكاتبونه بالخط العبراني ، كانت لغتهم العربية ، ولكنهم كانوا يكتبون بالخط العبري ، فأمر النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كاتبه زيد بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ أن يتعلم الخط العبري ليكتب له اليهم ويقرأ له ما يرد عليه منهم فيكون على يقين من كلامهم اليه وبلوغ كلامه اليهم ، وما كان ليحصل له هذا اليقين ــ وهم ليسوا بمحل الثقة ــ لو تولى ذلك واحد منهم فقد لا يكتب عنه كل ما يقوله لهم وقد لا يقول له كل ما كتبوه اليه ، فتعاطى زيد تعلم الخط العبراني ، فما مضى عليه نصف شهر حتى حذقه وتولى الكتابة عن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ والقراءة له •

الفوائد والأحكام :

الأولى : كل قوم تربط بينهم المصالح لا بد لهم من التعاون ، ولا يتم التعاون الا بالتفاهم والتفاهم بالمشافهة والكتابة ، فعلى القوم المترابطين بالمصلحة أن يفهموا بعضهم لغة بعض وخطه ، وبقدر ما تكثر الأقوام المترابطة بالمصلحة تكثر اللغات والخطوط ويلزم تعلمها ، لأن العلة هي الحاجة . وسواء كانت المصلحة التي تربط الأقوام عمرانية أو علمية لأن المصلحة من حيث هي مصلحة محتاج الى تحصيلها ، والنبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أمر زيداً بتعلم الكتابة ، لأن اللغة كانت عربية ولو كانت لغة أخرى لأمره بتعلمها لعلة الحاجة ، والحكم يدور مع العلة . وقد جاء عن زيد من طريق أخرى ــ ذكرها الترمذي ــ أن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أمره أن يتعلم السريانية . فنحن اليوم وقد ربطت بيننا وبين أمم أخرى مصالح علينا أن نعرف لغتهم وخطهم كما عليهم هم أن يعرفوا لغتنا وخطنا .

الثانية : هذه السنة أصل في اتخاذ الكتبة والتراجمة في الدولة وما يشترط فيهم من العلم والأمانة .

الثالثة : كان في إمكان النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أن يكاتبهم بالخط العربي ويلزمهم أن يكاتبوه به ولكن تسامح الاسلام واحترامه لمحترمات الأمم في دينهم وقوميتهم قضيا بترك اليهود يكتبون ويكاتبون بخطهم ، فأقرهم النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ على ما أرادوا وكلف هو من تعلم خطهم . وتركها لاتباعه سنة بعده .

الرابعة : هذه السنة أصل في ضبط أمور الدولة بالكتابة فيما يصدر عنها وفيما يوجه اليها . ومثلها ضبط كل المعاملات ، فهي أصل في التسجيل على العموم . وهكذا تجد سنة النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ اذا تتبعتها ــ قد قررت ــ بالفعل ــ أصولا كثيرة

من أصول المدنية والعمران ، ولهذا كان على قارئها أن يتناولها للفهم والاستنباط والتطبيق على الأحوال[1] .

(1) ش : جـ ٢ ، م ١١ ، ص ٧٧ ــ ٧٨ صفر ١٣٥٤ هـ ــ ٥ ماي ١٩٣٥ م .

التستر بالنقائص

عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول : « كل أمتي معافى الا المجاهرين ، وأن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح ــ وقد ستره الله ــ فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا . وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه » .

رواه البخاري في الأدب ومسلم في الزهد والرقائق

الكلمات :

المعافى : من العافية وهي السلامة ، فالمعافى هو السالم . ويحتمل أن يكون المراد هنا سلامة العرض من القدح أو سلامة البدن من الحد أو سلامة العاقبة من المؤاخذة بالذنب . والمجاهر : هو المعلن بفسقه .

المعنــى :

قد يرتكب المذنب المعصية مع شعوره بقبح ما أتى وخجله به من ربه وانكسار قلبه من أجل معصيته ، فهو لذلك يتستر بذنبه فلا يطلع عليه غيره لا بقول ولا بفعل ، فهذا قد سلم منه الناس فلم يؤذهم بشره ولم يدعهم الى الاقتداء به ، وسلم منه الشرع فلم يكسر من هيبته ولم ينقص عند الناس من حرمته ، فسلم له هو عرضه من القدح وبدنه من الحد وسلم له أصل ايمانه ، وهو حياؤه من الله وخوفه منه ، واحترامه لدينه وبغضه لما يأتي من معصيته فيوشك بهذه الحياة التي في قلبه أن يقلع عن ذنبه ويتوب فيسلم من المؤاخذة بسبب التوبة ، وقد يترجح

ما في قلبه من خوف وخجل واحترام وبغض للمعصية وتألم بها ـ على نفس المعصية ـ فيسلم من المؤاخذة بها عند الموازنة يوم القيامة . فصدق فيه هذا الوعد بأنه معافى من ذنبه وسالم من المؤاخذة به .

أما الذي يجاهر بمعصيته ويعلن بها فهذا قد تعدّى على مجتمع الناس بما أظهر من فساد وما أوجد من قدوة سيئة وما عمل لمجاهرته على شيوع الفاحشة فيهم . وقد تعدى على الشرع بما انتهك من حرمته وجرأ من السفهاء عليه . وهو بمجاهرته قد دل على استخفافه بحق الله وحق عباده وعلى عناده للدين وخلو قلبه من الخوف والحياة ، وأي ايمان يبقى بعدهما . ولما كانت المجاهرة بالمعصية تطلق في الغالب على من يعلن أمره للجماعات بين النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن مجاهرة الفرد كمجاهرة الجماعة من باب التنبيه على الجزئي الخفي من جزئيات المنهي عنه لانه هو الذي شأنه ان لا يتنبه له فيتساهل فيه ومن تساهل في الجزئي الخفي أدّاه ذلك الى التساهل في غيره . وهذا الجزئي الخفي هو أن يعمل عملا يستره الله فيه ثم يحدث به رفيقه فيكشف ستر الله عنه .

استنباط :

قد تبين ما في المجاهرة من المفاسد والظلم ، وقد دل الحديث على أن أهلها غير معافين ، فهم هالكون ، فهي حرام ، ومعصية زائدة في أصل المعصية ، فالمجاهر بمعصيته ارتكب معصيتين : المعصية والمجاهرة بها ، وقد تجر عليه المجاهرة آثاما كثيرة بما يتسبب عن معصيته من شيوع الفاحشة وسوء القدوة ، ويستمر ذلك يكتب عليه من آثاره ما بقي متسبب عن آثاره الى يوم القيامة . فيا لفداحة الحمل يوم الفزع الأكبر وكما يحرم تحدث الشخص بمعصية نفسه لما فيه من المجاهرة كذلك يحرم عليه أن يتحدث بمعصية غيره ولو كان هو الذي

حدثه لما في ذلك من اذاعة الفاحشة ومن الغيبة .

تنبيه وتحذير :

المجاهر بفسقه الذي لا يستتر من أحد يجوز ذكره بفسقه الذي جاهر به اذا كان في ذكره به مصلحة أو دفع مفسدة ، ويجب أن يحذر من ذكره لغير ذلك فانه من الغيبة واذاعة الفاحشة .

اعتبار :

هذا في الأفراد ، ومثلها الأمم ، فالأمة التي تقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتضرب على يد سفهائها وأهل الفساد منها وتهجرهم وتنبذهم من مجتمعها تسلم من الشرور والبلايا ، وتقل أو تنعدم منها المفاسد والمنكرات ، والأمة التي تسكت عن سفهائها وأهل الشر من كبرائها وتدعهم يتجاهرون فيها بالفواحش والقبائح ، هي أمة هالكة متحملة جريرة المجاهرة بالمعاصي، بالهلاك في الدين والعذاب في الآخرة.

تربية :

روى الحاكم في مستدركه ، عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ ان رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : **(اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها ، فمن ألمَّ بشيء منها فليستتر بستر الله)** . فليعمل المسلم على اجتناب المعاصي كلها . حتى اذا ألم بشيء منها فليجتهد في اخفائه وستره وليضرع الى الله تعالى في سجوده أن يتوب عليه من ذنبه وليتوسل اليه ــ تعالى ــ بايمانه به وحيائه وخوفه منه واحترامه لشرعه وعباده ، فهو ــ جل جلاله ــ يحب التوابين ويحب المتطهرين[1] .

---

(١) ش : ج ١١ ، م ١١ ، ص ٥٩١ ــ ٥٩٣
غرة ذي القعدة ١٣٥٤ هـ ــ فيفري ١٩٣٦ م

الشرك والوثنية ودعوى النبوة

« عن ثوبان قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى يعبدوا الأوثان ، وانه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم انه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي » •

رواه الترمذي وقال : هذا حديث صحيح •

كان النبي ــ صلى الله عليم وآله وسلم ــ يعرف أصحابه بما يكون في أمته من بعده ، وهو تعريف للأمة بما يكون فيها ، يعرفهم بذلك ليحذروه ويجتنبوا أسبابه ويبادروا الى معالجته عند وقوعه • لايستبعد مسلم صدور الشرك والوثنية ودعوى النبوة من غير المسلمين ، وانما يستبعد ويستنكر أن يكون شيء من هذا ممن يقولون أنهم مسلمون • ولهذا قدم النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ هذا التعريف والانذار• حتى اذا وقع شيء من هذا من هذه الأمة بودر الى انكاره وعلاجه ولم يتساهل معهم في شيء من ذلك لأنهم يقولون أنهم مسلمون •

اللحوق بالمشركين :

من اعتقد مثل عقيدتهم أو فعل مثل أفعالهم أو قال مثل أقوالهم فقد لحق بهم ، وقد يكون اللحوق تاماً مخرجاً عن أصل الاسلام ، وقد يكون دون ذلك • فأصل عقيدة الشرك عند عرب الجاهلية أنهم يعلمون أن الله هو خلقهم وهو يرزقهم وهو المالك لجميع مخلوقاته ، ولكنهم كانوا يجعلون توجههم وتقربهم وتضرعهم لآلهتهم على اعتقاد

انها هي تقربهم الى الله • وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تتوجه لبعض الأموات وتتضرع لهم وتقف أمام قبورهم بخضوع وخشوع تامين وتتضرع وتناديهم على اعتقاد انهم يقربونها الى الله ويتوسطون لها اليه • ويزيدون انهم يتصرفون لها بقضاء الحوائج وجلب الرغائب ودفع المصائب • ومن أعمال المشركين في الجاهلية انهم يسوقون الأنعام لطواغيتهم فينحرونها عندها طالبين رضاها ومعونتها • وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تسوق الأنعام الى الأضرحة والمقامات تنحرها عندها إرضاءً لها وطلبا لمعونتها أو جزاء على تصرفها وما جلبت من نفع أو دفعت من ضر •

ومن أقوال المشركين في الجاهلية حلفهم بطواغيتهم تعظيما لها ، وفي الناس اليوم طوائف كثيرة يحلفون بالله فيكذبون ويحلفون بمن يعظمونه من الاحياء أو الاموات فلا يكذبون • فهذه الطوائف الكثيرة كلها قد لحقت بالمشركين وصدق رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ في قوله : **(لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين)** •

عبادة الأوثان :

كانت عبادة الأوثان في الجاهلية بالخضوع والتذلل لها ورجاء النفع وخوف الضر منها ، فينذرون لها النذور وينحرون لها النحائر يلطخونها بالدماء ويتمسحون لها • وفي الناس اليوم طوائف كثيرة لها أشجار ولها أحجار تسميها بأسماء وتذكرها بالتعظيم وتذبح عندها الذبائح وتوقد عليها الشموع وتحرق عندها البخور وتتمسح بها وتتمرغ عليها • مثل فعل الجاهلية أو تزيد • فصدق عليهم رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : **(وحتى يعبدوا الأوثان)** هذا كله واقع في الأمة لا شك فيه • وكما كان من نصح نبيها ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ان انذرها بوقوعه فيها قبل وقوعه ــ فان من نصح علمائها لها أن يعرفوها به اليوم بعد وقوعه ويصوروه لها على صورته

الشركية الوثنية التي ينفر منها المسلم بطبعه . ولو ان الأمة سمعت صيحات الأنكار من كل ذي علم لاقلعت عن ضلالها ورجعت الى رشدها ، فما أسعد من نصحها من أهل العلم وجاهد لانقاذها . وما أشقى من غشها وزادها رسوخا في ضلالها وتماديا في هــلاكها . فَحَيَّهَلاً على العمل أيها المصلحون الناصحون المخلصون ، فانّ عهد الغش والخديعة قد آذن بذهاب،وان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب.

دعوى النبــوة :

قد ضلت وهلكت باتباع أشخاص ادعوا النبوة من هذه الأمة طوائف كثيرة ، وقد كان منهم أول الاسلام مسيلمة الكذاب والأسود العنسي ، ثم كان المختار بن عبيد الثقفي ، ثم كان منهم في عصرنا قبيله الباب ، واليه تنسب البابية ، والبهاء واليه تنسب البهائية ، وغلام القادياني واليه تنسب القاديانية ، وقد كادت هذه القاديانية تدخل الجزائر على يد طائفة الحلول وشيخها لولا ان قام في وجوههم العلماء المصلحون وفضحوهم على صفحات (الشهاب) أيام كان اسبوعيا فردّ الله كيدهم ووقى الله الجزائر شراً عظيما . وقد أخبر النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ عن هؤلاء الكذابين بانهم ثلاثون فلا بد أن يصلوا الى هذا العدد وقد تكون بقيتهم في أحشاء الايام .

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنهم كذابون وأنه لا نبي بعده ، وقد صدق قوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فما من واحد منهم الا وقد ظهر من كذبه ما عسر تأويله على أصحابه ، ومن غلطه وخلطه ما يدل على انه لا مستند له من اليقين . فصلى الله على خاتم الأنبياء وامام المرسلين [1] .

(١) ش : ج ١ ــ م ١١ ، ص ١١ ــ ١٣
محرم ١٣٥٤ هـ ــ افريل ١٩٣٥ م .

كلمـات الشـرك

(النهي ان يقال ما شاء الله وشئت(١)

قال الامام ابن ماجة في سننه : « حدثنا هشام بن عمار ، ثنـا سفيان بن عيينه ، عن عبد الملك بن عمير ، عن ربعي بن حراش ، عن حذيقة بن اليمان : ان رجلا من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلا من أهل الكتاب فقال : نِعْمَ القوم أنتم لولا انكم تشركون ، تقولون ما شاء الله وشاء محمد ، وذكر ذلك للنبي ــ صلى الله عليه وآلـه وسلم ــ فقال : أما والله ان كنت لأعرفها لكم ، قولوا : ما شاء الله ثم شاء محمد . حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب ، ثنـا ابو عوانه عن عبد الملك عن ربعي بن حراش ، عن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها ، عن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بنحوه ».

السند الاول :

هشام ثقة أخرج له البخاري والأربعة . وابن عيينه أحد أئمة الاسلام المشهورين . وابن عمير روى له الستة وابن حراش مثله . وحذيفة الصّحابي الشهير .

السند الثاني :

ابن أبي الشوارب ثقة روى عنه مسلم والترمذي والنّسائي . وابو عوانه أحد الاعلام روى له الستة . وعبد الملك وربعي تقدما . والطفيل صحابي .

---

(١) ما بين الهلالين هو ما ترجم به ابن ماجة على الباب .

رتبـــة الحديث :

الحديث صحيح بسنديه مرفوع بهما ، ولا يضر ابهام الرجل الرائي، لأن حذيقة قال : انه من المسلمين ، والمسلمون يومئذ هم الصحابة ، وكلهم عدول . ولأن حذيفة نقل بلوغ الرؤيا للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ونقل قوله عند سماعها .

مزيد بيـــان :

ذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب : « ان سفيان وشعبة وزائدة (يعني ابن قدامة ثقة روى له البخاري) وجماعة رووا عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن الطفيل حديثه هذا . وقال ابو عمر : وفي حديث زائدة عن الطفيل انه رأى في المنام أن قائلا يقول له من اليهود : نِعْمَ القوم أنتم لولا قولكم ما شاء الله وما شاء محمد . ثم رأى ليلةً أخرى رجلاً من النصارى فقال له مثل ذلك . فأخبر بذلك النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقام خطيبا فقال : **(لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد وقولوا ما شاء الله وحده)** وزادبعضهم فيه : ثم ماشاء محمد » . فأفادنا كلام ابن عبد البر تعدد الرواة عن عبد الملك ، وبينت لنا رواية زائدة بن قدامة ان الرائي هو الطفيل بن سخبرة ، وان الرؤيا تكررت ، وان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قام خطيبا في الناس لمزيد العناية والاهتمام بالأمر . وانه قال ما شاء الله وحـــده .

الجمع :

لا تعارض بين الروايات فيعمل بها كلها ، وقوله في رواية زائدة : (ما شاء الله وحده) لا ينافي . (ثم ما شاء محمد) فيكفي الاقتصار على ثم ما شاء محمد ، كما عند ابن ماجة . والأحسن أن يزيد قبله لفظة وحده ليأتي بجميع الوارد .

الألفاظ :

تشركون : أي تقرنون بين مشيئة الخالق ومشيئة المخلوق بعبارة تفهم التسوية ، وهي العبارة المذكورة في الجملة التالية المبينة ، وهي قوله : « تقولون ما شاء الله وشاء محمد » وهذه العبارة قد تكون في نحو قولهم : افعل ذلك ما شاء الله وشاء محمد ، أو لا أفعله ما شاء الله وشاء محمد • وفي الاستثناء في اليمين نحو : الا ما شاء الله وشاء محمد • وفي باب اليمين أورد الحديث ابن ماجة • ان كنت لأعرفها لكم ، ان : نافية • واللام : في (لاعرفها) لام الجحود ، والفعل بعدها منصوب ، فنفى معرفته بهذه العبارة منهم على وجه يفيد أنها شيء ما كان ليخطر في باله لمنافاتها لإيمانهم وتوحيدهم وعدم مناسبتها لحالهم ، ثم : تفيد انحطاط مشيئة المخلوق عن مشيئة الخالق وتأخرها وتلك هي رتبتها ، وقد شاء الله ما شاء وحده ، ثم كانت مشيئة المخلوق • فلفظة وحده اصرح في استقلال مشيئة الله •

المعنى :

كان بعض من الصحابة يقولون هذه العبارة دون أن يعلم بهم النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فأراد الله أن يطلع عليها نبيه لينهاهم عنها ، وكان من حكمتها ان اطلعه عليها بهذا الوجه ، أرى بعض الصحابة رؤياً فيها تعبير لهم بالشرك الذي هو أبغض الأشياء اليهم من بعض أهل الكتاب ، وهم الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ليكون ذلك أشد في الزجر وأعظم في التوبيخ ، فذكرت الرؤيا للنبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وكانوا يقصّون عليه رؤاهم فنفى علمه بصدور تلك العبارة منهم ، وأظهر إنكاره وتعجبه من صدور تلك العبارة الشركية التي ما كان ليظن صدورها منهم ، وفي هذا ما فيه من اللوم والتعنيف فقام

خطيبا فيهم فنهاهم عن العبارة الشركية الباطلة وبين عبارة التوحيد والحق الصحيحة وهي أن يقولوا (ما شاء الله وحده ثم ما شاء محمد) أو (ما شاء الله ثم ما شاء محمد) .

الأحكام :

أفاد الحديث النهي عن القرن بين مشيئة الخالق ومشيئة المخلوق . ومشيئة المخلوق بالواو وجواز القرن بينهما بثم ، وأثبت للمخلوق مشيئة ، ولكنها مقيدة ومتأخرة بخلاف مشيئة الخالق فانها سابقة ومطلقة مستقلة ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله . وأفاد ان القرن بين مشيئة الخالق ومشيئة المخلوق شرك وان من فعل ذلك يقال له قد أشركت ، لأنه لما قصت عليه الرؤيا وفيها قوله : لولا انكم تشركون ، أقر ذلك ولم ينكره ، وان كلمة الشرك لا يجوز ان تقال ولو كان قائلها لايعتقد المساواة بين الخالق والمخلوق ، كما هو حال الصحابة الذين لا يشك في عملهم بذلك وان قائل كلمة الشرك هذه وان كان يقال له أشركت كما تقدم لا يخرج بذلك من الايمان حيث كان لا يعتقد التسوية ، فانه لم يحكم بردتهم بتلك الكلمة وانما نهاهم عن قولها .

تاييـد :

روى ابن ماجة في هذا الباب بسند حسن عن ابن عباس قـال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : **(اذا حلف أحدكم فلا يقل ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت)** وهذا الحديث في معنى الحديث الذي تكلمنا عليه .

تفصيل اول :

الشرك يكون بالاعتقاد ، وهذا مخرج عن الايمان ويكون بالقول مثل الكلمة المتقدمة ، وهذا لا يخرج صاحبه من الايمان وانما يحرم عليه النطق به .

تفصيل ثان :

من الصفات ما يثبت لله على ما يليق بجلاله ويثبت للمخلوق على ما يليق بحدوثه وافتقاره كالمشيئة وكالعطاء عندما تكون للمخلوق أسباب فيها ، فهذا يسند اليهما ويحرم أن يسوى بينهما في العبارة ، ويجب الاتيان بعبارة صريحة في عدم التسوية ، فأما المشيئة فقد تقدمت واما العطاء فكأن تقول لمن أعطاك شيئا هذا من فضل الله ثم من فضلك ، ومنها ما لا يجوز أن يجمع فيه بين الاسناد للمخلوق والخالق أبدا كالعطاء الذي لا دخل للمخلوق فيه لخروجه عن الاسباب الممكن هو منها ، فلا يجوز أن تقول في غيث نزل مثلا هذا من الله ومن فلان ولا ثم من فلان ، لأنه لا دخل لأحد فيما وراء الاسباب .

تطبيق :

اذا نظرنا في حالة السواد الأعظم منا معشر المسلمين الجزائريين فاننا نجد هذه الكلمات شائعة بينهم فاشية على ألسنتهم وهي (بربي والشيخ) وهم يعنون أن ما يفعلونه هو بالله وبتصرف الشيخ (بربي والصالحين) ، (بربي والناس الملاح) ، (اذا حب ربي والشيخ) (شوف ربي والشيخ) ، وهي كلها من كلمات الشرك كما ترى ، فأما قولهم : (بربي والشيخ) ونحوه فمما لا يجوز ان يذكر فيه المخلوق مع الخالق قطعا لأن ما تفعله هو بالله وحده أي بتقديره وتيسيره ولا دخل للمخلوق فيه ، وأما قوله : (اذا حب الله والشيخ) فمما لا يجوز الا بلفظة ثم . فيكون بمعنى اذا شاء الله ثم شاء الشيخ اذا كان هذا الشيخ حيا وكان الامر مما يكن أن تدخل مشيئته فيه ولقد شب على هذه الكلمات ونحوها الصغير وشاب عليها الكبير وانقطع عنها النهي والتغيير حتى صارت كأنها من الكلمات المشروعة ، وصار قلعها من الألسنة من أصعب الامور واصبحت كلمة بالله وحده ونحوها

مهجورة لديهم منسية عندهم ثقيلة على أسماعهم ثقل من يدعوهم اليها ويلهج بها على قلوبهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

العـلاج :

على من عرف هذا الحديث النبوي أن يعمل به في نفسه وأن ينشره بين الناس وأن يعالجهم به بتفهيمهم فيه وتحذيرهم من مغبـة مخالفته والأصرار على معاندته ، ولان يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم . فالى التوحيد أيها المسلمون والى الارشاد أيهـا العالمون والله مع الصابرين[1] .

(١) ش : ج ٦ ، م ٨ ، ص ٣٠٦ ـ ٣١١
غرة صفر ١٣٥١ هـ ـ جوان ١٩٣٢ م

بناء المساجد على القبور

من فعل شرار الخلق عند الله يوم القيامة

« عن عائشة رضي الله عنها ان أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال : إن أولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

رواه الشيخان رحمة الله عليهما

هذا الحديث أحد الأحاديث الكثيرة المستفيضة التي جاءت في التحذير من بناء المساجد على القبور ، والتنبيه على أن ذلك يؤدي الى عبادتها والتأكيد لذلك بذكر ما كان ممن قبلنا من ذلك وما أداهم اليه فأخبر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في هذا الحديث ان أصحاب تلك الكنيسة كانوا يبنون المساجد على قبور صلحائهم ويصورون صورهم. وانما يفعلون ذلك تعظيما لهم واستئناسا بصورهم وليعبدوا الله تعالى عند قبورهم تبركا بهم . فكانوا بسبب فعلهم من بناء المساجد على القبور ونحتهم للصور شرار الخلق عند الله يوم القيامة ، لأن تعريف المسند اليه بالاشارة ـ وهو أولئك ـ يفيد ان المشار اليه الموصوف بصفات ـ وهي بناء المساجد على القبور وتصوير الصور ـ حقيق وجدير بما يذكر بعد اسم الاشارة ـ وهو قوله شرار الخلق ـ من أجل اتصافه بتلك الصفات . وذلك لأن القبر المعظم ببناء المسجدعليه والصورةالمعظمةلتمثيلها ذلكالصالح يصيران ممايعبدويعتقد

فيه النفع والشر والعطاء والمنع ، فيدعو ويسأل ويطلب منه الحوائج وتخشع عنده القلوب وتنذر له النذور ، وهذه من العبادة التي لا تكون الا لله ، وقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس ــ رضي الله تعالى عنهما ــ : ان وداً وسواعا ويغوث ويعوق ونسراً التي كانت أصناما لقوم نوح وعبدتها العرب من بعدهم ، كانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم ان انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون انصابا وسموها باسمائهم • ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك ــ الذين نصبوها ، وتنسخ ، وتغير العام ــ عبدت • فعلم من هذا أن ما يكون موضوعا في أصله بقصد حسن يمنع وينهى عنه اذا كان يؤدي بعد ذلك الى مفسدة •

الأحكام :

هذا الحديث نص صريح في المنع من بناء المساجد على قبور الصالحين وتصوير صورهم وفيه الوعيد الشديد على ذلك • ونظيره حديث جندب ــ رضي الله عنه ــ عند مسلم ــ رضي الله عنه ــ سمع رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول ــ قبل أن يموت عليه السلام بخمسة ايام ــ : **(الا وان من كان قبلكم يتخذون قبور انبيائهم وصالحيهم مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد اني انهاكم عن ذلـك)** •

تطبيق :

هذه هي حالتنا اليوم معشر مسلمي الجزائر واحسب غيرنا مثلنا • نجد أكثر أو كثيرا من مساجدنا مبنية على القبور المنسوب أصحابها الى الصلاح ، ومنهم من كانوا معروفين بذلك ومنهم المجهولون ، فان قيل انما بنيت المساجد على تلك القبور للتبرك بأصحابها لا لعبادتهم قلنا ان النهي جاء عاما لبناء المسجد على القبر بقطع النظر على قصد

صاحبه به ، ولو كانت صورة البناء للتبرك مرادة بالنهي لاستثناها الشرع فلما لم يستثنيها علمنا ان النهي على العموم ، وذلك لانها وان لم تؤد الى عبادة المخلوق في الحال فانها في مظنة أن تؤدي الى ذلك في المآل • وذرائع الفساد تسد لا سيما ذريعة الشرك ودعاء غير الله التي تهدم صروح التوحيد • وانظر الى ما جاء في حديث ابن عباس في أصنام قوم نوح وكيف كان أصل وضعها وكيف كان مآلها ، وتعال الى الواقع المشاهد تتحاكم اليه فاننا نشاهد جماهير العوام يتوجهون لأصحاب القبور ويسألونهم وينذرون لهم ويتمسحون بتوابيتهم ، وقد يطوفون بها ويحصل لهم من الخشوع والابتهال والتضرع ما لا يشاهد منهم اذا كانوا في بيوت الله التي لا مقابر فيها ، فهذا هو الذي حذر منه الشرع قد أدت اليه كله وهبها لم تؤد الى شيء منه أصلا فكفانا عموم النهي وصراحته والعاقل من نظر بانصاف ولم يغتر بكل قول قيل •

إيمان وامتثال :

علينا أن نصدق بهذا الحديث بقلوبنا فنعلم ان بناء المساجد على القبور من عمل شرار الخلق كما وصفهم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وان تنطق بذلك ألسنتنا كما نطق به هذا الحديث الشريف وان نبني عليه أعمالنا فلا نبني مسجداً على قبور ولا نعين عليه ، وان ننكره كما ننكر سائر المنكرات حسب جهدنا ، ومن أعظم الإنكار تبليغ هذا الحديث بنصه وتذكير الناس به والعمل على نشره حتى يصير معروفا عند عامة الناس وخاصتهم ، اذ لا دواء للبدع الشيطانية الا نشر السنة النبوية ، ولا نستعظم انتشار هذه البدعة وكثرة ناصريها فانها ما انتشرت وكثر أهلها الا بالسكوت عن مثل هذا الحديث والجهل به • ولكن في ارشادنا مقتصرين على ايراد لفظ الحديث وشرحه ـ

على انه واضح مفهوم بنفسه ـ دون أن نمس شيئا من شؤون أولئك المقبورين فانهم اخواننا سبقونا بالايمان فلهم علينا حق الدعاء والاستغفار. فاذا عملنا كلنا على هذا من حسن قصد ومحبة في الخير للمسلمين رجونا ان يؤيدنا الله تعالى ويجعل النفع بايدينا . ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز [1] .

(1) ش : ج ٥ ، م ٧ ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧ محرم ١٣٥٠ هـ ـ ماي ١٩٣١ م .

النهي عن البناء على القبور

« نهى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبني عليه » .

مسلم من طريق جابر بن عبد الله رضي الله عنه

هذا حديث صحيح صريح في النهي عن البناء على القبر ومعضداته من السنة كثيرة . وهو من الظهور والصراحة بحيث لا يحتاج الى تفسير ، وانما نسأل كل مؤمن بقوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » وقوله : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » وقوله : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً » نسأل كل مؤمن بهذه الآيات أن يعمل بنهي النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ عن البناء على القبر فلا يبن على قبر ولا يعن بانيا ، ويعلن هذا الحديث في الناس ويذكرهم به ولا يفتأ يقرع به أسماع الغافلين ويفتح به أعين الجاهلين « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »[1]

---

(١) ش : ج ٢ ، م ٩ ، ص ٧١
غرة شوال ١٣٥١ هـ ــ فيفري ١٩٣٣ م .

لعن من اتخذ المساجد على القبور

« لعن الله اليهود والنصارى • اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » •
البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم •

لما أخبر عليه وآله الصلاة والسلام أن الله لعن اليهود والنصارى بين علة وسبب لعنهم ، وهي اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد • وذلك بأن بنوا عليها المساجد أي أماكن العبادة كما هو صريح في حديث آخر هكذا « **بنوا على قبره مسجداً** » ، وسنذكره في الجزء الآتي ان شاء الله • فالمتخذ للمساجد على القبور ملعون بنص هـذا الحديث الصحيح الصريح •

فيا أيها المؤمنون بمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ المصدقون لحديثه إياكم والبناء على القبور ، إياكم واتخاذ المساجد عليها ان كنتم مؤمنين • وعليكم تبليغ هذا الحديث والتذكير به والتكرير لذكره يكن لكم أجر المجاهدين في سبيل رب العالمين وثواب العاملين لاحياء سنة سيد المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام اجمعين [1] •

---

(١) ش : ج ٣ ، م ٩ ، ص ١٢٥
غرة ذي القعدة ١٣٥١ هـ ــ مارس ١٩٣٣ م •

بنـاء المساجد على القبور

من شرار الخلق عند الله يوم القيامة

« ان أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إن أولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل يوم القيامة » . البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها [1] .

كانوا شرار الخلق بسبب بنائهم المساجد على قبور صالحيهم واتخاذ الصور لهم وكلاهما ذريعة الشرك والوثنية ، وان كان النصارى يقصدون التبرك بآثار الصالحين . ولا يقال ان هذا فيمن جمع بين البناء والتصوير لأنه قد جاء لعنهم على البناء وحده كما في الحديث المتقدم في جزء مضى ولا يقال ان هذا لانهم نصارى لأن المقصود النهي عن مثل فعلهم هذا والتحذير منه ببيان العقاب المترتب عليه حتى لا يفعل المسلمون هذا الفعل فيترتب عليه عقابه .

فحذار أيها المسلم من فعل أهل الضلال ومشاكلة الاشرار ولا تغتر بكثرة الهالكين[2] .

---

(١) كرر شرح هذا الحديث في جـ ٥ ، م ٧ ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧ وانظر ص ٢٤٦ من هذا الجزء .

(٢) ش : جـ ٦ ، م ٩ ، ص ٢٣٠
غرة محرم ١٣٥٢ هـ ـ ماي ١٩٣٣ م .

تاكيد النهي عن اتخاذ القبور مساجد

« عن جندب قال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قبل أن يموت بخمس يقول : اني ابرأ الى الله أن يكون لي منكم خليل ، فان الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم عليه السلام خليلا ، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وان كان من قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصلحائهم مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد ، أني أنهاكم عن ذلك » **رواه مسلم**

هذا الحديث كالأحاديث الماضية صريح في النهي عن اتخاذ القبور مساجد . وذلك ببناء المساجد عليها كما تقدم في حديث أم حبيبة وأم سلمة ــ رضي الله عنهما ــ في الجزء الماضي ، وبالصلاة اليها كما فيما سننقله في الجزء الآتي ، وفي هذا الحديث تأكيد النهي بكلمة (ألا) مرتين ، وبتكرير النهي المستفاد أولا من (لا) وثانيا من الجملة الأخيرة المصرح فيها بمادة النهي مع التأكيد بأن ، وبعد هذا التأكيد في هذه الصراحة لا يبقى من يشك او يشكك في معناه الا من اعمى الله بصيرته واستولى الغرض والهوى على لبه وران كسبه على قلبه عياذا بالله . هذا واننا بعد ان نفرغ من نقل متون هذه الاحاديث الصحيحة الصريحة نأتي بكلام الائمة من شراحها عليها ثم بكلام الائمة من فقهائنا المالكية رحم الله الجميع ونفعنا بمحبتهم وحشرنا في زمرتهم لا مبدلين ولا مغيرين آمين[1] .

---

(١) ش : جـ ٧ ، م ٩ ، ص ٢٦٧
غرة صفر ١٣٥٢ هـ ــ جوان ١٩٣٣ م .

من اتخاذ القبور مساجد الصلاة اليها

« عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال في مرضه الذي مات فيه : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . قالت : ولو ذلك لأبرز قبره غير اني اخشى ان يتخذ مسجدا .

رواه الشيخان واللفظ للبخاري .

أفادت عائشة ـ رضي الله عنها ـ انهم لم يبرزوا قبره ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ للناس خوفا من ان يتخذ مسجدا بالصلاة اليه فاتخاذ القبور مساجد الذي تكرر النهي عليه ولعن مرتكبه يكون بالبناء عليها كما في الاحاديث الماضية وبالصلاة اليها كما في هذا الحديث[1] .

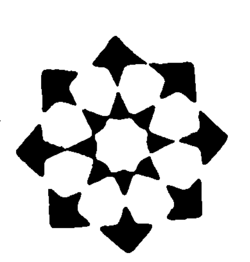

---

(١) كرر شرح هذا الحديث في ج ٣ ، م ٩ ، ص ١٢٥ وانظر ص ٢٥١ من هذا الجزء .

(٢) ش : ج ٨ ، م ٩ ، ص ٣٠٨ غرة ربيع الاول ١٣٥٢ هـ ـ جويلية ١٩٣٣ م .

حديث تزكية الأموات

لا يجزم لأحد انه من اهل الجنة إلاّ بنص من الشارع

« قال ابن شهاب : أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت ان أم العـلاء ــ أمرأة من الأنصار بايعت النبي ــ صلى الله عليه وآلـه وسلم ــ اخبرته انه اقتسم المهاجرون قرعة فطار لنا عثمان بن مظعون فانزلناه في أبياتنا فرجع وجعه الذي توفي فيه ، فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه دخل رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد اكرمك الله . فقال النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : وما يدريك ان الله اكرمه ؟ فقلت : بأبي أنت يا رسول الله ؟ فمن يكرمه الله ؟ فقال عليه السلام : اما هو فقد جاءه اليقين ، والله اني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وانا رسول الله ما يفعل بي . فقالت : فوالله لا أزكي احداً بعده أبدا» رواه البخاري في صحيحه من طرق في عدة أبواب .

المتــن :

ثبت عنــد البخاري ايضا **« ما ادري ما يفعل بي ولا بكم »** وثبت عنده ايضا **« ما ادري ما يفعل به »** .

ترجمة شخصي الحديث :

شخصا الحديث هما اللذان كانا سببا في وروده ، وهما أم العلاء المزكية وعثمان المزكي ، فاما ام العـلاء فهي بنت الحارث بن ثابت الأنصارية الخزرجية ، وهي أم خارجة بن زيد الراوي عنها . وأما عثمان بن مظعون فهو ابو السائب بن حبيب بن وهب القرشي الجمحي

من السابقين ، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلا ، هاجر الهجرتين وشهد بدرا ، وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة ، وأول من دفن بالبقيع منهم .

الشرح :

لما جاء المهاجرون الى المدينة ولا أهل لهم ولا مال نزلوا على الأنصار من الأوس والخزرج ، فاقتسمهم الأنصار بالقرعة فطار في قسمة بيت زيد بن ثابت ، عثمان بن مظعون ، فأنزلوه في أبياتهم فمرض مرضه الذي توفي فيه ، فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه دخل رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — فقامت أم العلاء في حضرة النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — تثني على عثمان فدعت له بالرحمة وشهدت له جازمة بأن الله أكرمه ، أي بالجنة ، لأنها هي دار كرامة الله لعباده . فأنكر عليها النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — وقال لها : وما يدريك ان الله أكرمه ؟ أي من أين علمت ذلك ، ففدته بأبيها تأدبا معه — صلى الله عليه وآله وسلم — في الخطاب ، وقالت : فمن يكرمه الله ، أي اذا لم يكن عثمان مع سابقيته وهجرته وبدريته فمن يكرم ، فبين لها النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — ما يجوز أن يقطع به وما لا يجوز أن يتعدى حد الظن ، فقال لها : اما هو فقد اتاه اليقين ، يعني الموت ، وهذا مقطوع به ، واني لارجو له الخير ، وهذا هو الذي لا يجاوز حد الظن ، ثم بين لها أن الغيب لا يعلمه إلا الله ، وان البشر لا يعلمون الغيب حتى الانبياء — عليهم السلام — فانهم لا يعلمون الا ما علمهم ، فقال لها : **« والله لا أدري وانا رسول الله ما يفعل بي »** فاهتدت الى ما هداها اليه النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — وقالت : والله لا أزكي أحدا بعده أبداً ، تعني مثل هذه التزكية التي قطعت له فيها بالكرامة .

توضيح :

ما في لفظ الحديث موافق لما في سورة الأحقاف المكية من قوله تعالى « وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ». قال البيضاوي : أي في الدارين على التفضيل اذ لا علم بالغيب . يعني إلاّ ما علمه الله وقد اعلمه الله بانه مغفور له ما تقدم وما تأخر في سورة الفتح المدنية ، وأعلمه بما أخبره به في الصحيح من منازله الكريمة يوم القيامة ومقامه المحمود وغيره من انواع الخصوصية والكرامة .

الاحكام :

في الحديث اقتسام أهل القدرة أهل العجز عند الضرورة والشدة ، وفيه الدخول على الميت بعد تسجيته في أكفانه ، وفيه الدعاء للميت بالرحمة ، وفيه المنع من القطع لأحد بالجنة دون نص شرعي ، وفيه المبادرة بانكار القول الباطل في الدين فور سماعه ، وفيه مراجعة المعلم بابداء وجه النظر الذي وقع الخطأ فيه ، وفيه جواز ظن ورجاء الخير لاهله .

تفرقة :

ذكر الميت بما علم من حاله في حياته ثناء عليه جائز والقطع له بالنجاة ممنوع ، فاما هذا الثاني فدليل منعه من الحديث المذكور ، وأما الأول فدليل جوازه مارواه مسلم في صحيحه عن ابي عباس قال : وضع عمر بن الخطاب على سريره فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه قبل أن يرفع وانا فيهم قال : فلم يرعني الا برجل قد أخذ بمنكبي من وراءي فالتفت اليه فاذا هو علي . فترحم على عمر وقال : ما خلفت احداً أحب اليّ أن القى الله بمثل عمله منك وأيم الله ، ان كنت لاظن ان يجعلك الله مع صاحبيك وذلك اني كنت أكثر ، اسمع رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — يقول : جئت أنا وأبو

بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، فان كنت لأرجو ولأظن أن يجعلك الله معهما . وهذا في ذلك الجمع دليل على اجماعهم على جوازه وهو لم يخرج عن ذكره بما علمه منه في حياته وظن الخير له بذلك بعد مماته .

تحذير وارشاد :

لقد ابتلى كثير من الناس بالغلو فيمن يعتقدون فيهم الصلاح فيجزمون لهم بما لا يعلمه الا الله ، ثم زادوا على هذا فيزعمون ان فلانا مات في رتبة كذا وحصل عند الله على منزلته كذا ، ثم زادوا على هذا فيزعمون ان فلانا يشفع لاتباعه ويعديهم على الصراط أو يجعله في بطنه ويمر بهم وأنه يحضر لهم عند الموت ويحضر لهم عند السؤال ويكون معهم في مواقف يوم القيامة ، وكل هذه الدعاوى انبنت على الجزم بانه ممن أكرمه الله وأنه من أهل الجنة ، ذلك الجزم الذي سمعت النهي والانكار صريحين فيه من النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — على أم العلاء في رجل من السابقين الأولين البدريين ، وليست هذه الدعاوى المبنية على المخالفة لهذا النهي النبوي الصريح قاصرة على العوام بل تجدها عند غيرهم وتسمعها ممن يرفعون أنفسهم عن طبقتهم وتقرأها في الكتب التي عدلت عن الأحاديث النبوية الصحيحة والطريقة النبوية الواضحة وذهبت في بنيات الطريق فكانت بلاء على العامة واشباههم ووبالا . فاحذر أيها الأخ المسلم من عقيدة الجزم بالكرامة والجنة لغير من نص عليه المعصوم عليه واله الصلاة والسلام ، ومن تلك الدعاوى الباطلة التي انبنت عليها . ولا تجزم بالكرامة على الله لاحد غير المنصوص عليه وان كان عظيما فان قول رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — احق واعظم وأنف من لا يقول هذا ولا يقبله مرغم . وكل من استعظمته ممن هو على جانب من الصلاح والخير فانه لايداني

مقام عثمان بن مظعون البدري في الصلاح والخير وقد سمعت ما سمعت من النهي النبوي عن القطع له بالكراهة ، ومهما اعدنا القول في هذا فاننا لا نفيه حقه من الانكار والاستئصال لما نعلمه من رسوخ هذه الضلالة وقدمها والتهاون فيها وعظيم التجري على الله بها ، وهذا الحديث النبوي هو دواؤها والقاطع لها فليتأمله قراؤنا ولينشروه في المسلمين وليذيعوه بالتلاوة والتفسير والتأكيد والتقرير عسى ان يشفي الله به القلوب من داء الغلو والادعاء والغرور والتغرير وليظن المسلم الخير باهل الخير وليرج لهم حسن الجزاء والمصير كما رجا النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — الخير لعثمان بن مظعون — رضي الله تعالى عنه — بعد ما نهى عن الجزم بالكرامة له وهذا هو دين الله الحق الوسط السالم من الغلو والتقصير والله نسأل لنا ولجميع المسلمين ان يقف بنا عند حدود الشرع الشريف ، ويحفظنا من الغلو والتقصير والتحريف انه هو الولي الحفيظ اللطيف [1] .

(1) ش : جـ ١ ، م ٨ ، ص ٥٩٢ — ٥٩٤
غرة رجب ١٣٥١ هـ — نوفمبر ١٩٣٢ م .

تفــاوت الصدقــات

بنسبتها لأموال المتصدقين

« عن أبي هريرة ــ رضي الله تعالى عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : سبق درهم مائة الف درهم • فقال رجل : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : رجل له مال كثير أخذ من عرضه مائة الف درهم تصدق بها ، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به » •

رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحه، واللفظ له ، والحاكم قال : صحيح على شرط مسلم ، المنذري •

الألفاظ :

السبق الوصول للغاية قبل غيره ، وأصله في الأبدان ، ويكون للعقول في الوصول للفهم وللأعمال في الوصول للاجر والفضيلة ، ومنه هذا • العـُرض ــ بضم العين ــ هـــو الجانب ، كعرض الحائط أي جانبه •

المعنــى :

يقول ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ إن درهما واحداً تصدق به صاحبه نال به من الأجر والفضل أعظم مما نال صاحب مائة الف درهم تصدق بها • فبلغ درهمه الى غاية من الأجر والفضل ولم يبلغ اليهـــا الآخر • ولما خفي وجههذا على السائل لأن المعروفأن ثواب الكثير أكثر بيـّن له ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ان هذا حيث يكون الدرهم

بالنسبة لمال صاحبه كثيرا ، فان درهم ذى درهمين هو شطر ماله ، وتكون المائة الف بالنسبة لمال صاحبها قليلة ، فانها لم تكن إلا من جانبه ، وسلم أصله ومعظمه ٠

توجيـه :

الأجرُ على قدر المشقة ، والثواب على قدر النصب ، وما يجده ذو الدرهمين من انفاق أحدهما ، وهما كل ما يملك من المشقة والنصب، أعظم مما يجده ذو المائة ألف ، وهي بعض ماله الكثير ، وذو الدرهمين كان عنده من الايمان واليقين ما أنفق به شطر ماله فهو أعظم ايمانا ممن انفق جزءا من مائة منه ٠ وما عنـد ذى الدرهمين من خـلق الايثار والتضحية والبذل في سبيل الله أعظم بكثير مما عند ذى المائة الف ٠ فهو أعظم منه أجرا وفضلا ، فقد كان أعظم منه مشقة ٠

فقد كان اعظم منه مشقة وأقوى منه ايمانا ، وابلغ منه تضحية وبذل جهد في سبيل الله وايثارا ٠ لا جرم كان اعظم منه فضلا واجرا ٠

تبصرة :

يقعد الشيطان للقليل المال في طريق الانفاق فيزهده فيه ٠ ومن مداخله عليه انه يحقر له ما ينفقه من قليل بانه لا غناء فيه فيقبض يده عن الصدقة بذلك القليل الذي يستطيعه فيفوته اجر كبير ٠ فبصرنا نبينا ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بالحقيقة ، وبين لنا أن ذلـك القليل بالنسبة لمال صاحبه هو كثير حتى انه يسبق كثير غيره من اهل المال العظيم ليشارك فقيرنا غنينا بقليله فيكون من السابقين الى الأجر الكثير ٠

تربيـة :

الأخلاق الفاضلة التي هي موجودة في فطرة الانسان بأصولها ،

وتنمو بحسن التربية وتنطمس بالاهمال ــ قد حفظهما الله تعالى علينا بما وفقنا اليه من الاسلام ، وما علمنا من آداب وما شرعه لنا من اعمال .
ومما ينمي تلك الاخلاق ويقويها المداومة على الاعمال التي تنشأ عنها .
ومن اعظم تلك الاخلاق وادخلها في باب النهوض بجلائل الاعمال وحفظ سعادة الاجتماع خلق البذل ، فجاء هذا الحديث الشريف وغيره يبين لنا عظيم أجر صدقة المقل ليحثه على مشاركة الغني في العطاء بما استطاع فيكون البذل من الجميع عاما ، والسخاء بينهم مشتركا ، وآثاره عليهم ظاهرة فينمو خلقه بذلك في الامة كلها وترسخ اصوله في نفوسها فتصبح وهي امة سخية بما عندها في سبيل ما ينفعها متعاونة بالبذل في مهماتها مشتركة بجميع طبقاتها في كل مشروع خيري من مشاريعها ، واذا تربت الامة على هذه الصفة وتدرجت الى الكمال فيها فذلك عنوان نجحها وفوزها وبلوغها غاية آمالها ، وسعادتها في الدارين وفقنا الله لبذل كل عزيز وغال في سبيله والمسلمين اجمعين [1] .

(١) ش : ج ٤ ، م ٧ ، ص ٢٣٠ ــ ٢٣١
غرة ذي الحجة ١٣٤٩ هـ ــ افريل ١٩٣١ م .

اتباع رمضان بستة من شوال

« عن أبي أيوب الأنصاري ــ رضي الله تعالى عنه ــ ، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : من صام رمضان ثم اتبعه ستا من شوال كان كصيام الدهر » • رواه مسلم وأصحاب السنن وغيرهم ، وجاء بمعناه عن ثوبان وأبي هريرة وجابر بن عبد الله وابن عمر •

المفردات :

تقول العرب : اتبع الفرس لجامها ، أي ألحقه بها في العطاء • يضرب مثلا في الأمر باستكمال المعروف واستتمامه ، ويصدق هذا ولو كان بين العطاء الاول ، والعطاء الثاني مهلة ، وكذلك جاء قوله تعالى : « وَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً » أي ألحقنا بعض القرون ببعض في الهلاك الناشيء عن تكذيبهم مع أن بين كل قرن وقرن مدة طويلة ، فالاتباع هو الالحاق لشيء بشيء في أمر سواء ، أكان عن اتصال أو عن انفصال • الدهر : أصل معناه مدة الدنيا ، ويطلق على أمد من الزمان قل ، أو كثر ، والمراد به هنا السنة ، كما جاء مصرحا به في بعض روايات الحديث •

التركيب :

أفادت ثم ان الاتباع متأخر عن الصوم ، وان كان قد جاء من طريق غير أبي أيوب العطف بالواو • والضمير في (كان) عائد على عمل المفهوم من الكلام السابق، أي كان عمله، وهو صومه شهرا وستة ايام•

المعنـى :

من صام رمضان وصام بعده ستة أيام من شوال كان ذلك من عمله كصيام الدهر ، لأن الله تعالى جعل الحسنة بعشر أمثالها ، فشهر رمضان بعشر أشهر ، وستة أيام بعده بشهرين ، فذلك تمام السنة . وجاء هذا التفسير عند النسائي من طريق ثوبان مرفوعا .

توجيه كلام مالك :

تطبيق :

قد علمت ان الاتباع يصدق بالالحاق متصلا أو منفصلا ، والفصل هنا واجب بيوم الفطر للعلم بحرمة صومه ، فمن فصل به فقط فهو متبع ، ومن فصل بأكثر منه فهو متبع ، ومقتضى الاطلاق في لفظة (ستا) انه لا فرق في حصول الفضل بين أن تكون متوالية أو متفرقة ، وما تقدم في فصل المعنى من حديث ثوبان يؤيد هذا الاطلاق ، لأن المقصود تحصيل ستة أيام لتكون بمقتضى جزاء الحسنة بعشر ستين يوما ، وهذا حاصل عند تفرقها وعند اجتماعها .

الاحكام :

ذهب الشافعية والحنابلة وغيرهم ــ وهو المصحح عند الحنفية ــ الى استحباب صوم هذه الأيام محتجين بهذا الحديث الصحيح الصريح . وأما المالكية فقد قال يحيى بن يحيى راوي الموطأ : سمعت مالكا يقول في صيام ستة أيام بعد الفطر من رمضان انه لم ير أحدا من أهـل العلم والفقه يصومها ولم يبلغني ذلك عن أحد من السلف ، وان أهل العلم يكرهون ذلك ويخافون بدعته ، وان يلحق برمضان ما ليس منه أهل الجهالة والجفاء لو رأوا في ذلك رخصة عند أهل العلم ورأوهم يعملون ذلك .

والذي يظهر من عبارات مالك ان المكروه هو صوم ستة ايـام متوالية بيوم الفطر ، كما يفهم من قوله : (في صيام ستة أيام بعد الفطر) ومن قوله (وان يلحق برمضان ما ليس منه أهل الجهالة والجفاء) وانما يخشى هذا الالحاق اذا كانت متوالية ومتصلة بيوم الفطر . فالكراهة اذاً عنده منصبة على صومها بهذه الصفة من التوالي والاتصال لا على أصل صومها . وهذا هو التحقيق في مذهبه .

فقه مالك واحتياطه :

أنبني فقه مالك واحتياطه على أصلين :

الأصل الأول : ان العبادة المقدرة لا يزاد عليها ولا ينقص منها ، وهو أصل عام في جميع العبادات ، وفي خصوص الصيام قد ثبت نهيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يتقدم شهر رمضان بصيام يوم أو يومين ، وظاهر أن وجه هذا النهي هو خوف أن يعدّ ذلك من رمضان ، فحمى الشارع بهذا النهي العبادة من الزيادة في أولها . فبنى مالك ــ بسعة علمه وبعد نظره ــ على ذلك حمايتها من الزيادة في آخرها فكره صوم تلك الايام متوالية متصلة بيوم الفطر مخافة ــ كما قال ــ : (أن يلحق برمضان ما ليس منه أهل الجهالة والجفاء) فكان احتياطه في الأخير مطابقا لاحتياط النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ في الأول ، وذلك كله لأجل المحافظة على بقاء العبادة المقدرة على حالها غير مختلطة بغيرها . وقد جاء نظير هذا الاحتياط في الصلاة، فقد روى ابو داود في سننه : ان رجلا دخل الى مسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فصلى الفرض وقام ليصلي ركعتين فقال له عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ : اجلس حتى تفصل بين فرضك ونفلك ، فبهذا هلك من كان قبلنا . فقال له عليه وآله الصلاة والسلام : **(أصاب الله بك يا ابن الخطاب)** . يعني أن الذين كانوا قبلنا وصلوا النوافل بالفرائض فأدى ذلك الى اعتقاد جهالهم وجوب الجميع

فأدى ذلك الى تغيير شرع الله وهو سبب الهلاك • لا يقال ان مقدار العبادة معلوم من الدين بالضرورة فكيف يظن انه قد يعتقد الجميع من الاصل والزيادة عبادة واحدة ، لاننا نقول اذا دام وصل النافلة بالفريضة وطال العهد وخلفت الخلوف أدى ذلك أهل الجهالة الى ذلك الاعتقاد ، والاحتياط للعبادة يقتضي قطع ذلك الاعتقاد من أصله بالنهي عما يؤدي اليه وهو من سد الذرائع الذي هو أحد أصول مالك في مذهبه • ومع هذا فقد نقل الامام القرافي ، عن الامام عبد العظيم المنذري ان الذي خشي منه مالك رحمه الله تعالى قد وقع بالعجم فصاروا يتركون المسحرين على عادتهم والقوانين[1] وشعائر رمضان الى آخر الستة الايام فحينئذ يظهرون شعائر العيد اهـ •

فلله مالك ما أوسع علمه ، وما أدق نظره ، وما أكثر اتباعه فرحمة الله تعالى عليه وعلى أئمة الهدى اجمعين •

الأصل الثاني : ان ماورد من العبادة مقيداً بقيد يلتزم قيده ، وما ورد منها مطلقا يلتزم اطلاقه ، فالآتي بالعبادة المقيدة دون قيدها مخالف لأمر الشرع ووضعه • والآتي بالعبادة المطلقة ملتزما فيه ماجعله بالتزامه كالقيد مخالف كذلك لأمر الشرع ووضعه ، وهو أصل في جميع العبادات • ومثال ما ورد من العبادة مقيدا ، التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثا وثلاثين مرة والختم بلا إله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير • فقيدت هذه العبادة المحددة بايقاعها دبر كل صلاة ، فالاتيان بها في غير دبر الصلوات مخالفة للوضع الشرعي ومثال ما ورد مطلقا [2] لا إله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة[3] وسبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة فيلتزمها في وقت

---

(١) كذا بالاصل ولعله القوالين .

(٢) و (٣) رواهما مالك في الموطأ .

معين من النهار فيخرج عن مقتضى الاطلاق في لفظ يوم من نص الحديث فيكون مخالفا للوضع الشرعي •

ولفظ الحديث الوارد في هذه الأيام جاء مطلقا في الاتباع ، صادقا بالاتصال والانفصال ، وفي لفظ ستة صادقا بتواليها وتفرقها فالتزام اتصالها وتواليها تقييد لما اطلقه الشرع وتزيد عليه •

اقتداء وتحذير :

هذان الأصلان اللذان قررنا بهما فقه مالك هما اصلاح مجمع عليهما كثيرة في الشريعة المطهرة أدلتهما والفروع التي تنبني عليهما فلنا في مالك وغيره من أئمة الهدى القدوة الحسنة في التمسك بهما • فنحتاط لعبادتنا حتى لا نخلط بين فرضها ونفلها • وتتقبل ما جاء من العبادات مقيدا أو محددا بقيده وحده ، وتتقبل ما جاء منها مطلقا على اطلاقه فلا نلتزم فيه ما يخرجه عن الاطلاق • ولنحذر كل الحذر من الاخلاق بقيود الشارع أو التقييد لمطلقاته ، ففي ذلك استظهار عليه وقلة أدب معه وتبديل لوضعه واختيار عليه وانما الخير لله ولرسوله لا لاحد من الناس وان الغالب على الناس انهم لا يتعمدون الاخلال بالقيود وانما يتعمدون التقييد للمطلقات بانواع الالتزامات مع انهما في المخالفة سواء فلنحذر من الوقوع في مثل هذا على الخصوص •

امتثـال :

نصوم هذه الستة كما رغبنا نبينا ، طمعا في فضل ربنا ، غير ملتزمين وصلها ولا موالاتها • والله يلهمنا والمسلمين اجمعين أنواع المبرات واقامتها بمنه وكرمه آمين[1] •

(١) ش : ج ٣ ، م ٧ ، ص ١٥٠ ـ ١٥٤
غرة ذي القعدة ١٣٤٩ هـ ـ مارس ١٩٣١

على رسلكمـا

عن صفية أم المؤمنين : « انها جاءت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقلب ، فقام النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقلبها ، حتى اذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مرّ رجلان من الانصار فسلما على رسول الله ــ صلى الله عليه وآلـه وسلم ــ فقال لهما النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : على رسلكما إنما هي صفية بنت حيي ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما . فقال النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : ان الشيطان يبلغ من الانسان مبلغ الدم ، واني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا » .

رواه البخاري ومسلم وغيرهما

الالفاظ :

تنقلب : ترجع الى بيتها ، يقلبها : يردها ويمشي معها ، وما يزال هذا الفعل قلب بمعنى رد مستعملا في اللغة الدارجة بالقاف المعقودة ، على رسلكما : على هينتكما ، أي مشيتكما الهينة التي لا عجلة فيها ، أي لا تسرعا . كبر عليهما : عظم وشق يبلغ مبلغ الدم يصل حيث يصل . أن يقذف : أن يرمي .

الأشخاص :

صفية بنت حيي بن أخطب تزوجها النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ سنة سبع من الهجرة سبيت في فتح خيبر فأعتقهـا النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وتزوجها ، توفيت في شهر رمضان سنة (٥٠هـ) .

المعنـى :

كان النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يواظب على الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان فجاءته زوجته صفية ليلة تؤنسه وتحادثه فلما أرادت الانصراف الى بيتها قام معها النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يؤنسها الى بيتها كما جاءت هي اليه ، وبلغ معها باب المسجد فمر بهما رجلان من الأنصار فأسرعا في مشيهما واستحييا لما رأيا رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ، فخشي النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ عليهما من وسوسة الشيطان المسلط على الانسان بأن يلقي في قلوبهما شيئا من وجود امرأة مع النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ والشيطان يقنع بالخطرة يلقيها في قلب المؤمن يؤلمه بها ولوكان صدق ايمانه يرد عنه كيد الشيطان، ويدفعه ويقنع باذاية المؤمن ولو بخطرة السوء تمر بالقلوب تمسه في دينه أو عرضه ، فأراد النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أن يسد في وجه الشيطان باب الكيد لذينك الرجلين الصحابيين ــ رضي الله عنهما ــ ويقطع عليه طريق اذايتهما واذايته معهما ، فقال لهما تمهلا ولا تسرعا في مشيكما وأعلمهما بانها زوجته صفية . وكان الصحابيان الجليلان لم يقع في قلوبهما شيء ولم يخطر أدنى خاطر منه في بالهما ، فاستعظما وكبر عليهما واشتد عليهما أن يظن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فيهما خطور مثل هذا ببالهما ، حتى يحتاج الى تعريفهما ، وهما كانا يريان أنفسهما بصدق ايمانهما أبعد ما يكون عن هذا . فبين لهما النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ الداعي الذي دعاه الى تعريفهما بالواقع ، وهو الخوف عليهما مما قد يكون بالغاء الشيطان دون قصد منهما ، لا شيء هو واقع منهما وبين لهما ما يعرفهما بامكان ذلك وسهولته بما فعل للشيطان من التمكن من القاء الوسواس للانسان وبلوغه منه في الاحاطة والتمكن مبلغ الدم .

الأســـوة

ولكم في رسول الله اسوة حسنة

حماية الأعراض من التهم :

كما على المسلم أن يقي عرضه من طعنات الألسن بالسوء عليه أن يقيه من هواجس النفوس به فان الهواجس مبادي الظنون والظنون مطايا الاقوال والاقوال سهام نافذة وقلما يثبت غرض على كثرة الرمي ومن خسر عرضه خسر قيمته وخسر كل شيء فلخطر هذه النهاية لزم الاحتفاظ على العرض من تلك البداية .

فلا ينبغي للمسلم أن يرى حيث تقع في أمره شبهة وتتوجه عليه تهمة ولو كان عند نفسه بريئا وعما يرمي به بعيدا ، فليس الانسان يعيش في هذه الدنيا لنفسه بل يعيش لنفسه ولاخوانه ، واذا تعرض للتهم خسر نفسه وخسره اخوانه ، وادخل على نفسه البلاء منهم وادخل البلاء عليهم به . فكانت مصيبته على الجميع وضرره عائدا على الاسلام وجماعة المسلمين خصوصا اذا كان المؤمن يقتدى به ويرجع اليه فان زوال الثقة به خسارة كبرى وهدم لأركان الدين وتعطيل لانتفاع الناس بالعلم وانتفاعه هو بعلمه .

واذ وقف الانسان موقفا مشروعا وخاف ان تتطرق اليه في خواطر الناس شبهة كـان عليه ان يبادر للتصريـح بحقيقة حاله والتعريف بمشروعية موقفه .

وليس لأحد ، بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يغتر بمنزلته عند الناس فلا يبالي بما قد يخطر لهم . بل ذو المنزلـة

أحق بالتبيين والتصريح لعظيم حاجة الناس الى بقاء ثقتهم به وتوقف استفادتهم منه وقيامه بما ينفعهم على تلك الثقة •

قال الامام ابن دقيق العيد رحمه الله : « في الحديث دليل على التحرز مما يقع في الوهم نسبة الانسان اليه مما لا ينبغي وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدي بهم ، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلا يوجب ظن السوء بهم وان كان لهم فيه مخلص ، لان ذلك سبب الى ابطال الانتفاع بعلمهم » •

مدافعة الشيطان عن القلوب :

علينا وقد علمنا أن الشيطان متمكن من الوسوسة لنا من جميع نواحينا متصلا بنا اتصالا ، وقريبا منا قربا مثل اتصال وقرب الدم لا يمكننا الانفصال عنه كما لا يمكننا الانفصال عن الدم ، ان نأخذ جميع الحيطة لرد كيده وابطال تدبيره واحباط وسوسته وذلك بالمبادرة الى الاستعاذة بالله منه بالاستعاذة الثانية عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — في الأحوال المختلفة وبمقابلة كل نوع من وسوسته بما يبطله من ذكر الله فاذا جاء من ناحية الايمان بادرنا الى لا إله الا الله واذا جاء من ناحية التنزيه بادرنا الى سبحان الله ، واذا جاء من ناحية الانعام : بادرنا الى الحمد لله واذا جاء من ناحية التخويف من الخلق بادرنا الى « الله أكبر » وهكذا نبادر الى رد ما يوسوس به من كلمات الباطل الى ضدها من كلمات الحق •

وكما على المؤمن أن يدفع ذلك عن قلبه عليه أن يدفعه عن قلب أخيه بمصارحته بما يزيل اساءة الظن به ، أو حمل شيء عليه ، أو نفرة من ناحيته ، أو اشغال لأمره ، وان يبين له ما يقصد بذلك من مدافعة الشيطان ورده عن نفسه وعن أخيه ليكون عينا له على قصده ، فيرجع الشيطان عنهما مذموما مدحورا • وهذه المدافعة للشيطان وحماية

القلوب منه من أعظم الجهاد واوجبه وألزمه بل هي أصل الجهاد كله فانه هو أصل البلاء كله فالسلامة منه هي السلامة من كل سوء والتمكن من نيل كل خير والفوز بكل سعادة في الدنيا والآخرة [1] .

(١) ش : جـ ٢ ، م ١٠ ، ص ٥٨ ـ ٦٠ .
غرة شوال ١٣٥٢ هـ ـ جانفي ١٩٣٤ م .

انما يؤخذ الدين من العلماء

قال عليه وآله الصلاة والسلام : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال انه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال انه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ، انطلق الى أرض كذا وكذا فان بها أناسا يعبدون الله فاعبده معهم ، ولا ترجع الى أرضك فانها أرض سوء . فانطلق حتى اذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله . وقالت ملائكة العذاب : انه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين : فالى أيتهما كان أدنى فهو له . فقاسوا فوجدوه أدنى الى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة » .

رواه الشيخان عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه .

الألفاظ :

الراهب : هو العابد ، وكانت الرهبنة فيمن قبلنا بالانقطاع عن الناس والتفرغ للعبادة ، ابتدعها أهلها دون أن يكتبها الله عليهم كما في سورة الحديد . ثم جاء الاسلام فشرع الجمعة والجماعة فأبطل الانقطاع عن الناس للعبادة الا من فرّ بدينه أيام الفتنة خوفا على نفسه منها . والعالم : من له دراية وملكة واشتغال بالعلم ، والمقابلة

ما بينهما في الحديث تقتضي أن الراهب لم يكن عنده من العلم ما يقال في صاحبه عالم ، والعالم لم يكن عنده من الانقطاع للعبادة ما يقال في صاحبه راهب • قال الامام محمد السنوسي ــ رادا على الأبي ــ : تسمية النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ الرجل الثاني بالعالم والأول بالراهب يدل على أن الراهب ليس بعالم ، والحجة فيما دل عليه لفظه صلى الله عليه وآله وسلم من ان كل واحد انما ثبت له في نفس الأمر معنى الوصف الذي أطلقه عليه ، وأما دلالة الدال على الراهب وهو انما سئل عن العالم فليس فيه دليل على ان الراهب كان عالما لاحتمال أن يكون الدال رجلا جاهلا ولا يعرف العالم الا من هو عالم ، لاسيما والرهبانية كثيرا ما يعتقد الجهلة ملازمتها للعلم • والترهب ان سلم انه يقتضي العلم فانما يقتضي العلم بما يحتاج اليه في ترهبه والا فكم من مترهب جاهل •

المعنـــى :

هذا رجل جنى هذه الجنايات العديدة ثم ذكر الله تعالى فأراد الرجوع اليه فسأل عن أعلم أهل الأرض ليوجده سبيلا الى ذلـــك فدله من دله على راهب لاعتقاد العامة العلم في كل مظهر للتعبد ، فلم يجد عنده مخرجا من جنايته فكمل بقتله المائة محمولا على ذلـــك باليأس والجرأة والاستهانة بقتل النفس • ولكنه بقي مع ذلك يطمع أن يجد عند غيره سبيلا فدل على عالم فأفتاه بامكان التوبة مستدلا بأنه لا شيء يحول بينه وبينها ، وأشار عليه بمفارقة أرضه التي ضري فيها على الجنايات فانها كانت أرض سوء عليه ، وأمره أن يذهب الى أخرى بها قوم صالحون يعبدون الله ويسيرون بطاعته فيصاحبهم ويعبد الله معهم لاصلاح نفسه بمعاشرة الصالحين وتحقيق توبته بالعمل الصالح معهم • فذهب الرجل على هذه النية وادركه الموت قبل أن يصـــل الى تلك الأرض ، واختصمت فيه ملائكة الرحمة وحجتهم نيته التي

خرج عليها ، وملائكة العذاب وحجتهم انه لم يعمل عملا صالحا ، فكان القضاء لملائكة الرحمة تغليبا لجانب القصد والنية ، وتأيدت النية بجده في السير الى الأرض التي قصد حتى كان أقرب اليها من الأرض التي خرج منها •

الاحكام :

في الحديث لزوم السؤال للجهال • وفيه أن أهل العلم هم الذين يسألون عنه لا غيرهم ، وان كان أكثر عبادة • ولذا قال مالك رحمه الله: (لا يؤخذ العلم عن أربعة : سفيه معلن السفه ، وصاحب هوى يدعو اليه ، ورجل معروف بالكذب في حديث الناس وان كان لا يكذب على الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ، ورجل له فضل وصلاح لا يعرف ما يحدث به)• ذكره ابن عبد البر في جامع العلم ، وفيه صحة توبة القاتل وهو مذهب جمهور السلف ، وهـذا الحديث من أدلتهم •

عبرة وتحذير :

العلم قبل العمل ، ومن دخل في العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال ولا على عبادته من مداخل الفساد والاختلال ، وربما اغتر به الجهال فسألوه فاغتر هو بنفسه فتكلم بما لا يعلم فضل وأضل • فهذا الراهب قد دل عليه من دل عليه يحسبه أعلم أهل الأرض فسئل فأجاب بما لا يعلم فعادت مصيبة ذلك عليه وعلى سائله ، ولو دل هو سائله على غيره من العلماء لسلم هو وسلم السائل • فحذار من التقصير في العلم اللازم للعبادة ، وحذار من الكلام في دين الله والافتاء للناس بغير علم مؤهل لذلك ، وحذار من صرف الناس عن العلم وأهله اذا رأيتهم قد افتتنوا بك •

استشهاد :

جاء في حديث رواه الترمذي وابن ماجة وغيرهما عن ابن عباس ــ رضي الله عنهم ــ وخرجه ابن عبد البر في جامع العلم عنه وعن ابي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ان فقيها واحداً أشد على الشيطان من ألف عابد . وواقع هذا حديثنا مما يشهد لذلك فقد رأيت ماذا جر الراهب على نفسه وعلى غيره ، وكيف أنقذ العالم ذاك الشرين من الهلاك .

نسأل الله الفقه في الدين وعمل الصالحين وتوبة الأوابين لنا ولجميع المسلمين آمين يا رب العالمين [1] .

(١) ش : جـ ١٢ ، م ٨ ، ص ٦١٦ ــ ٦١٨
شعبان ١٣٥١ هـ ــ ديسمبر ١٩٣٢ م .

فضل السجود والحث عليه

« قال ربيعة بن كعب الأسلمي : كنت أبيت مــع رســول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي : سل ، فقلت : اسألك مرافقتك في الجنة . قال : أو غير ذلك ، قلت : هو ذلك . قال : فاعني على نفسك بكثرة السجود » .

رواه مسلم ، واللفظ له . وابو داوود والطبراني في الكبير .

الراوي :

هو أبو فراس ، قديم الصحبة ، كان من أهل الصفة يلازم النبي ــ صلى الله عليــه وآله وسلم ــ في السفر والحضر مات سنة « ثلاث وستين » .

الألفاظ :

مع : ظرف مكان مبهم واسع ، وهو كان يبيت عند بابه كما في رواية الطبراني ، وذلك هو المراد من مع هنا . حاجته : ما يحتاج اليه غير الوضوء أو على وجــه تسكنينها هي أو التي للتخيير أو للاضراب ، وعلى وجه الواو هما كلمتان : همزة الاستفهام والواو العاطفة ، هو : أي مسؤولي ذَاكَ أي المذكور وهو المرافقة . الاعانة : مشاركة الفاعل في العمل ليخف عليه ويسهل وينتهي منه الى غرضه .

التراكيب :

حذف مفعول سل للتعميم وهو المناسب لمقام الافضال في النوال . غير معطوف على موافقتك من عطف لفظ في كلام على لفظ في كلام

آخر عند ما يقصد المتكلم ربط كلامه بكلام المتكلم قبله لنحو تلقينه ، فيكون مجموع الكلام هكذا : اسألك مرافقتك في الجنة أو غير ذلك ، والكلام وإن كان خبرا فهو في قوة الطلب ولذلك كانت أو للتخيير هذا كله على وجه او التي للتخيير واما اذا كانت للاضراب فتقدير الكلام بل اسأل غير ذلك . وأما اذا كانت الهمزة للاستفهام فان الواو عطفت على جملة ، وتقدير الكلام : اتترك ما سألت وتسأل غير ذلك . والاستفهام هنا المراد به الطلب ، يطلب منه أن يترك سؤال المرافقة ويسأل غيره ، هو ذاك : تفيد الحصر ، أي مسؤولي هو المرافقة لا غيرها .

المعنى :

كان هذا الصحابي — رضي الله تعالى عنه — يخدم النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — ويبيت عند باب بيته ليأتيه بما يحتاج اليه من ماء يتوضأ به أو غيره ، فأراد النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أن يجازيه على خدمته فأمره أن يسأله ليعطيه ، فاعرض هذا الصحابي عن جميع مطالب الدنيا وسأله أعز مطلب في الآخرة وهو مرافقته له في الجنة ، ولما كانت هذه المرافقة تقتضي درجة رفيعة في الجنة أخص من مطلق دخول الجنة ، وهذه الدرجة تقتضي العمل الشاق ، حاول النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — صرفه عن هذا السؤال الذي فيه العمل الشاق الـذي ربما لا يطيقه الى غيره مما هـو أسهل من المطالب ، فصمم الصحابي على سؤاله وأبى أن يسأل غيره ، فقبل النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — سؤاله على أن يعينه على نفسه لتحصيل المطلوب ، وأرشده الى ما هو وسيلة في رفع الدرجات ، وهو كثرة السجود فان العبد لا يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة كما ثبت في الصحيح .

زيادة بيان :

قد جاء هذا الحديث عند الطبراني بأبسط من رواية مسلم ، وذكر الرواية المطولة يوضح لنا الرواية المختصرة ، ورواية الطبراني كما في (الترغيب والترهيب) هي هذه : (**قال كعب : كنت أخدم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ نهاري فاذا كان الليل** آويت **الى باب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فبت عنده فلا أزل أسمعه يقول : سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان ربي ، حتى أمل أو تغلبني عيني فانام ، فقال يوماً : يا ربيعة سلني فأعطيك ؟ فقلت : انظرني حتى أنظر ، وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة ، فقلت : يا رسول الله ، أسألك أن تدعو الله أن ينجيني من النار ويدخلني الجنة ، فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ثم قال : من أمرك بهذا ؟ قلت : ما أمرني به أحد ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية وأنت من الله بالمكان ، الذي أنت منه ، فاحببت أن تدعو الله لي . قال : اني فاعل فأعني على نفسك بكثرة السجود**) .

النظر في الروايتين :

بينت المطولة أنه كان يخدمه بالنهار والليل وأنه ما سأل الا بعد النظر والتفكر ، وانه لم يسأل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يعطيه الجنة وانما سأله أن يدعو الله تعالى له لعلمه أن دعاءه مستجاب ، والنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وعده بأنه يفعل ما طلبه منه ، وهو دعاء الله تعالى له . غير أن الرواية المطولة فيها أنه سأله النجاة من النار ودخول الجنة ، والرواية المختصرة فيها أنه سأل مرافقته له في الجنة وهي أخص من مطلق الدخول .

الجمع والترجيح :

كل ما في المطولة مما هو زائد على المختصرة غير معارض لشيء فيها فهو مع المختصرة حديث واحد روى مطولا ومختصرا وان تفاوتت

طريقاه . وما جاء فيها معارضا لشيء في المختصرة وهو سؤال دخول الجنة المعارض لسؤال المرافقة فاننا نأخذ بما في المختصرة ترجيحا لها لقوة سندها .

توجيـه :

المرافقة في الجنة لا تقتضي المساواة في المنزلة والكرامة ، اصله قـوله تعـالى (فَأُولَئِكَ مَعَ النَّبِيِّينَ — الى — وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) ولهذا سألها هذا الصحابي . ولما كان من الملازمين للنبي — صلى الله عليه وآله وسلم — في الدنيا توجهت همته الى مرافقته في الأخرى فسأله ذلك .

فوائد الأحكام :

في الحديث جواز قبول التبرع بالخدمة من الناس ، وخصوصا لأهل المقامات العامة في مصالح الناس ، وفيه فضل القيام من جوف الليل — من قوله آتيه بوضوئه — وفيه سنة مكافـأة المحسن على إحسانه ، وفيه مشروعية سؤال الدعاء ، وخصوصا ممن ترجى لـه الاستجابة ، وفيه عدم الاكتفاء بالدعاء وحده عن التوسل بالطاعات ونوافل الخيرات ، وفيه فضل السجود والحث عليه ، وفيه دليل لمن يقول بأفضلية كثرة السجود على طول القيام .

إرشاد وتحذير :

سأل هذا الصحابي النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أن يدعو له الله ولم يسأله هو أن يعطيه الجنة لأن الذي يعطي هو الله تعالى ولأن الذي يسأل منه العطاء هو الله تعالى ، كما قال النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — لابن عباس فيما رواه (واذا سألت فاسأل الله) فمن المخلوق تسأل الدعاء ومن الخالق تسأل العطاء ، ومن أدلة الأول هذا

الحديث ومن أدلة الثاني حديث ابي عباس المذكور • وكثير من الناس يسألون ممن يعظمون نفس العطاء وخصوصا من الأموات ـــ رحمهم الله ـــ في قبورهم فارشدهم بمثل ما سمعت وحذار أن تكون منهم •

بيان عقيدة وإبطال ادّعاء :

لما سأل هذا الصحابي النبي ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ وعده بالدعاء وأرشده الى العمل الصالح وهو كثرة السجود ، ولم يقل له النبي ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ انني ضامن لك ذلك ولا أنت مضمون ولا أنت في ضماني ، لأن العبد لا يجوز له أن يضمن على خالقه بدون اذنه شيئا ، واذا كانت الشفاعة التي هي طلب منه لا تكون عنده الا باذنه فكيف الضمان الذي هو التزام على القطع ، فمن الغرور العظيم والجهل الكبير والجراءة الكبرى على الله تعالى قول بعض المدّعين « روح راك مضمون » وقول آخرين (من دخل دار كذا فهو مضمون) و (انا ضامني الشيخ) و (يادار الضمان) ونحو ذلك ، مما يقوله الجاهلون وينكره العالمون ويبرأ منه الصالحون •

حقيقة نفسية :

العبد بين داعيين مختلفين دينه يدعوه الى الحسنى وينهض بـــه للعلاء ونفسه تدعوه الى السوأى وتنحط به الى الحضيض • ولا ينحط المسلم عن مقامات الكمال الا باجابته داعي نفسه واعراضه عن داعي دينه • فالنفس هي الجاذب القوي الى دركات الانحطاط • ولما كان دعاء النبي ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ لهذا الصحابي سببا في رفع درجاته ، وكانت نفسه اذا خلاها على هواها ما نفعه له من ذلك الرفع فصار الدعاء النبوي والنفس الامارة كالمتنازعين فيه ـــ أمره بان يعينه على نفسه بكثرة السجود ولم يقل له أعني عـــلى مطلوبك أو

تحصيل مرادك ، بل قال له اعني على نفسك . وفي هذا تنبيه له على ان النفس هي المعرقلة للعبد عن الصعود في سلم السعادة وانه اذا قهرها وغلبها فقد تيسرت له اسباب الكمال[1] .

(١) ش : ج ٤ ، م ٨ ، ص ٢٠٥ ـ ٢١٠ .
غرة ذي الحجة ١٣٥٠ هـ ـ افريل ١٩٣٢ م .

الصــدق والــكذب

اين يهــدي كل واحد منهما

« قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر ، وان البر يهدي الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا • وإياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور وان الفجور يهدي الى النار • وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » • رواه البخاري ومسلم في صحيحهما واللفظ لمسلم •

المفردات :

عليكم : اسم فعــل بمعنى تمسكوا • واياكم : منصوب عــلى التحذير في معنى احذروا • والصدق مطابقة الخبر للواقع وتصويره على ما هو عليه • والكذب : عدم مطابقة الخبر للواقع وتصويره على خلاف ما هو عليه • يهدي الى كذا : يعني يوصل اليه بتحري الشيء يقصده ويتعمده ولا ينحرف عنه • البر : اسم جامع للخــير كله • والفجور : الانبعاث في الشر ، الصدّيق : الكثير الصدق • والكذاب : الكثير الكذب •

التراكيب :

عبر بالمضارع في يصدق ويكذب ويتحرى ليفيد التجدد ، وان ذلك هو شأنه الذي يتكرر منه •

المعنى :

تمسكوا بالصدق وألزموه فان الصدق يوصل الى العمل الصالح الخالص من كل مذموم ، وان العمل الصالح يوصل الى الجنة ، وان الرجل ليتكرر منه الصدق ويتكرر منه تعمد الصدق والقصد اليه والتزامه حتى يكتب عند الله كتابة خاصة صديقا فيثاب ثواب الصديقين ويرضى عليه رضاهم . واحذروا الكذب واجتنبوه فان الكذب يوصل الى الشر والانبعاث فيه وان الشر يوصل الى النار . وان الرجل ليتكرر منه الكذب ويتكرر منه تعمده والقصد اليه حتى يكتب عند الله كتابة خاصة كذابا فيؤثم إثم الكذابين ويسخط عليه سخطهم .

تفصيل وتقسيم :

الصدق والكذب يكونان باللسان على ما تقدم من التفسير وهو الأصل في إطلاقهما ، وعليه محمل الحديث . ويكونان في القلب من حيث الاعتقاد فالعقد الحق الجازم صدق والعقد الباطل كذب ويكونان في الجوارح من حيث الافعال ، فالافعال الموفر حقه الواقع على وجهه[1] صدق ، والفعل الناقص الواقع على غير وجهه كذب ، وجماعها كلها الحق والكمال في الصدق والباطل والنقص في الكذب فاقسام كل منهما مرتبط بعضها ببعض ارتباطا يكاد لا ينفصل ويكاد من التزم بعضها ألاّ يفارق الآخر . ولا يكمل العبد في مقام الصديقة الا بكماله في أقسام الصدق كلها ، وبعده عن اقسام الكذب كلها .

توجيه وتعليل :

كان الصدق يوصل الى البر والكذب يوصل الى الفجور لوجوه : الأول : ما بيناه في الفصل السابق من الارتباط بين أقسام كل منهما

(١) في الأصل (وجه) .

ورجوعهما الى أصل واحد . الثاني : ان التزام الصدق يحمل على الوفاء بالعقود والعهود والوعود في معاملة الناس،فتجري أعمال المرء مع غيره على سداد واستقامة والكذب بعد ذلك . الثالث : ان الملتزم للصدق يمسك نفسه عن أعمال السوء مخافة أن يسئل عنها فيصدق فيجر على نفسه سوءا أو يكذب وهو لا يرضى مواقعة الكذب فتجري أعماله على البر سالمة من الفجور . والملتزم للكذب الضاري عليه يرتكب العظائم ولا يبالي ان ينفي عن نفسه كاذبا . اما البر فيوصل الى الجنة لانها دار المتقين ، وأما الفجور فيوصل الى النار لانها دار الفاسقين . واما كتابة الملازم للصدق صديقا فجزاء له من جنس عمله ، فانه داوم على الصدق وثبت عليه حتى رسخ فيه وتمكن خلقا من اخلاقه ، فأثبت اسمه كذلك في الصديقين ومثله ملازم الكذب .

استفادتان :

الأولى : ان بين الخصال خصال البر وخصال الشر تناسبا وتوالدا أو هذا أصل يحتاج اليها في تهذيب الاخلاق وتزكية النفوس وعلاج أدوائها ، فان من عرف المرض الأصلي الذي نشأت منه أمراض أخرى سهل عليه اذا عالجه ان يقتلع ـ باذن الله ـ الباقي ، ومن عرف أصل الخير سهل عليه اذا تمسك به أن يحصل على فروعه . الثانية : ان تكرر العمل بمقتضى خلق من الاخلاق يقويه ويثبته وأن العمل على مقتضى ضده يضعه ويزيله ، وهذا أصل عظيم أيضا في التربية يعلمنا أن التساهل في الأعمال السيئة ولو كانت في نظرنا طفيفة يفضي بنا الى استعصاء داء الرذيلة ، وان القيام بالأعمال الحسنة ولو كانت طفيفة يبلغ بنا الى رسوخ الفضيلة .

استنتاج :

قد كتب الله مقادير الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض وجفت

الأقلام وجرت المقادير كما في الصحيح ، فهذه الكتابة كتابة أخرى من باب الجزاء للعامل على عمله يستحق بها صاحبها وصف الصديقين وثوابهم ، أو وصف الكذابين وعقابهم ، ويظهر بذلك في الملأ الأعلى عند ملائكة الرحمن ويكسي حلته بين الناس ويعرف به «وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ» .

ترهيب :

إن من داوم على الكذب حتى كتب من الكذابين يخشى عليه أن يحرم من التوفيق الى التوبة ، وتلك هي أكبر مصيبة ، فان الله من فضله على هذه الأمة أن فتح أمامها أبواب التوبة ، واذا داوم العبد على الإعراض عن باب سيده ، متهاونا بمخالفة أمره، حتى كتب عنده في سجل الشريرين كان ذلك خطرا عظيما عليه في ان يسد في وجهه الباب ويضرب بسوط الحرمان . ففي هذا الحديث الشريف ترهيب شديد من سوء عاقبة هذه الحال .

تحذير :

مواطن الهزل ومجالس البسط مما يتساهل فيها الناس فيلقون فيها الكلام بلا ضبط ، وتجري ألسنتهم بالكذب من غير مبالاة ولا احتياط فيقعون في الاثم على الكذب والاثم على التهاون بالمعصية ، ويتعودون ذلك التساهل حتى يقعوا في الوعيد المذكور في هذا الحديث ، فليحذر المسلم من مثل هذه الحال وليتفطن لنفسه في مثل هذه المقامات .

تحذير أوكد :

من قلة الاحتياط في الدين وعدم الاحترام للعلم ما يجري على ألسنة كثير من الناس قولهم : (قال رسول الله) ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ . دون معرفة برتبة الحديث عند أهله ، ومصيبة بعض المتسمين

بالعلم والقائمين بالخطب الجمعية في هذا أشد وأضر لتعديها منهم الى غيرهم ونشرهم الموضوعات الكثيرة في الناس ، ولا يكفيهم أنهم سمعوا أو وجدوا ، فقد قال النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — **(كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع)** رواه مسلم في مقدمة صحيحه، والكذب عليه — صلى الله عليه وآله وسلم — عظيم ، والتحري فيما دونه واجب فكيف به ، خصوصا وقد قال هو عليه وآله الصلاة والسلام **« يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا انتم ولا آباؤكم فاياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم »** . رواه مسلم في مقدمة صحيحه . وقال الامام سيدي محمد السنوسي — رحمة الله عليه — في شرحه لهذا الموضع : (وعلماء السوء والرهبان على غير أصل سنة كلهم داخلون في هذا المعنى وما اكثرهم في زماننا (القرن التاسع) نسأل الله تبارك وتعالى السلامة من شر هذا الزمان وشر أهله) انتهى كلامه .

سلوك :

على العاقل أن يضبط لسانه في الجد والهزل ، وان يحترس من الكذب في الجليل والحقير ، وان يتثبت فيما ينقل ويروي من حديث الناس ، وان يتثبت أكثر وأبلغ فيما يروي في الدين والعلم ، وأن يتحرى الصدق وتصوير الحقائق ، وان يجعل ذلك من همه وأعظم قصده ، وأن يبادر بالتوبة فيما يزل به لسانه الى ربه ، ويعمل دائما على أن يطابق بين عقده بقلبه ونطقه بلسانه وعمله بجوارحه حتى يكون متحريا للصدق بجميع أقسامه ويكتب به — بفضل الله ورحمته — في الصديقين . وفقنا لهذا ويسرنا له نحن والمسلمين اجمعين يارب العالمين يا أرحم الراحمين[1] .

---

(١) ش : ج ١٠ ، م ٨ ، ص ٥٠٠ — ٥٠٣
غرة جمادى الثانية ١٣٥١ هـ — اكتوبر ١٩٣٢ م .

لا لوم على صدق المتاب

محاجة آدم وموسى عليهما السلام

عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « تحاجّ آدم وموسى فحجّ آدم موسى • قال له موسى : أنت آدم الذي أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة • فقال له آدم : أنت موسى الذي أعطاه الله علم كل شيء واصطفاه على الناس برسالته ؟ قال : نعم • قال : أفتلومني على أمر قد قدّر عليّ قبل أن أخلق ؟ » • رواه الأئمة •

تمهيـد :

الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ بعد موتهم الدنيوي أحياء حياة برزخية روحية أسمى وأرقى من حياة غيرهم بمقتضى كمـالاتهم ومقاماتهم ، فتتلاقى أرواحهم في العالم العلوي القدسي ، ويكون بينهما التعارف والتخاطب • وعلى هذا الوجه وقعت هذه المحاجّة بين آدم وموسى عليهما السلام ، وقصها علينا النبي ــ صلى الله عليه وآلـه وسلم ــ لنستفيد ما فيها من العلم ونقتدي بما فيها من عمل •

الألفـاظ :

تحاج : تنازعا وذكر كل واحد حجته • فحج آدم موسى : غلبه في الحجة • أغويت الناس : أضللتهم ، أي كنت سببا في اخراجهم الى الأرض فأغويتهم وأضلتهم الشياطين • وأخرجتهم : أي كنت سببا في اخراجهم بأكلك من الشجرة • علم كل شيء : أي مما يحتاج اليه في

هداية الناس ، واصطفاه على الناس من غير المرسلين . قدر على أي سبق به علم الله ومضت به ارادته في الأزل .

المعنى :

التقى هذان النبيان الكريمان التقاء روحيا في العالم العلوي ، فوجه موسى الى آدم لومه على ما كان منه من الأكل من الشجرة والمخالفة مما أدى الى اخراجه من الجنة فنسل ذريته بالأرض فكان سببا في خروجهم اليها وتمكنت منهم الشياطين في دار التكليف فأغوت وأضلت من أغوت وأضلت منهم وكان ذلك كله بسببه . فدفع آدم هذا اللوم بأن ما كان منه كان مقدرا عليه قبل أن يخلق فلا لوم عليه فيه ، إذ لا دخل له في التقدير ، وعرض آدم لموسى بأنه ما كان ينبغي له أن يكون منه هذا اللوم على المقدر ، مع علو مقامه بالعلم والاصطفاء ، فغلب آدم موسى وقامت حجته عليه .

بسط وبيـان :

دلت الأدلة القطعية أن ما يكون من العبد سبق به علم الله ومضت به ارادته وكتب عليه قبل أن يخلق « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » ، « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ » ، « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » كما دلت الأدلة القطعية على أن الانسان موأخذ بعمله ملوم عليه لما عنده من التمكن وما له من الاختيار « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » ، « لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ » وانه لا مؤاخذة عليه بعد التوبة ولا لوم « إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ » .

وآدم عليه السلام كانت منه المخالفة على التأويل وتاب الله عليه، وكل ذلك قد كان في حياته فلم يبق عليه لوم بعد ذلك المتاب، فلما لامه موسى لم يكن سبب اللوم من ناحيته ــ وهو المخالفة ــ قائما لزواله بما كان من التوبة، ولم يبق الا التقدير السابق، وهو لا دخل له فيه، فكيف يلام • فقات حجته على موسى بسبب انعدام ما يوجب عليه اللوم، وهو المخالفة، فكان لوم موسى في غير محله •

دفـع شبهة :

قد احتج آدم بالقدر السابق فنهضت حجته، فهل يحتج كل مخالف بالقدر السابق فتنهض حجته ؟ كلا : فان الأدلة القطعية المتقدمة تمنع من ذلك منعا قاطعا • والتحقيق ان المخالف له حالتان : حالة التوبة الصادقة التي أسقطت المؤاخذة، وهذه هي حالة آدم التي احتج فيها فنهضت حجته، وحالة عدم التوبة، وهذه لاحجة فيها بالقدر لوجود المؤاخذة بالعمل المكتسب • وآدم وإن لم يذكر توبته بمقاله فهي مفهومة من حالة معروفة مما أنزله الله من كتبه على موسى وغيره •

دفع شبهة أخرى :

فاذا كان آدم لا لوم عليه لسقوط المؤاخذة بالتوبة فكيف لامه موسى ؟ والجواب : ان موسى لا يجهل هذا ولكنه غفل عنه أو غفل عما كان من آدم من التوبة، وتجوز عليه الغفلة وهو ليس في دار التكليف ولا في مقام التبليغ، فلما ذكر آدم دليله ذكر موسى ما غفل عنه فسلم •

اقتــداء :

المناظرة في العلم والدين والمحاجة بالحق من الأصول الشرعيــة والكمالات الانسانية لا يتعالى عنها كبير لكبره، ولا يحتقر فيها صغير

لصغره ، فالحق هو الحق على أي لسان ظهر ، والحجة هي الحجة من أي ناحية قامت . وعلى هذا الأصل حاج موسى آدم وهو أبوه .

ومن حق المناظر أن يذكر كل ما يراه من الحجة الحقة لإثبات قوله ولو كان فيه ثقل على خصمه ، وعلى هذا الأصل نسب موسى لآدم الاغواء والاخراج ـ وإن لم يكن من فعله ـ لانه متسبب عنه .

ومن الواجب على من لاح له الحق في حجة خصمه أن يسكت ويسلم .

فقد علمنا ان النبيان الكريمان[1] كيف يعتمد[2] على الحجة في البداية وكيف يخضع[3] لها في النهاية والقدوة هما صلى الله وسلم عليهما[4] .

(١و٢و٣) كذا في الاصل ويبدو أن التعبير مضطرب لنقص بعض الجمل او لسقوطها حين الطبع .

(٤) ش : ج ٥ ، م ١٥ ، ص ٢٠٨ ـ ٢١١
غرة جمادى الاولى ١٣٥٨ هـ ـ جوان ١٩٣٩ م .

مجالس العلوم

الاقبال عليها والاعراض عنها

عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه :

« بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ جالس في المسجد والناس معه اذ أقبل نفر ثلاثة ، فأقبل اثنان الى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وذهب واحد . فلما وقفا على مجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ سلما ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهبا . فلما فرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة : أما أحدهم فأوى الى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه » .

السنـد :

خرّجه مالك وتلقاه من طريقه الأئمة البخاري ومسلم والترمذي والنّسائي رضي الله عنهم .

الفاظ المتن :

الفرجة : الخلل بين الشيئين . أوى : أوى الى منزله ، نزله واستقر فيه ، وأوى الى الله لجأ اليه ودخل مجلس ذكره ومنزل أوليائه . آواه : أنزله منزله وأدخله مسكنه ، وآواه الله قبله وضمه الى أهل مجلس ذكره وأناله ما ينيلهم من رحمته . استحيا : الحياء تغير

وانكسار يعتري الانسان عند خوف ما يذم به أو يلام عليه فيمنعه منه • فاستحيا هذا معناه امتنع من الذهاب كما ذهب صاحبه أو ترك المزاحمة في الحلقة • فاستحيا الله منه : ترك عقابه ولم يحرمه من ثواب • أعرض : التفت الى جهة أخرى فذهب اليها • فأعرض الله عنه : حرمه من الثواب •

البيـــان :

كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يجلس في المسجد النبوي لأصحابه ويجلسون اليه حلقة فيعلمهم القرآن ، والحكمة ، ويعظهم ، ويرشدهم ، فجاء هؤلاء الثلاثة من طرف المسجد والنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في حلقته ، فأقبل اثنان وذهب الثالث ودخل أحد الاثنين في الحلقة فسد فرجة وجلس الآخر خلف الحلقة فلما فرغ النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من درسه أراد أن يعرف القوم بصنيع الثلاثة ليعلموا حكم عمل كل واحد منهم في الشرع ، فبين لهم أن الأول نال الأجر والمدح باقباله على مجلس العلم وسده الفرجة ، وان الثاني سلم من الذم ولم يكن له من الأجر للاول ، وان الثالث حرم من الأجر وتحمل الملامة •

تحرير :

فسر الاعراض بالغضب والسخط ، وفسرناه بالحرمان من الأجر مع الملامة ، لأن ترك الإتيان ليس تركا لواجب حتى يستوجب صاحبه الغضبَ والسخطَ الذي من مقتضاه الاثم ، بدليل ان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يمنعه من الذهاب • ويؤيد تفسيرنا ما جاء عن أنس عند الحاكم ولفظه (فاستغنى فاستغنى الله عنه) وهذا ظاهر ان معناه لم يقبل على ما فيه أجر وثواب فلم يعط أجرا ولا ثوابا •

وفسر بعضهم استحياء الثاني بانه لم يدخل للحلقة ، وفسره آخرون

بانه استحيا من الذهاب عن المجلس ، والتفسير الثاني أرجح لأن سد الفرجة مطلوب فلا يمدح بالاستحياء منه • ولأنه جاء في رواية أنس عند الحاكم (ومضى الثاني قليلا ثم جاء فجلس) • وهذا نص في المراد•

الفوائد والأحكام :

الاولى : الجلوس في المساجد حلقا للتعلم والتعليم •

الثانية : تعليم الناس ووعظهم وارشادهم في المساجد ، وهذان مما أجمع عليه المسلمون في جميع الأعصار والأمصار وجرى عليه عملهم وعلم بالضرور عندهم فلا يتعرض لهم فيها الا ظالم من شر الظالمين • له في الدنيا خزي وله في الآخرة عذاب عظيم •

الثالثة : التعليق للعلم وتنظيم الحلقة وسد فرجها فهي في ذلك كصفوف الصلاة فيجوز التخطي لسد الخلل كما فعل الاول ويجلس خلفها اذا لم يكن موضع فيها كما فعل الثاني •

الرابعة : فضل الاقبال على مجالس العلم وكراهة الاعراض عنها الا لعذر •

الخامسة : بيان احكام الاعمال التي تقع امام الناس حين وقوعها ليرسخ علمها ويتعظ بما فيها •

السادسة : لوم من زهد في الخير ولم يحرص عليه وان لم يكن ذلك الخير من الواجبات عليه في تلك الحال •

اهتـداء :

ان من يؤمن بأنه يحاسب على مثاقيل[1] الذر من أعماله لا يكون الا حريصا على الخير أقل القليل منه ، ومن شأن الحريص على الخير

(١) في الاصل : ميثاقيل .

أن يسارع اليه ويسابق فيه فلا يرى موطنا يشغله بين أهله الا ملأه ولا نقصا يمكنه تكميله الا كمّله . حتى اذا سبق الى خير وقف عندما حصل وكان له بنيته أجر من سبق . فهذا المجلس النبوي الكريم مثله في المعنى جميع مواطن الخير ومشاهد الفلاح . بصرنا الله بالخير وحببنا فيه وأعاننا عليه وجعلنا من أهله[1] .

(١) ش : ج ٣ ، م ١٣ ، ص ١٢١ — ١٢٤
غرة شعبان ١٣٥٦ هـ — ٢ ماي ١٩٣٧ م .

درس ختم الموطأ[1]

كما نقله في وقت الالقاء بعض التلامذة

وقد اجتهد أن يؤدي اغلب المقصود

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم • وبه ثقتي وأستعين وصلّى الله على سيدنا محمد النبي **الأسعد** الكريم ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما •

الحمد لله نحمده ونستعينه ، من **يهده** الله فلا **مضل له** ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله • أما بعد : فان خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة •

بالسند المتصل الى الامام أبي عبد الله مالك بن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال : « أسماء النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ » وبه قال مالك عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم ان النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **لي خمسة أسماء ، أنا محمد وأنا احمد وأنا الماحي الـذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الـذي يحشر النـاس على قدمي وأنا العاقب** » .

السند :

روى مالك هذا الحديث مرسلا ، ورواه عنه كذلك يحيى بن يحيى

---

(١) ش : اكتفينا بهذا الدرس الجليل عن الحديث المعتاد لمجالس التذكير (المؤلف) .

والأكثرون ، وجاء مرويا عنه مسندا عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه وكثيرا ما يروي مالك الحديث مسندا ومرسلا • ولا يرسل مالك ولا يأتي ببلاغ في الغالب الا وهو على علم بمن يترك من السند انه محل الثقة والقبول والاعتماد • فاما اذا شك فانه يصرح بشكه • وتصريحه بالشك حين يشك يدلنا على ماعنده من العلم واليقين عندما يسكت دون أن يصرح بالراوي • ومن الدليل على انه اذا كان على شك من الأمر يصرح ما تقدم لنا قريبا في باب التعفف عن المسألة ، فلما روي عن العلاء بن عبد الرحمن قوله : **« مـا نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلاّ عزّ وما تواضع عبد الا رفعه الله »** قال لا أدري أيرفع هذا الحديث الى النبي ــ صلى الله عليه وآلــه وسلم ــ أم لا • ؟

ثم ان هذا الحديث قد جاء مسندا في الصحيحين وغيرهما •

المتــن :

فيقوله ــ صلىاللهعليهوآلهوسلم ــ ليخمسةأسماء،مفهومان:مفهوم الحصر ومفهوم العدد • فأما الأول : فمن تقديم الجار والمجرور ، وأما الثاني : فمن لفظ خمسة ، لكن المفهومين ليسا سواء ، فان مفهوم العدد غير معتبر كما هو أصح الأقوال ، نعم يسئل عن وجه الاقتصار على هذا العدد اذ كان هناك غيره ، فان النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ له اسماء كثيرة قد أنهاها بعضهم الى الألف • فاقتصاره هنا على ذكر خمسة لا بد أن يكون لوجه اقتضى الاقتصار عليها • ووجه ذلك أنها هي التي سمي بها في الكتب المنزلة • وهي الخمسة التي يختص بها وليس لغيره ألفاظها ولا معانيها كما سيتبين • واذا كان سمي بغيرها في الكتب المتقدمة فهذه هي الأشهر والأكثر وكفى بهذا الذي ذكرنا وجها لتخصيصها بالذكر •

وأما مفهوم الحصر في قوله لي خمسة أسماء أي ليست لغيري فهو مفهوم معتبر وهو حصر صحيح ثابت من جهة المعنى ومن جهة اللفظ •

فاما الاول : فاننا نجد معانيها ليست الا له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مختصا بها بين أخوانه من الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهم المشاركون له في الكمالات ولكن الله يفضل منهم من يشاء بما يشاء لا لنقص في المفضل عليه ولكن لخصائص زائدة في المفضل ، واما الثاني : فكذلك ايضا على ما سنبين •

« أنا محمد » : مشتق من الحمد ، والحمد هو الثناء بذكر الكمالات والصفات الفاضلة المشتملة على ما هو من صفات الذات ، أو من صفات الأفعال وعلى ما هو من باب الكمالات أو من باب الانعام • وانما يعبر من الثناء ما كان حقا وصدقا بمطابقته للواقع وبمطابقته لما في القلب • ومحمد : اسم مفعول من حمد المضاعف العين ، وهو يقتضي التكثير ، فالحمد هو ذو الخصال الكثيرة الحميدة التي تقتضي حمده مرة بعد اخرى • فالمحمود هو من وقع عليه الحمد ولو مرة واما المحمد فالذي يكثر حمده • وهو في الأصل صفة وقد نقل من الوصفية الى العلمية وجعل دالا على الذات المسماة بهذا الاسم •

والمسمي له بهذا الاسم هو جده عبد المطلب بالهام من الله ، ـ والالهام من الله هو ما يوفق الله اليه العبد ويهديه اليه دون علم سابق ولا دليل ظاهر ، وانما هي هداية ربانية تكون بارشاد القلب الى الشيء الملهم اليه ـ فهذا الاسم النبوي علم منقول من الصفة وهو وان كان موضوعا للذات ، فان الواضع يلاحظ عند الوضع معنى تلك الصفة التي نقل منها • ويدل لهذا ما جاء ان عبد المطلب لما سئل عن تسمية ابنه بهذا الأسم ـ ولم يكن من أسماء آبائه وأجداده ، ومن عاداتهم ان يحيوا ذكر آبائهم وأجدادهم بتسمية أبنائهم بأسمائهم ـ أجاب

اني لارجو ان يحمده أهل الأرض كلهم • فدل هذا على أن العربي الواضع للعلم الوصفي يلاحظ معناه لما كان صفة ، وبهذا يكون الاسم وغيره ــ مع العلمية ــ منطويا ومشتملا على الثناء عليه • ولهذا يعبر القاضي عياض بقوله : « فمن خصائصه تعالى له ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ان ضمن اسماءه ثناءه ، فطوى أثناء ذكره ، عظيم شكره » وما كانت الأسماء منطوية على الثناء الا مع ملاحظة ما كانت عليه قبل العلمية •

والثناء الذي يشتمل عليه هذا الاسم الشريف هو ما دل عليه من كثرة خصاله التي يحمد عليها ويكون حمده عليها متجددا • وهذا قد تحقق وهو واقع مشاهد فانه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قد حمده الخلق ويحمدونه دنيا وأخرى ويزداد ذلك في المواطن التي يزداد علم الناس بما أعطاه الله من كمالات وما أظهر على يده من إنعامات ويزداد علمهم بذلك بقدر ما يزداد تقدمهم في العلم والمعرفة ، حتى أننا نرى في عصرنا هذا من غير المسلمين ممن ينصفونه فيذكرون من كمالاته والخير الذي أصاب البشرية على يده ، فيشكرونه ويكررون الثناء عليه • فاما من أهل الايمان به فهو كثير شهير ، ثم ان الخلق كلهم يوم القيامة يحمدونه بما يشاهدون من النعم التي أعظمها وأجلها موقفه في الشفاعة العامة ، فيحمدونه الحمد المتجدد المتكرر عندما يشاهدون ما لم يكونوا من قبل يعرفون •

« وأنا أحمد » : وهو مشتق أيضا من الحمد ، غير أن فعله حمد السالم المسند الى الفاعل ، وهو علم منقول من اسم التفضيل ، والأحمد هو الأكثر حمدا من غيره • وقد علمنا ان النقل تصحبه تلك الملاحظة ، فقد سمي أحمد على اعتبار أنه أكثر الخلق حمدا لله ، فالخلق كلهم يحمدون الله بلسان الحال أو بلسان المقال • وهو أكثرهم حمدا لله على كل حال •

هذا وقد ذهب قوم الى أن أحمد من فعل حمد المبني للغائب على معنى أنه أكثر محمودية من غيره . وتنتفي مرادفته للأول بجعل الأول راجعا للملكية أي لكثرة الصفات التي يحمد عليها ، وجعل هذا راجعا للكيفية أي أفضلية ما يحمد به . والذي يقرر هذا هو الامام ابن قيم الجوزية ويقول في تقريره : لو كان أحمد من المبني للفاعل لكان الأولى أن يسمى حمَّادا لأنه هو الذي يفيد كثرة الحمد . وهذا من هذا الامام على جلالته سهو وغفلة فان أحمد عندما يكون منقولا من اسم التفضيل المسند للفاعل يفيد تفضيله على جميع الحامدين المقلين والمكثرين فهو الاكثر حمدا لله من كل من أقل أو كثر . وأما حماد فانما يفيد كثرة حمده ومن كثر حمده قد يساويه أو يفوقه فيه غيره فاما أحمد فيفيد ــ خصوصا مع حذف المتعلق ــ انه بلغ من كثرة الحمد الى مقام كان فيه أكثر حمدا لله من كل حامد .

على أن هنالك شيئا آخر لا بد من ملاحظته وهو أن الاسمين يراد بهما الدلالة على تكميل الله له من ناحيتين ، الناحية التي يكون فيها في مقام التعظيم والتكريم بالثناء عليه وهو ما يقتضيه اسم محمد . والناحية التي يكون فيها في مقام الخضوع والخشوع بحمده لله تبارك وتعالى وثنائه عليه ، وهو ما يقتضيه اسم أحمد المنقول من المسند للفاعل ، فمحمد دلنا على مقامه الأول الذي يكثر فيه له الحمد ، وأحمد دلنا على مقامه الثاني الذي يكثر فيه منه الحمد ، ودلنا على انه في هذا المقام قد فاق سواه وكان فيه لا نظير له . وهذا المعنى لا يمكن أبدا أن يستفاد من حماد . على ان أحمد المأخوذ من المسند الى الفاعل هو الذي يجري القياس ، والمتبادر الى الاذهان عند سماع اسم التفضيل هو الاسناد الى الفاعل ولا يفهم الاسناد الى المفعول الا بقرينة .

وحمده لله الذي فاق فيه كل حامد لا يكون الا عن ايمانه ومعرفته

لكلمات الله وانعاماته فيقتضي انه فاق فيهما جميع الخلق . والايمان والمعرفة يقتضيان الطاعات الظاهرة والباطنة فيكون قد فاق في الطاعة جميع الخلق وبهذا كان الاسم متضمنا لاكمل الثناء عليه بانه أكمل عبد لله علما وعملا .

وهذان الاسمان الشريفان مرتبان في التسمية بهما للخلق والاسبق منهما عند قوم وهم الاكثرون هو أحمد وهو الذي سماه الله به في الانجيل كما في سورة الصف : « وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » . ثم محمد الذي سماه به جده توفيقا من الله وهو اسمه في القرآن العظيم كما في سورة الفتح : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ » . فالسابق اذاً هو أحمد . والذين يذهبون الى هذا يقولون ان الترتيب بينهما في التسمية على حسب الترتيب الذي بين المقامين المدلولين لهما فان المقام الاول هو مقام عبوديته وحمده لله ، والمقام الثاني هو مقام كماله باخلاقه وصفاته وأعماله . فهو قد حمد الله أكثر الحمد في مقام عبوديته فجازاه على ذلك بان كان محمودا مكررا حمده في مقام كمالاته والجزاء من جنس العمل فهو ما كان محمدا حتى كان أحمد وهذا ترتيب ظاهر وجيه . ويكون وجه تقديم اسم محمد في هذا الحديث على هذا القول انه أشهر أسمائه وانه اسمه في القرآن العظيم.

وذهب قوم الى أسبقية اسمه محمد ، وانه سمي به في التوراة ، واستدلوا على هذا بادلة ونقلوا من التوراة نقولا . ووجه التقديم لاسم محمد على هذا القول انه نظر الى انه يوجد على فطرة الكمال ويشب على الكمالات والاخلاق الفاضلة التي يتكرر حمده عليها وقد حمده أهله صبيا رضيا ، وحمده قومه شابا سريا وسموه بالامين ثم لما أنعم الله عليه بالنبوة كان أحمد الخلق لله بما كان له حينئذ من العلم بكمالات الله وانعاماته . وهو وان كان مفطورا على الايمان والعلم والكمال

وقد كان حامدا لله من يوم ادراكه لكن حمد النبي الرسول ليس كحمد من لم يكن بعد نبيا رسولا . فعلى هذا النظر من الترتيب يظهر وجه الاسبقية لاسم محمد على هذا القول .

« وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر » والمحو هو الإزالة . وفسرلنا ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ هذا الاسم دون الاسمين السابقين لأن اشتقاقهما كاف في ظهور معناهما ، بخلاف الماحي فانه قد يخفي المراد منه باعتبار الشيء الممحو ولذلك بينه بقوله الذي يمحو الله بي الكفر .

وهذا المحو الذي كان به ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ علمي واما عملي وقد حصل المحو به ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ للكفر علميا وعمليا فاما الاول فقد جاء النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بأدلة قاطعة وبراهين ساطعة على صدقه في كل ما جاء به من الحق والهدى والنور جاء من ذلك بما لم يأت به غيره وكل ذلك محو وازالة للكفر في العالم العالمي . وأما الثاني فانه صلى الله عليه وآله وسلم جاء والارض في ظلمة من الكفر بين ضلال أهل الكتاب ووثنية المشركين وأنواع أخرى من كفر الكافرين فدعا الى الله وصبر وجاهد ، فما مات ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ حتى انتشر الاسلام في جزيرة العرب كلها التي كانت سببا في انقاذ البشرية ومصدرا لهدايتها فهذا محو عملي ، ومحو آخر وهو انه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قد زويت وطويت له الارض حتى شاهد مشارقها ومغاربها وقيل له انه ستبلغ دعوته الى مازوى له منها وقدكان ذلك . ففي الأمد القصير ظهر الاسلام في مشارق الارض ومغاربها وامحى سلطان الكفر وانهدت عروش الجبابرة عرش القياصرة بالشام وعرش الاكاسرة بالعراق وتتابع المحْو والازالة .

قال : يمحو الله لان الخالق انما هو لله . ويقول : بي لانه هو السبب . ويفيد المضارع ان المحو يتجدد وكذلك كان فما زال المحو

العلمي يتجدد فما نجمت ضلالة الا وكان فيما جاء به حجة دامغة لها وما زال المحو العلمي كذلك يتجدد والاسلام ينتشر من نفسه انتشارا لا يلحقه فيه غيره ممن ينفقون في نشر نحلهم الاموال الطائلة ويسخرون القوات المتنوعة الهائلة وليس انتشاره في خصوص الامم المنحطة بل في الامم الراقية والذين سبقوا اليه منها هم علماء مما يدل على ان أكبر آيات الاسلام هي آياته العلمية الخالدة • فالمحو يتجدد تجددا مشاهدا مستمرا بهذا النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام •

« وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي » الحشر : الجمع وتقدير الكلام على أثر قدمي وجمع الناس على اثر قدمه كناية عن اتباعهم له • والمعنى : ان اللهيجمع الناس كلهم على شريعته جمعا تشريعيا فلا يقبل من أحد شيئا الا باتباعه في شريعته والسير على آثر اقدامه ، سواءاً كان من أهل الملل الاخرى أو من أهل ملته فلا نجاة لكافر من ضلال الكفر الا باتباع شريعته ، ولا نجاة لمسلم من ضلال البدعة الا باتباع سنته •

ويفيد المضارع في قوله (يحشر) ان هذا الجمع متجدد لأن شريعته دائمة وسنته باقية فما من جيل الا وهو مكلف بالسير على قدمه وذلك معنى تجدد جمع الناس جمعا تشريعيا على اتباعه • واسند الحشر لنفسه في قوله الحاشر لانه الكاسب المباشر المبلغ عن الله شرعه لعباده وقال يحشر باسناد الحشر الى الله وحذف الفاعل للعلم به من المعنى وسياق الكلام ، لانه هو الخالق المشرع • على أوزان قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ » ، وقوله : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » •

« وأنا العاقب » : هو الذي يخلف شيئا ويأتي بعده ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم جاء بعد جميع الأنبياء والمرسلين ــ عليهم الصلاة

والسـلام ــ وخلفهم • وقد جاء في روايـة مسلم مفسرا فقـال : ((**وأنا العاقب الذي لا نبي بعده**))وعندغيرمسلم((**الذي لا نبي بعدي**)) وأفاد بالتفسير انه لا يعقبه غيره فهو خاتم الانبياء والمرسلين صلى الله وسلم عليهم أجمعين •

تقدم لنا في صدر الدرس أن قوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لي خمسة أسماء يقتضي اختصاصه بها وهو اقتضاء صحيح ومطابق للواقع فهذه الاسماء ليست الا له إذ لم يسم الله نبيا ولا رسولا بواحد منها فهو مختص بالتسمية بها من الله بين سائر اخوانه من الانبياء والمرسلين ــ عليهم الصلاة والسلام ــ •

نعم قد سمى بعض العرب أبناءهم محمدا قبل البعثة بقليل ، وهم نفر قليل ولم يعرفوا بنبوة ، ومنهم من أسلم فكان من اتباع النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ، فكان ذلك القليل النادر في حكم العدم ، على ان المقصود بتخصيصه تخصيصا من بين سائر الانبياء والشيء انما يفضل بالنسبة لمن في منزلته • فمحمد ــ صلى اللهعليهوآله وسلم ــ لما تذكر فضائله وخصوصياته انما تذكر بالنسبة للانبيـاء والمرسلين فاذا قلنا ان محمدا ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ خص بكذا بهذا الاسم مثلا فمعنى ذلك اننا لا نجده لمثله من الانبيـاء والمرسلين • فهذا الاختصاص اللفظي بهذه التسمية •

وكذلك هو مختص بها من جهة معانيها فله من الكمالات التي يتحلى بها والانعامات التي جعله الله سببا فيها والمواقف التي يقفها ما ليس لغيره ، فليس ينال غيره من الحمد مثل ما يكون له من الله ومن الناس وهو يقابل تلك النعم الربانية عليه بالحمد ، فلا يكون الحمد من أحد مثل الذي يكون منه لله • وكفى في هذا حديث الشفاعة الثابت المشهور فانه لما يخر ساجدا لله يفتح عليه بانواع من الحمد لم

يكن يعرفها هو من قبل فقد بلغ في حمده لله مقاما لم يبلغه احد • ولما يتقبل الله شفاعته العامة في فضل القضاء يحمده أهل الموقف كلهم في ذلك المقام المحمود ، فقد بلغ من حمد الناس له مقاما لم يبلغه غيره • فبان اختصاصه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بمعنى الاسمين الشريفين محمد وأحمد دون جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام •

وكذلك الاسم الثالث فانه مختص بمعناه • واذا راجعنا تواريخ الأنبياء والمرسلين ــ عليهم الصلاة والسلام ــ فاننا لا نجد أحدا منهم محي به من الكفر ما محي بمحمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ولنقتصر على هذين النبيين الكريمين موسى وعيسى ــ عليهم الصلاة والسلام ــ فأنتم تعرفون من القرآن ما قاسى موسى من بني اسرائيل الذين ما جفت أقدامهم من ماء البحر حتى قالوا اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة • وما تقصه كتبهم يدل أنهم لم ترسخ لهم قدم في الإيمان ، فأي محو هنا ؟ وأما عيسى ــ عليه الصلاة والسلام ــ فقد رفعه الله اليه وما آمن به الا أفراد ثم بقيت دعوته مغمورة • ومـا انتشرت النصرانية المنسوبة اليه باطلا الا بعد ثلاثمائة سنة على يـد ملك بيزنطا قسطنطين • على انهما ــ عليهما الصلاة والسلام ــ لم يرسلا رسالة عامة حتى يعم المحو بهما وانما ارسلا رسالة خاصة لبني اسرائيل كما لم يأتيا من الآيات بمثل ما أتى به لمحو كل كفر وباطل ، وكفى بآية القرآن الخالدة على الزمان المتجددة على الاجيال • فهذا يبين لكم ان المحو العلمي والعملي بأكمله وأشمله انما هو خصوصية له عليـه الصلاة والسلام •

ولعلكم تقولون ان العرب قد ارتدت بعد موته ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فأين هو المحو ؟ فالجواب : ان الردة لم تكن عامة ، فان الأكثر والأظهر هم الذين ثبتوا على الاسلام والطاعة لخليفة رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ولم يبدلوا شيئا ، وطائفة كثيرة

بقيت على الاسلام وانما امتنعت عن أداء الزكاة ، وهذه هي التي توقف عمر وغيره في قتالها وشرح الله صدر أبي بكر لقتالها ورجع الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ اليه ، وطائفة اخرى ارتدت عن الاسلام جملة كاصحاب طليحة وسجاح ــ راجعا الاسلام بعد ــ والاسود ومسيلمة وكان في غمار هؤلاء المرتدين أفراد من المؤمنين يقاومون وتوقفت طائفة تنتظر لمن تكون الغلبة •

وكان السر الاكمل في هذه الردة على تفصيلها ان يتبين للناس ان الذين اتبعوه اتبعوه لانه نبي لا لانه عربي •

لقد ثبت المحو به مباشرة في الاكثر الاظهر وثبت المحو بواسطة خليفته ومن معه ممن انطبق عليهم قول الله : « فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » • والمحو على يد هؤلاء السادة محو به • وهكذا كل محو يقع على يد اتباعه الى يوم الدين فهو محو به وله مثل حسنات مباشريه على قاعد السابق للخير والبارىء به والداعي اليه •

وكذلك الاسم الرابع فهو مختص بمعناه لان الله لم يجمع الناس جمعا تشريعيا على نبي قبله فقد كان النبي يرسل الى قومه خاصة وارسل هو ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ الى الناس عامة •

وكذلك الاسم الخامس فهو المختصر ، بختم الانبياء والمرسلين صلى الله وسلم عليهم اجمعين •

هذه الاسماء الشريفة نأخذ منها حظ العلم وحظ العمل فاما حظ العلم فقد تقدم ، وأما حظ العمل فعلينا اذ علمنا معنى اسمه محمد

ان نستكثر من الاخلاق الطيبة والاعمال النافعة والمواقف الشريفة مما تنال به الحمد من الله والناس •

وعلينا اذ علمنا معنى اسمه أحمد أن نكثر من حمد الله على نعمه نعم الخلقة ونعم الهداية ، فنحمده اجمالا وتفصيلا ، ويتضمن هذا علمنا بهذا النعم وذلك يقتضي توسيع دائرة معلوماتنا بخلقه وبشرعه فنتناول كل ما نستطيع من العلوم والمعارف التي توصلنا الى ذلك وتدلنا عليه •

وعلينا اذا علمنا معنى اسمه الماحي ان نعمل على محو الكفر والضلال والشر والباطل وكل ما ينهي عنه الاسلام وما ابتدعه المبتدعون وحملوه اياه • نمحو ذلك كله من أنفسنا وحيثما استطعنا ولا سبيل الى هذا المحو الا بالعلم والعمل واظهار الاسلام بسلوكنا في الحياة امام الناس في مظهره الصادق الصحيح فأعظم ما محى به الكفر سلفنا الصالح هو هديهم وسلوكهم وتطبيقهم للاسلام تطبيقا صحيحا على الحياة في انفسهم وفي غيرهم في جميع الأحوال •

وعلينا اذ علمنا معنى اسمه الحاشر أن نتقيد بشريعته وسننه فلا نقول ولا نعمل ولا نعتقد الا مالا يخرج عنهما فيكون قولنا دائما ماذا قال محمد — صلى الله عليه وآله وسلم — وماذا فعل وكيف كان في مثل هذا الموقف في مثل هذا الحال في كل مانقفه من مواقف وما يعترضنا من احوال وبهذا نكون قد حشرنا أنفسنا على اثره • وعلينا ان ندعو الناس الى اتباع شريعته وسننه بما نبين لهم من براهين الحق وأدلة الصدق وبما نذكر لهم من محاسنه ومحاسن ماجاء به وبذلك نكون قد عملنا على حشر ما استطعنا من الناس على شريعته وجمعنا ما أمكننا من القلوب على تعظيمه ومحبته ، وفي ذلك الخير والسعادة للناس اجمعين •

وعلينا اذ علمنا معنى اسمه العاقب وهو الخاتم ان نرد كل ما يحدثه

المحدثون من زيادة في شريعته ، ونعد كل من يأتي ذلك ويتظاهر بالاسلام دجالاً من الدجاجلة وقد أخبر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ انه يكون بعده دجاجلة وكذابون وأولهم مسيلمة والمتنبؤون الكذبة فلا قول الا قوله ولا هدى الا هديه ولا اسلام الا ما جاء به .

* * *

ها ان مالكا ـ رحمه الله تعالى ورضي عنه وجازاه عنا أحسن الجزاء ـ قد ختم كتابه الجليل بهذا الحديث الشريف المشتمل على هذه الأسماء النبوية الكريمة فهل هنالك من نكتة ؟

ان هذا الموطأ هو أقدم كتاب لنا ألفه امام عظيم من أتباع التابعين ، وهو كتاب يعلمنا العلم والعمل ويعرفنا كيف نفهم وكيف نستنبط وكيف نبني الفروع على الأصول ، يعطينا هذا كله وأكثر منه بصريح بيانه وباسلوب ترتيبه للأحاديث والآثار والمسائل . وان شراح هذا الكتاب الجليل لم يوفوه حقه ـ في نظري القاصر ـ من هذه الناحية وهي من اعظم نواحيه .

ومما هو مشهور من ابتكار مالك في كتابه هذا الكتاب الجامع الذي ختم به الموطأ ، فانه نظر الى مسائل عديدة من أمهات الشريعة في العقائد والأخلاق والآداب والأحكام وغيرها فنظمها في سلك واحد وسماها بالكتاب الجامع ، وهذه الأصول التي نظمها في هذا الباب بنى عليها من جاء بعده فروعا وعقد عليها أبوابا كالبخاري وغيره .

وان مالكا لم يذكر في موطئه كتابا خاصا بالسيرة النبوية كما فصل ذلك غيره ممن جاء بعده ولكنه ذكر اسماءه الشريفة ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكفاه وذكر اسمائه متضمنا لسيرته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكفاه في ذكر حياته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ان يذكر اسماءه .

ولما كانت سيرته من بدايتها الى نهايتها هي المثال الصادق للشريعة كلها والسفر الجامع للدّين الاسلامي كله ــ ختم كتابه بهذا الحديث المشتمل على هذه الاسماء المتضمنة لها . وهو كالتحصيل بعد التفصيل.

ونكتة أخرى وهو ان كل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علما وعملا فاننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية. والمثال الكامل لذلك كله هو حياة محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ في سيرته الطيبة فهذا الحديث بعد ما تقدمه من الكتاب كله مثل الغاية من الوسيلة .

فسيرته ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ هي الجامعـــة لمحاسن الاسلام والغاية لكل كمال .

ومن أبدع المناسبة لختم الكتاب ان كان آخر هذه الاسماء الشريفة هو العاقب والعاقب هو الخاتم ، عليه وعلى جميع الانبياء والمرسلين وجميع الآل والتابعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين(1) .

(1) ش: ج ٧ ، م ١٥ ، ص ٣٣٢ ــ ٣٤٤
غرة رجب ١٣٤٨ هـ ــ اوت ١٩٣٩ م .

آثــار وأخبــار [1]

« استقر رأي الأعضاء الاداريــين لجمعية العلمــاء المسلمــين الجزائريين على تخصيص الصفحة الأولى من جريدة الجمعية بهذا الباب: باب الآثار والأخبار •

والمنقول في هــذا البــاب هو الحديث المرفوع الــى رسول الله ـ صلى الله عليه وآلــه وسلم ـ ، والأثر المروي عن أحــد الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ ، والقول المنسوب الى امام من أئمة الدين أو صالح من صلحاء المؤمنين رحمة الله عليهم اجمعين •

ويختار من الآثار والأخبار ما قل لفظه ليسهل على القارىء حفظه، ودل مع ذلك على ترغيب أو ترهيب أو تربية أو تسلية •

وعلى القارىء أن يحفظ ما يجده في هذا الباب من الآثار • وعلى الكاتب أن يعقب كل اثر بتعليق يشير فيه الى ما حضره من فوائد تؤخذ من ذلك الأثر ، ولا بأس أن يكون التعليق منقولا ايضا • فان المقصود هو أن يحرص الكاتب على إفــادة القارىء سواء في ذلك افادته بما فهمه هو أو بما فهمه غيره •

١ ـ شكوى علماء الدين من الأرذال المفسدين

روى ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » عن الحسن البصري أحد كبار علماء التابعين انه قال :

---

(١) اخترنا ان نلحق هذه المقالات بقسم الحديث لانها تــدور حوله في اغلبها .

اللهم اليك نشكو هذا الغثاء الذي كنّا نحدث عنه ، ان اجبناهم لم يفقهوا ، وان سكتنا عنهم وكلناهم الى عي شديد • والله لولا ما أخذ الله على العلماء في علمهم ما انبأناهم بشي ابدا (١ : ٦) •

تعليق :

الغثاء في الأصل ما يخالط زبد السيل من أعشاب وأوراق ، والمراد به هنا أرذال الناس وسقطهم •

وقد أفاد الأثر أولا : ان علماء الدين المرشدين كانوا من قديم الزمان يعانون متاعب في الارشاد ويتحملون اذايات المفسدين ، ويتلقون اعتراضات من أدعياء العلم المفتونين •

وثانيا : ان تلك المتاعب والاذايات والاعتراضات لا تسقط عن العالم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا تنجيه من تبعة الكتمان الثابتة بقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِين يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ) وبقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ •

« من سئل علما علمه فكتمه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار » رواه ابن عبد الله في الجامع وابو داود والترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي وغيرهم بروايات متحدة المعنى متقاربة الألفاظ •

وثالثا : ان العلم أمانة عند العلماء ، وهم مكلفون بادائها لمستحقيها • وليس العلم ملكا لهم يستغلونه فيكتمونه ان رأوا الكتمان أوفق بمصالحهم الشخصية ، وينشرون منه مالا يصادم أهواء العامة بل يزيدهم جاها لديهم • ولا أبخس صفقة ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة •

٢ ـ حكم طلب العلم

روى ابن عبد البر في جامعه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ **« اطلبوا العلم ولو بالصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم »** (١ : ٧) .

تعليق :

أفاد الحديث أمرين : أحدهما وجوب طلب العلم ، وثانيهما عدم اعتبار المشقة في طلبه مانعا من وجوبه ، بلغت المشتقة ما بلغت .

والحديث رواه ابن عبد البر من طرق متعددة ثم قال (... في أسانيده مقال لأهل العلم بالنقل ، ولكن معناه صحيح عندهم وان كانوا قد اختلفوا فيه اختلافا متقاربا) .

ومثار الخلاف الذي اشار اليه ابن عبد البر مافي لفظة العلم من الاجمال ، فان المراد من العلم العلم الديني قطعا ، لكن مسائل الدين منها ما هو فرض ومنها ما هو غير فرض ومنها ما هو فرض عيني ومنها ما هو فرض كفاءي .

وقد أورد ابن عبد البر أقوال الأئمة في معنى الحديث ، فروى عن اسحاق بن راهويه انه قال : « معناه انه يلزمه طلب علم ما يحتاج اليه من وضوئه وصلاته وزكاته ، ان كان له مال ، وكذلك الحج وغيره ، وما وجب عليه من ذلك لم يستأذن أبويه في الخروج اليه ، وما كان فضيلة لم يخرج اليه حتى يستأذن أبويه » .

وروى عن مالك انه سئل : عن طلب العلم أهو فريضة على الناس فقال : لا ، ولكن يطلب من المرء ما ينتفع به في دينه .

وروى عن ابن المبارك انه سئل عن معنى هذا الحديث فقال : فريضة على من وقع في شيء من أمر دينه أن يسأل عنه حتى يعلمه .

وروى عن ابن عيينة انه قال : فريضة على جماعتهم ، ويجزىء فيه بعضهم عن بعض وتلا هذه الآية : « فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ » .

ثم اورد ابن عبد البر جملة من المسائل الواجبة وجوبا عينيا ، وجملة من الواجبات الكفائية ، ونحن لا نرى لزوما للتفصيل فانه يلوح من كلام الأئمة المتقدم أن طلب العلم على وجهين : أحدهما الاشتغال بتحصيل مسائله والانقطاع الى تعلم قواعده . وهذا هو الواجب كفاية . وثانيهما السؤال عن حكم ما نزل به من امر دينه واستفتاء أهل العلم فيه وهذا واجب عينا فاحفظ هذا الضابط واعتبر به مسائل دينك يسهل عليك الفرق بين ما هو واجب على عموم المسلمين يسقط عنهم بوجود عالم بينهم ، وما هو واجب عليك في خاصة نفسك لا تبرأ منه ذمتك الا بمعرفته (1) .

٣ ــ براءة رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ممن غير دينه

روى مالك في الموطأ ، وروى غيره أيضا عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ان رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ خرج الى المقبرة فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وانّا إنْ شاء الله بكم لاحقون ، وددت أني قد رأيت اخواننا . فقالوا : يارسول الله ، ألسنا باخوانك ؟ قال : كلا انتم أصحابي . واخواننا الذين لم يأتوا بعد . وانا فرطهم على الحوض .

(١) الصراط : السنة الاولى العدد ١٢ يوم الاثنين ١٦ شعبان ١٣٥٢ هـ ٤ ديسمبر ١٩٣٣ م ، ص ١ ع ١و٢و٣ ص ٢ ع ١

فقالوا : يارسول الله ، كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك ؟ قال : أرأيت لو كان لرجل خيل غر محجلة في خيل دهم بهم الا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : قال يأتون يوم القيامة غرا محجلين من أثر الوضوء . وأنا فرطهم على الحوض . فليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال . أناديهم ألا هلم ألا هلم ألا هلم : فيقال انهم قد بدلوا بعدك ؟ فأقول : فسحقا فسحقا فسحقا » .

تعليق :

قد اتينا هذه المرة بحديث فيه طول . ولكن ما فيه من الفوائد نعتقد انه يكون حافزا للقارىء الى حفظه . وليس حفظ الحديث الجليل بكثير على همة المستفيدين .

وفوائد هذا الحديث أولاها : جواز زيارة القبور ، غير ان الجواز مقيد بكونها على الصفة التي وقعت من رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — ومن أصحابه — رضوان الله عليهم — . وصفة الزيارة في هذا الحديث مركبة من ثلاثة أشياء : أحدها حق الدعاء للموتى ، ثانيها الاعتبار بحالهم ، ثالثها دعاء الزائر لنفسه بحسن الخاتمة . الأول مستفاد من جملة السلام عليكم . والثاني مستفاد من جملة وإنّا بكم لاحقون . والثالث مستفاد من جملة إن شاء الله . فقد قال ابو القاسم الجوهري معناه : « لا نبدل ولا نغير ، نموت على مامتم عليه ان شاء الله تعالى » نقله الباجي في شرح الموطأ .

الفائدة الثانية : تسميته — صلى الله عليه وآله وسلم — لمن لم يره من أمته باخوانه . فنحن من أخوانه — صلى الله عليه وآله وسلم — وكفى بهذه النسبة شرفا . فما على المسلم الا أن يعمل بسنة نبيه — صلى الله عليه وآله وسلم — حتى تتحقق فيه هذه النسبة . وليس من الأدب ومن الايمان ان يستضعف المسلم هذه النسبة ويحاول

تقويتها بنسبة أخرى الى شخص آخر ككونه خوني فلان او حبيبه او درويشه [1] .

وعدم تسميته ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لأصحابه بالاخوان يدل على فضل الصحبة وان لها مزية زائدة على مطلق الاخوة . وهذا لا خلاف فيه .

الفائدة الثالثة : عنايته ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بأمته في الآخرة كما كان حريصا على هدايتهم في الدنيا يدل لهذه العناية قوله : وانا فرطهم على الحوض . قال الباجي في شرحه : يريد انه يتقدمهم اليه ويجدونه عنده . رواه ابن حبيب عن مالك . يقال فرطت القوم : اذا تقدمتهم لترتاد لهم الماء وتهيء لهم الماء والرشاء .

الفائدة الرابعة : ان عنايته ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بأمته في الآخرة خاصة بالثابتين على سنته منهم ، فأما المبتدعون الذين بدلوا سنته وأحلوا محلها بدعتهم فانه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يبعدهم عنه بقوله : فسحقا فسحقا فسحقا .

ثم هذا الابعاد معناه الحرمان من ماء الحوض في وقت شدة الحاجة اليه . فان كان الابتداع والتبديل بالمروق من الدين فالابعاد حرمان من الشفاعة أيضا ، ويبقى ذلك المبتدع مخلدا في النار وان كان الابتداع لا يخرج من الدين ، فالابعاد عن الحوض لا يمنع المبتدع أن تناله الشفاعة، غير ان في الابعاد عن الحوض عذابا بالظمأ وخزيا بالطرد .

نسأل الله ان يحيينا على سنة رسوله الكريم وان لا يحرمنا من ماء حوضه العذب ولا من شفاعته المرجوة [2] .

---

(١) خوني وحبيب ودرويش مترادفة معناها : مريد .

(٢) الصراط : السنة الاولى العدد ١٣ يوم الاثنين ٢٣ شعبان ١٣٥٢ هـ الموافق ١١ ديسمبر ١٩٣٣ م ، ص١ ع١و٢و٣ بقية ص ٢ أسفلها. ص ٢ اسفلها .

٤ ـ الترغيب في الـذكر

قال الحسن البصري وابو العالية والسدى والربيع بن انس :

« ان الله يذكر من ذكره ويشكر من شكره ويعذب من كفره » .

نقله الحافظ ابن كثير في تفسيره (١ : ٣٦٠) .

تعـليق :

الأحاديث والآثار في فضل الذكر والترغيب فيه كثيرة ، وليس فيها على كثرتها ما يدل على احتياج الذاكر الى اذن في ذكره من غيره . وليس فيها على كثرتها ما يدل على ان الله قد نصب بعض عباده لاعطاء الاذن في ذكره لمن يريده .

فاذكروا الله ايها المؤمنون . ولا تتخذوا وسطاء بينكم وبين الله في الاذن بالذكر ولا في قبوله . وما اصدق قول الناس : « بـاب الله ما عليه بواب » .

٥ ـ ما هو الذكر ومن هو الذاكر ؟

عن خالد بن أبي عمران قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم **« من أطاع الله فقد ذكر الله وان قلّت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن . ومن عصى الله فقد نسي الله وان كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن ».**

اخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في شعب الايمان ، نقل ذلك السيوطي في الدر المنثور (١ : ١٤٩) .

وعن سعيد بن جبير انه قال في جواب مسائل سأله عنها عبد الملك ابن مروان :

« وتسأل عن الذكر فالذكر طاعة الله . فمن أطاع الله فقد ذكر الله،

ومن لم يطعه فليس بذاكر وأن أكثر التسبيح وتلاوة القرآن » .

نقله ابن غيلان في شرحه على حلية الابرار للنووي (١ : ١٥) .

تعليق :

قد جمعنا بين الحديث المرفوع والأثر الموقوف على سعيد بن جبير من كبار علماء التابعين لاتحادهما في المعنى وورودهما على غرض واحد، وقدمنا الحديث لأنه الأصل ، وأخرنا الأثر لأنه الفرع الشاهد المقوي لسند ذلك الحديث ..

وقوله في الحديث : وان قلت صلاته ... الخ . يريد صلاة التطوع وصيام التطوع ، اما من قلت صلاته الواجبة أو صيامه الفرض فانه عاص لا يوصف بالطاعة .

وبهذا الحديث وذلك الأثر تعلم المراد من الآيات الآمرة بالذكر . كقوله تعالى : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » وقوله : « اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً » . فليس المراد من الذكر في أمثال هاتين الآيتين خصوصاً الذكر اللساني . بل المراد الطاعة بجميع أنواعها من صلاة وصيام وصدقة وتلاوة قرآن وتسبيح وتحميد وتهليل وغير ذلك . فان المطيع انما اطاع الله لكونه ذكره بقلبه او بلسانه .

وغرضنا من تقديم هذين الحديث والأثر الى القراء أن يعلموا أولا : ان معنى الذكر أوسع مما يتخيلون ، وان بعض من يعدونهم من العباد في غير الذاكرين هم في عرف الشرع من الذاكرين .

وان يعلموا ثانيا : ان ما عليه كثير من العوام من الاعتماد على السبح[1] دون الطاعة هو غرور في غرور وان كثيرا ممن يعد نفسه ويعده الناس من الذاكرين هو في عرف الشرع من الغافلين .

(١) كذا في الأصل ولعله : التسبيح .

فيا أيها المسلمون تثبتوا في الحقائق الشرعية واطلبوا تفسيرها من صاحب الشريعة أو ممن قرب زمنه من زمنه • ولا تعتمدوا في فهم حقائق دينكم على عرفكم وعادتكم فان الجهل بالسنة وخروج امر العامة من يد العاملين بها مما ابتليت به الأمة الاسلامية قديما •

٦ ــ هل ينفع الذكر مع تصدي حدود الله ؟

عن أبي هند الداري عن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ « **قال الله اذكروني بطاعتي اذكركم بمغفرتي فمن ذكرني وهو مطيع فحق عليَّ ان أذكره بمغفرتي ، ومن ذكرني وهو لي عاص فحق علي ان اذكره بمقت** » •

أخرجه الديلمي وابن عساكر • ونقله السيوطي في الدر المنثور (١ : ١٤٨) •

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ انه قيل له : أرات[1] قاتل النفس وشارب الخمر والزاني يذكر الله ، وقد قال الله : فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ؟ قال : « اذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت » •

اخرجه عبد الله بن حميد وابن ابي حاتم نقله في الدر المنثور (١ : ١٤٩)

تعليق :

ان في ذلك الحديث وهذا الأثر لذكرى لقوم يؤمنون • كثيرا ما يعظ المسلم أخاه وينكر عليه تكاسله في الواجبات ونشاطه في المنهيات فيجيبه بقوله ان الله غفور رحيم ، أو نحن أخذنا الورد عن

(١) كذا في الأصل وصوابه : ارايت .

سيدي فلان وقد ضمن لمن يذكر ورده الجنة • فليعلم المسلمون ان ذكر الله على هاته الصفة ونحوها مما يوجب مقت الله ولعنته •

أيها المسلمون من وعظ منكم فليتعظ ، ومن نهى عن منكر فلينته• ومن امر بمعروف فليأتمر (وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون)[1] •

٧ ـ الحث على القرآن

عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ :

« **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** » أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن •

تعليق :

قد تقاصرت همم المسلمين في هذه المدة الأخيرة عن تعليم القرآن وتعلمه • فقل الحافظون له ؛ فعلى كل من نصب نفسه لارشاد المسلمين في دينهم أن يحثهم على العناية بحفظ كتاب ربهم ، وعلى الكتّاب أن يطرقوا هذا الموضوع الكثير النواحي • هذا يأتيه من ناحية فضيلة القرآن وذلك من ناحية اختيار المعلمين وما هي الصفات المطلوبة فيهم ؟ والآخر من ناحية اسلوب التعليم وما هو الأقرب الى التحصيل من أي الأساليب ؟ ورابع من ناحية تحسين حال المعلمين وتوفير أجرتهم ، وكل من هذه النواحي يلزم ان تتعدد فيها الكتابة حتى تحدث تأثيرا في المجتمع وتكون رأيا عاما في الموضوع • وحسبنا في هذا الباب باب الآثار والأخبار ما أرشدنا اليه •

---

(١) الصراط : السنة الاولى العدد ١٤ يوم الاثنين ١ رمضان ١٣٥٢ هـ ١٨ ديسمبر ١٩٣٣ م ، ص ١ ع ١و٢و٣ ص ٢ ع ١

والحديث صريح في فضل من جمع بين تعلم القرآن وتعليمه لغيره وانه خير من غيره ، وانما ثبتت له هذه المزية لأن المراد من متعلمه من حفظه وفهمه وعمل به والمراد من معلمه من يلقنه غيره ويفسره له ويرشده الى العمل به . واذا كان هذا النوع الممدوح في الحديث المفضل على غيره بشهادة الصادق المصدق مفقودا من بيننا أو كالمفقود ، فالواجب علينا السعي في تكوينه ولهذا دعونا الكتاب الى العناية بهذا الموضوع .

قال الحافظ ابن حجر في بيان وجه خيرية معلم القرآن ومتعلمه :

« ولا شك أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره ، جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدى . ولهذا كان أفضل . وهو من جملة من عنى سبحانه وتعالى بقوله :

« وَمَنْ أحْسَنَ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ » . والدعاء الى الله يقع بأمور شتى من جملتها تعليم القرآن وهذا أشرف الجميع » .

هذا كلام ابن حجر . ثم أفاد أن ليس المراد بهذا الحديث من كان قارئا أو مقرئا محضا لا يفهم شيئا من معاني ما يقرأه أو يقرئه .

٨ ـ الاعتصام بكتاب الله

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول :

« أتاني جبريل فقال يا محمد أمتك مختلفة بعدك ! قال : فقلت له : فاين المخرج يا جبريل ؟ قال : فقال : في كتاب الله . به يقصم الله كل جبار ، من اعتصم به نجا ومن تركه هلك (مرتين) قول فصل

وليس بالهزل • لا تخلقه الألسن ولا تفني عجائبه • فيه نبأ من كان قبلكم وفصل ما بينكم وخبر ما هو كائن بعدكم » •

أخرجه الامام أحمد • نقله الحافظ ابن كثير أوائل كتابه فضائل القرآن الذي ختم به تفسيره •

تعليق :

صدق رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – فقد وقع الاختلاف • وقد دعونا الناس الى المخرج وهو كتاب الله وسنة رسوله المبينة له • فقال المعاندون ما قالوا الا من كان يؤمن بأن محمدا رسول الله فليمتثل ارشاده • وقد أرشدنا الى المخرج من هذا الاختلاف فلنعمل بارشاده وهدانا الى طريق الحق عند الالتباس فلنهتد•

وقد وصف الله كتابه بقوله : « هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالْفُرْقَانِ » فهو هدى بين واضح لا يلتبس على مديد الحق التماس الهدى منه •

واذا كانت طباعنا العربية وسلائقنا في فهم لسان العرب قد حالت وفسدت وصعب علينا أو تعذر فهم كلام ربنا ، فان في تعلم اللغة العربية وعلومها ما يجعل لنا سلائق مكتسبة ، وان فيما كتبه أئمة التفسير قبلنا ما يجبر نقص السليقة الكسبية عن السليقة الفطرية •

وقد أوصل الجهل بكتاب الله بعض أدعياء العلم الى أن جعلوا الدعوة الى توحيد الله ونبذ ضروب الشرك طريقة خاصة بابن تيمية على معنى انها بدعة حصلت بعد انعقاد الاجماع ! فمن سلك هذه الطريقة فقد عرض دينه للخطر ! ولو نظروا في كتاب الله وتأملوه لوجدوا جل آياته دعوة الى التوحيد ونبذ الشرك •

واذا ذكرت لهم هذا قالوا : تلك آيات نزلت في مشركي مكة ،

فكيف تطبقونها على من يشهد الشهادتين • وهذا نوع آخر من جهالاتهم وتلبيس ابليس عليهم فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وقد قال تعالى :

« وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » قال المفسرون معناه من بلغه القرآن فتخصيص انذاره بمشركي مكة تعطيل للقرآن •

قال الغزالي في الاحياء :

« وينبغي للتالي أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن • فان سمع أمراً أو نهياً قدر انه المنهي والمأمور • وكذا ان سمع وعدا أو وعيدا • وكذا ما يقف عليه من القصص فالمقصود به الاعتبار •

قال تعالى : « وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » وقال تعالى : « هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ » وقال : « وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » • قال محمد بن كعب القرظي :

« من كلمه القرآن فكأنما كلمه الله عز وجل » أ•هـ كلام الغزالي[1]•

٩ ــ مدح العامل بالقرآن

عن أبي موسى الأشعري ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ :

(١) الصراط : السنة الاولى العدد ١٥ الاثنين ٨ رمضان ١٣٥٢ هـ ٢٥ ديسمبر ١٩٣٣ م ، ص ١، ع ١و٢و٣، ص٢ ع١و٢و١/ من الثاني أسفله.

« المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالاترجة طعمها طيب وريحها طيب . والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها . ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر . ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر وريحها مر » .

رواه البخاري ومسلم وغيرهما

تعليق :

جعل رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ طيب الطعم دائرا مع العمل . وجعل طيب الرائحة صفة التلاوة . والمجدي على المرء هو عمله . أما التلاوة وحدها لا تجدي ، فالمنافق يتلو القرآن ولكنه في الدرك الأسفل من النار .

وقد دل الحديث على أن العمل بالقرآن درجتين[1] أعلاهما الجمع بين التلاوة والعمل . ودل على أن المخالفة لأوامره ونواهيه دركتين[2] أدناهما الجمع بين الأعراض عن حفظه والاضراب عما دعا اليه .

والعمل بالقرآن يقتضي فهم معانيه وكذلك كان المخاطبون بهذا الحديث فان القرآن بلغتهم نزل . ولهذا لم يقل في الحديث :

« **المؤمن الذي يقرأ القرآن ويفهمه ويعمل به** » لأن ذكر الفهم لأولئك المخاطبين حشو ، تتحاشى عنه البلاغة النبوية .

فيا أيها القراء المؤمنون تطلبوا معاني ما تقرأون واعملوا بما تفهمون كي تكونوا اترجة ، ويا أيها المؤمنون الأميون اسألوا أهل الذكر والعلم بكتاب ربكم وتحروا العمل بما دعاكم اليه كي تكونوا ثمرة .

وقد دلت مقابلة القارىء العامل بالقارىء المنافق على تسمية من يخالف ما يقرأه منافقا والمنافقون في الدرك الاسفل من النار وهم

(١و٢) كذا في الاصل وصوابه : درجتان ، دركتان .

أخس صنوف الكفار • ولكنا نجد من الناس من لا يختلف في ايمانه ثم هو يخالف ما يقرأه • وقد قال العلماء : ان هذا النوع من المؤمنين يسمي نفاقهم نفاق عمل لا نفاق كفر • ويسمون منافقين مجازا لان فيهم خصلة من خصالهم وهي مخالفة للأوامر •

فالقارىء ان لم يعمل بما يقرأه فهو منافق حقيقة أو مجازا • أعاذنا الله واياكم من النفاق حقيقته ومجازه وجعلنا ممن يتلو كتابه عالما بمعانيه عاملا بما يفهمه منه •

١٠ ــ ذم المباهي والمتعيش بالقرآن

عن أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ :

« تعلموا القرآن واسالوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسالون به الدنيا • فان القرآن يتعلمه ثلاثة نفر : رجل يباهي به ورجل يستاكل به ورجل يقرأه لله » •

رواه أبو عبيد في فضائل القرآن وصححه الحاكم ، نقله الحافظ في فتح البارىء (٩ : ٨٢) •

تعليق :

حديث أبي سعيد أخرجه الامام أحمد بلفظ آخر وفي آخره : **« ويقرأ القرآن ثلاثة مؤمن ومنافق وفاجر »** وفسر الراوي عن أبي سعيد الفاجر بمن يتأكل بالقرآن ، فقوله في رواية أبي عبيد (ورجل يستأكل به) بمعنى الفاجر في رواية الامام أحمد ، ويكون حينئذ قوله في رواية أبي عبيد (رجل يباهي به) بمعنى قوله في الرواية الاخرى (ومنافق) •

وقد دل الحديث على ذم المباهي بتلاوته • وكثيرا ما يقصد قراء زماننا المباهاة بأصواتهم والفخر بحفظهم ، ولا سيما اذا كانوا يتلون مجتمعين بصوت واحد ، فليحذر من يجد هذا من نفسه ، وليعلم أن كتاب الله هداية تخشع لها القلوب وتستسلم إليها الجوارح •

ودل أيضا على ذم المسترزق بالقرآن وكثير من قراء زماننا لايقصدون من حفظه الا التوسل به للتلاوة على الموتى باجرة ونحو ذلك من الاغراض الدنيوية المحضة •

ولا يتناول هذا الذم من يأخذ الاجرة على تعليم القرآن اذا كانت في مقابلة تعبه وشغل وقته ، ولم يتخذ تعليمه صناعة من الصناعات المادية المحضة بل على هذا المعلم ــ ان أراد السلامة من ذلك الذم ــ أن يكون هو نفسه عاملا بكتاب الله وان يقصد من تعليمه الدعوة الى العمل به •

١١ ــ الغاية من قراءة القرآن

عن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ انه كان يقول :

« أنزل عليهم القرآن ليعملوا به ، فاتخذوا درسه عملا • ان أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته الى خاتمته ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل بـه » •

نقله الثعالبي في تفسيره (١ : ٩)

تعليق :

ذم ابن مسعود من اتخذ تلاوة القرآن عملا • فكيف حال من آجر نفسه للتلاوة وباع عمله ذلك ؟

وللفقهاء خلاف في حصول الأجر لمن يقرأ القرآن من غير فهم ولا

تأمل . وهذا اذا قصد التالي بتلاوته وجه الله تعالى لأن الاخلاص شرط شرعي لترتيب الثواب الاخروي فهل هذا الذي يتلو القرآن من غير فهم باجرة مخلص لله في تلاوته حتى يختلف في اثابته على التلاوة ؟

وقد فتحنا بابا للبحث في موضوع « الفداوي »[1] واللبيب يكفيه ما اقتصرنا عليه[2] .

١٢ ـ معنى ليلة القدر

قال الشوكاني :

« قيل : سميت ليلة القدر لأن الله سبحانه وتعالى يقدر فيها ما شاء من أمره الى السنة القابلة ، وقيل : لعظيم قدرها وشرفها ، وقيل : لأن للطاعات فيها قدرا عظيما وثوابا جزيلا . وقال الخليل : لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة كقوله تعالى :

« وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ـ أي ضيق ـ » .

تفسير الشوكاني (٥ : ٤٥٩) .

تعليق :

هذا كلام الشوكاني حذفنا منه كلمات قليلة لا تؤثر في فهم الرأي .

والأقوال الثلاثة ، الأول ذكرها أيضا محي السنة ابو محمد البغوي في تفسيره .

ولا أرى مانعا من صدق هذه الأقوال مجتمعة ، فهي ليلة قدر

(١) هو الذي يقرأ على الموتى .

(٢) الصراط : السنة الاولى العدد ١٦ الاثنين ١٥ رمضان ١٣٥٢ هـ ١ جانفي ١٩٣٤ م ، ص١ ، ع ١و٢و٣ ، ص ٢ ، ع ١

بمعنى تقدير الأرزاق والآجال وغيرها لوقوع هذا التقدير فيها ، وهي ليلة قدر وشرف لنزول القرآن فيها . وللطاعات فيها قدر وفضل على الطاعات في غيرها ، وهي ليلة تكثر فيها الملائكة بالارض كثرة لا تكون في غيرها لقوله تعالى : « تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا » .

وعلى تفسير القدر بمعنى تقدير أمور الخلق يقال : كيف يتجدد هذا التقدير كل سنة وقدر الله أزلي ؟ وقد نقل البغوي جواب هذا السؤال في تفسيره فقال :

« قيل للحسن بن الفضل : أليس قد قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال : نعم . قيل : فما معنى ليلة القدر ؟ قال : سوق المقادير التي خلقها الى المواقيت تنفيذاً للقضاء المقدر » .

وقد استبان من هذا أن الليلة التي تقدر فيها أمور الخلق هي الليلة التي قال الله فيها : « خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ » . وسماها في آية الدخان مباركة اذ قال : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » . فليلة القدر والليلة المباركة اسمان لليلة واحدة ، هي ليلة انزال القرآن . وهذه الليلة في رمضان لقوله تعالى : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ » وليست في شعبان كما يظنه العوام الذين يفرقون[1] بين ليلة القدر والليلة المباركة ويعتقدون اعتقادا مخالفا للقرآن ، ان الليلة المباركة ليلة النصف من شعبان ، وبعض العوام يسمون ليلة النصف من شعبان « ليلة قسام الارزاق » ولهم في هذه الليلة خرافات يبنونها على أساس الجهالات . وغرضنا من هذا التنبيه ارشاد المسلمين الى معرفة هذه الليلة معرفة صحيحة كما نطق الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وبهذه المعرفة على هذا الوجه تتطهر عقولهم من خرافات وتزول عنهم جهالات .

---

(١) في الاصل : يفوقون .

١٣ ــ معنى خيرية ليلة القدر

عن أنس قال :

« العمل في ليلة القدر والصدقة والصلاةوالزكاة أفضل من ألف شهر »

أخرجه عبد الله بن حميد ، نقله في الدر المنثور (٦ : ٣٧٠) .

تعليق :

بيّن هذا الأثر ــ وفي معناه آثار كثيرة ــ ان خيرية ليلة القدر راجعة الى تفضيل الطاعة فيها والعمل الصالح على غيرها من الليالي والايام.

وهذا يفيد ان المسلم الذي يتطلب ليلة القدر انما يتطلبها ليعمل صالحا ويجد في العبادة ، فالمؤمن انما يطلبها للدين لا للدنيا ، وقد ثبت في الصحيحين عن ابي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ان رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال :

« من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » .

١٤ ــ الدعاء ليلة القدر

عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ انها قالت : يا رسول الله ، ان وافقت ليلة القدر فما أدعو ؟ قال قولي :

« اللهم انك عفو تحب العفو ، فاعف عني » .

رواه احمد والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم . نقله ابن كثير في تفسيره (٩ : ٢٦١) .

تعليق :

ليلة القدر من أوقات الاستجابة فينبغي للمؤمن أن يكثر فيها من

الدعاء ولهذا سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن صيغة تدعو بها تلك الليلة . وقد بيَّن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لزوجه الكريمة عليه صيغة الدعاء ، فيتعين أن يكرر المسلم هذا الدعاء ليلة القدر وأن يفضله على ما سواه لانه لفظ أفضل الخلق الذي علمه لأحب زوجاته .

ثم هذا يؤكد ما قدمناه من ان ليلة القدر تراد للدين لا للدنيا ، وكثير من العوام يتمنى لو يعلم ليلة القدر ليطلب بها دنياه فليتب الى الله من وقع له هذا الخاطر السيء . فان الله يقول في كتابه العزيز :

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ » . وكثير من العوام يعتقدون في بعض البيوتات الغنية أن مؤسس ذلك البيت رأى ليلة القدر فسأل الله أن يجعل ماله ونسله خيرا من مال الناس ونسلهم فكان ذلك ثم يجعلون هذه الميزة الدنيوية دليل[1] على ولاية ذلك الداعي وصلاح ذريته .

وحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ وآية من كان يريد حرث الآخرة وما في معنى ذلك من الآيات والآثار شاهدة بفساد ذلك الاعتقاد وضلال تلك الافكار ، وان الفرق بين التقي والفاجر هو الاقبال على الآخرة أو الاقبال على الدنيا .

ولسنا ننكر على من يطلب الدنيا بأسبابها التي جعلها الله تعالى وانما ننكر على من يكون همه الدنيا دون الآخرة حتى انه يترصد ليلة القدر ليطلب فيها الدنيا غافلا عن الآخرة . ثم يعتقد ان من نال ثروة دنيوية بغير أسباب ظاهرة ليديه فانما ذلك لولايته ودعائه ليلة القدر! .

(1) كذا في الاصل وصوابه : دليلا .

١٥ ــ علامــات ليلــة القــدر

عن ابن عباس : ان رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال في ليلة القدر :

« ليلة سمحة طلقة ، لا حارة ولا باردة ، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء » .

أخرجه ابو داود الطيالسي نقله ابن كثير (٩ : ٢٥٧)

تعليق :

الأحاديث في تعيين ليلة القدر كثيرة متضاربة ، والصحيح انها في رمضان . والراجح انها في العشر الأواخر منه .

وهذه العلامات التي ذكرها الرسول ــ صلى الله عليه وآلــه وسلم ــ ليلة القدر ليس فيها ان السماء تنشق وانه يظهر فيها ألوان من نور كل نور له لون خاص الى غير ذلك من خرافات العوام .

وان مما يؤسف المؤمن ان الأوقات المفضلة في ديننا قد غمرناهــا بالخرافات وصرفنا نفوسنا عما يراد فيها من الطاعات ، فحرمنا من خير كثير وقلما تجد ولياً صالحاً أو وقتا فاضلا ألا وهو محاطا بخرافات تعين ابليس على ابراز قسمه في الاغراء . وتقف حجر عثرة أمــام الداعي المرشد الى الصراط المستقيم . وان مما يؤسف المؤمن ان هذا الشهر ، شهر رمضان ، الذي جمع الله لنا فيه بين الصيام والقيام ، وأودع فيــه أفضل ليالي العــام يقطعه أكثرنا في اللهو والقمــار والنوم والشجار .

أيها المسلمون : طهروا عقولكم من الخرافات ونوّروا قلوبكم بالطاعات ، وانتهزوا فرصة الأوقات المفضلات ، ولا تهملوها فتعود عليكم بالحسرات .

اللهم صلي على من أنزلت عليه « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا الى اللهِ تَصِيرُ الأُمورُ »[1] .

انتهى بحمد الله الجزء الثاني من المجلد الأول
ويليه الجزء الأول من المجلد الثاني

(1) الصراط : السنة الاولى العدد ١٧ الاثنين ٢٢ رمضان ١٣٥٢ هـ ٨ جانفي ١٩٣٤ م ، ص١ ع ١و٢و٣ و ص ٢ ع ١ و ٢

الفهارس العامة

الجزء الأول ـ المجلد الأول

- الآيات المفسرة
- الآيات المستشهد بها
- الأحاديث المستشهد بها
- رجال السند
- رجال الاعلام
- الأمثـــال
- الأماكن والبلدان
- الكتب والمراجع والدوريات
- الموضوعات

فهرس الآيات المفسرة

الجزء الأول

يشير الرقم الأول الى الآية والرقم الثاني الى السورة . وعند الرجوع الى المصحف يكون رقم السورة في اول كل سورة ، ويكون رقم الآية في اول كل آية . وقد اوردنا آيات القرآن المجيد في هذا الفهرس بدون تشكيل ، لانه عند الرجوع الى الآية في متن الكتاب يجدها القارىء تامة الشكل .

الصفحة

حرف الميم :

حرف الواو :

الصفحة

الصفحة

الصفحة

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين
احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما
فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا
كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة
وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا »• • • ٢٢٦
(٢٣و١٧/٢٤)

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل
ولا تبذر تبذيرا • ان المبذرين كانوا اخوان
الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا • وإما
تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل
لهم قولا ميسورا ولا تجعل يدك مغلولة الى
عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا
ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان
بعباده بصيرا » • • • • • • • • ٢٣٩
(٢٦ – ١٧/٣٠)

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى
يبلغ أشدَّه وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا •
وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم
ذلك خير وأحسن تأويلا » • • • • • ٢٥٨
(٣٤و١٧/٣٥)

« ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم
وإياكم ان قتلهم كان خطئاً كبيرا ولاتقربوا الزنى
انه كان فاحشة وساء سبيلا ولا تقتلوا النفس

فهرس الآيات القرآنية المستشهد بها

الجزء الأول

الصفحة

حرف الألف :

الصفحة

الصفحة

حرف الثـاء :

الصفحة

حرف السين :

حرف العين :

حرف الفاء :

الصفحة

الصفحة

الصفحة

حرف الكاف :

حرف اللام :

الصفحة

الصفحة

حرف الميم :

الصفحة

الصفحة

حرف الهـاء :

حرف الواو :

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

فهرس الاحاديث المستشهد بها

الجزء الاول

الصفحة

حرف الالف :

الصفحة

الصفحة

الصفحة

حرف العين :

حرف الفاء :

حرف القاف :

الصفحة

الصفحة

حرف الياء :

الصفحة

فهرس رجال السند

الجزء الأول (١)

حرف الالف :

حرف البـاء :

(١) اعتمدنا على ذكر الاسم الاول دون النظر الى أل التعريف أو ابو أو أم .

حرف الميم :

حرف النون :

حرف الهاء :

حرف الياء :

فهرس الاعلام

الجزء الأول (١)

حرف الألف :

(١) اعتمدنا على ذكر الاسم الاول دون النظر الى ال التعريف أو ابو أو أم واذا شهر العلم بكنيته فاننا نذكر الكنية دون الاسم ، علماً اننا أسقطنا ابن باديس من هذا الفهرس .

حرف البـــاء :

حرف التــاء :

حرف الثـاء :

حرف الجيم :

حرف الحـاء :

حرف الخـاء :

حرف الـدال :

حرف الـذال :

حرف الراء :

حرف الزاي :

حرف السين :

حرف الشين :

حرف الصــاد :

حرف الطــاء :

حرف الظـاء :

حرف العـين :

حرف الغين :

حرف الفاء :

حرف القاف :

حرف الكاف :

حرف اللام :

حرف الميم :

حرف النون :

فهرس الامثال

الجزء الاول

فهرس الأماكن والبلدان

الجزء الاول

حرف الالف :

حرف البــاء :

حرف الفـاء :

حرف القاف :

حرف الـلام :

حرف الميـم :

حرف النون :

حرف الهـاء :

حرف الـواو :

فهرس الكتب والمراجع والدوريات

الجزء الأول

حرف الالف :

---

(١) جريدة او مجلة .

حرف التـاء :

حرف الـذال :

حرف الـراء :

حرف الزاي :

حرف السين :

حرف الشين :

حرف الصـــاد :

(١) انظر البخاري ومسلم في الاعلام ورجال السند

حرف الطـاء :

حرف الظـاء :

حرف العـين :

حرف النون :

حرف الهـاء :

حرف الواو :

فهرس الموضوعات

الجزء الأول

صفحـــة

صفحـة

صفحة

صفحة

العلم والاخلاق :

آية الاخلاق :

القول الحسن :

دعاء غير الله :

صفحـة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

جزاء عباد الرحمن :

قيمة العباد عند ربهم بقدر عبادتهم :

الفهرس العام :

الفهارس العامة

الجزء الثاني ـ المجلد الأول

فهرس الآيات المفسرة

في الجزء الثاني

يشير الرقم الأول الى الآية والرقم الثاني الى السورة . وعند الرجوع الى المصحف يكون رقم السورة في اول كل سورة ، ويكون رقم الآية في اول كل آية . وقد اوردنا آيات القرآن المجيد في هذا الفهرس بدون تشكيل ، لانه عند الرجوع الى الآية في متن الكتاب يجدها القارىء تامة الشكل .

فهرس الأحاديث المفسرة

في الجزء الثاني

الصفحة

الصفحة

حرف اللام :

الصفحة

حرف الميم :

حرف النون :

فهرس الآيات القرآنية المستشهد بها

في الجزء الثاني

الصفحة

حرف الألف :

الصفحة

الصفحة

حرف السين :

حرف الشين :

حرف الطاء :

حرف الفاء :

الصفحة

حرف القاف :

الصفحة

الصفحة

الصفحة

فهرس الاحاديث المستشهد بها

في الجزء الثاني

الصفحة

حرف الالف :

الصفحة

حرف البـاء :

الصفحة

الصفحة

الصفحة

فهرس رجال السند

في الجزء الثاني (1)

حرف الالف :

حرف البـاء :

---

(1) اعتمدنا على ذكر الاسم الاول دون النظر الى ال التعريف أو ابو أو أم .

حرف الخـاء :

حرف الـدال :

حرف الراء :

حرف الزاي :

حرف السين :

حرف الشين :

حرف الصاد :

حرف الطاء :

فهرس الاعلام

في الجزء الثاني

حرف الألف :

حرف الجيم :

حرف الحـاء :

حرف الخـاء :

حرف السين :

حرف الشين :

حرف الصـاد :

حرف الغـين :

حرف الفـاء :

حرف القاف :

حرف الكاف :

حرف النون :

حرف الهــاء :

حرف الواو :

حرف اليـاء :

فهرس الامثال

في الجزء الثاني

فهرس الأماكن والبلدان

في الجزء الثاني

حرف السين :

حرف الشين :

حرف القاف :

حرف الميم :

حرف النون :

حرف اليـاء :

فهرس الكتب والمراجع والدوريات

في الجزء الثاني

حرف الألف :

حرف التـاء :

حرف الجيـم :

حرف الميم :

فهرس الموضوعات

في الجزء الثاني

صفحة

صفحـــة

صفحة

صفحـــة

صفحـة

صفحـــة

صفحة

صفحـة

صفحة

صفحة

الفهرس العام :

Quand il édite à ses frais « El Awacim min El - Kawacim » d'Abi Bakr Ibn El-Arabi, cette édition (malgré ses lacunes), est une affirmation d'une personnalité qui agit à l'échelle historique d'une civilisation.

ALGER, le 8.4.1966

MALEK BENNABI

(1) ادب واقتـــداء — Comparaison Coran-Bible

(2) بيانه لهم ، حجته عليهم — Application à l'action islahiste

(3) تمثيـــل

(4) ادب واقتـــداء

(5) نعمة الاظهار والبيان بالرسول والقرآن

(6) محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن نور وبيـــان

(7) استفادة

(8) اقتـــداء

(9) الهـــداية ونوعهـــا

(10) بماذا تكون الهداية

(11) لمن تكون الهداية

(12) الى ماذا تكون الهداية

(13) الاخراج من حالة الحيرة الى حالة الاطمئنان

(14) الاسلام هو السبيل الجامع العام

(15) الرجوع الى كتاب الله وسنة رسول الله لازم دائم

Si on applique notre propre analyse à ce thème, on voit que le Cheikh à traversé l'exégèse de ce verset, nous a donné en quelque sorte ce spectre de son moi : c'et l'apologiste, le critique, l'érudit, le réformateur, le mystique qui parlent, tour à tour.

La richesse de ce moi n'est pas d'ailleurs toute révélée dans un seul acte de cette pensée, de cette gesta qui ont animé une époque de notre histoire nationale.

Le lecteur ne doit pas oublier qu'Ibn Badis est aussi un intellectuel qui vit le drame d'une société et d'une civilisation à sa manière.

Cet éditorial était toujours signé du Cheikh : c'était l'œuvre du âlem, du prédicateur, du réformateur, de l'érudit. D'ailleurs si, pour une raison ou une autre Ibn Badis n'était pas à Constantine, la revue paraissait sans cette rubrique qui constituait, en fait, la pièce maîtresse de chacun de ses numéros.

Cette rubrique a duré de Janvier 1929 au numéro de Septembre 1939, à la veille de la IIe guerre mondiale.

On peut juger de son importance doctrinale et même dialectique - car il ne faut pas oublier qu'en plus de son rôle par rapport à l'opinion publique algérienne, le Cheikh est aussi le maître qui enseigne dans un établissement où se formeront tous les dirigeants de notre enseignement libre, même nos poètes comme Hamma Laïd - il faudrait analyser une de ses séances.

Cette analyse nous est d'ailleurs donnée par le Cheikh lui-même dans les sous-titres qu'il donna à chacune de ses séances. Sous le titre, il y a les deux principaux thèmes : le Hadith et le verset objets de la séance. Chaque thème a ensuite ses propres sous-titres. Ainsi donc à titre d'exemple, dans le n° de Juin 1935, c'est le verset :

« يا أَهْلَ الكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثيراً مِمّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتابِ وَيَعْفو عَنْ كَثيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نورٌ وَكِتابٌ مُبينٌ ، يَهْدي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ بِإذْنِهِ وَيَهْديهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ » [1] .

qui est l'objet de l'exégèse.

Le Cheikh tirera de ce verset quinze sous-titres :

(١) سورة المائدة : الآيتان ١٥ ـ ١٦ .

Ibn Badis était venu à un moment où le maraboutisme avait renouvelé le cycle almohavide. Mais singulière aggravation : le cycle n'avait pas repris avec le fiqh et le ribat mais avec l'amulette et la zaouia.

Le réformateur algérien ne pouvait pas cependant, comme son prédécesseur, aspirer à fonder un empire pour libérer les consciences. Les temps avaient changé : la colonisabilité et le colonialisme avaient transformé toutes les données en Algérie, comme dans tout le monde musulman. Les conditions étaient telles qu'il fallait entreprendre en sens inverse l'entreprise du précurseur : pour entreprendre quoi que ce soit dans l'ordre politique ou social il fallait d'abord libérer les consciences.

Toute la doctrine de l'Islah algérien qui s'incarne en Ben Badis découle de cette nécessité ou de cette conjoncture particulière. Le principe fondamental « Dieu ne change pas l'état d'un peuple avant que celui-ci n'ait changé l'état de son âme » qui fut celui de l'Islah, pourrait être considéré, à certain égard, comme la traduction de cette nécessité dans une formule doctrinale. On voit de là les vicissitudes auxquelles pouvait être exposé un tel principe dans son application, quand on se trouverait, ou qu'on se croirait obligé de faire une concession à la politique sur l'intégrité et la rigueur de la doctrine.

Toute la critique du mouvement islahiste algérien peut être dirigée sur ce point. Pour rester dans notre sujet, disons que nous n'avons pas à juger l'œuvre de Ben Badis, avec la rigueur scientifique qui mets les résultats au regard des prémisses et les prémisses elles-mêmes en confrontation avec les lois de l'histoire et de la sociologie. Au demeurant cette œuvre est, elle-même, aussi riche en aspects que la personnalité de son auteur.

Le lecteur pourra saisir cette diversité en lisant le travail que lui présente Talbi Amar. Dans cette préface, il suffira de situer notre centre d'intérêt dans un des aspects les plus caractéristiques de la pensée. Je veux parler de l'éditorial qui venait, sous le titre : Madjalis El-Tedkir en tête de chaque numéro de la revue Ech-Chihab.

aspects si divers, si riches qu'on peut toujours aborder son étude selon une dimension qui libère l'esprit du contingent, du relatif.

Ibn Badis fut un polémiste au verbe mordant, un éducateur édifiant, un croyant fervent, un mystique passionné, un docteur qui remonte aux sources doctrinales de la foi et songe à rétablir entre ces sources une concordance perdue de vue dans les dernières périodes de la pensée islamique.

C'est aussi le patriote convaincu. Quand un leader politique publie, en 1936, un article intitulé « La France c'est moi », il se dresse contre l'apostasie avec véhémence. Quand l'émeute de Constantine éclate, au mois d'Août 1934, que l'administration essaye de ramener le calme, il est partisan du calme, mais il n'admet pas l'offense faite à l'Islam par un Juif qui a profané une mosquée.

C'est l'élan patriotique aussi, qui devient chez lui élan poétique, quand il compose ses poèmes destinés à restituer au peuple algérien ses dimensions véritables, dans l'histoire musulmane, à une époque où on apprenait aux petits algériens à annoner dans leur manuel d'école l'histoire de «nos ancêtres les Gaulois».

Mais par dessus tout, Ibn Badis c'est le réformateur dont le nom et l'œuvre s'attachent à l'histoire de ce pays, dans une phase capitale qui le préparait à la révolution, à condition de mettre dans ce mot plus d'acception qu'on y met d'habitude.

C'est le réformateur qui reprend la vocation du Alem musulman, comme à l'époque d'Ibn Toumert en Afrique du Nord.

Le Maghreb revivait d'une certaine manière la période à laquelle avaient mis fin la prédication du Mahdi de l'Atlas marocain et le sabre d'Abdel Moumen. L'époque almohavide, on le sait, avait marqué un glissement de la conscience musulmane dans le juridisme. Ibn Tameurt était venu en réaction contre l'esprit étroit des fquis. Sa prédication remettait la conscience musulmane sous la loi du Coran et de la Sounnah.

النص الافرنسي للمقدمـة التي كتبها
المفكر الجزائري الاستاذ مالك بن نبي ،
مدير التعليم العالي في الجزائر ، ونشرت
ترجمتها العربية في مطلع هـذا الكتاب :

J'ai connu l'auteur de ce livre pendant ses années d'études à l'Université du Caire. Je le comptais au nombre de mes amis et auditeurs, parmi les étudiants de divers pays musulmans qui venaient à l'espèce de séminaire qui se tenait à mon domicile, le vendredi de chaque semaine.

C'est donc avec un double plaisir que je présente ici son étude sur Ibn Badis. Combien un tel sujet était tentant dans un pays où les témoins de la vie et de l'action du Cheikh sont encore nombreux.

Mais combien épineux aussi tant il est vrai que le jugement d'un contemporain sur les faits et les hommes de son époque ne peut pas être toujours exempt d'une optique personnelle.

Moi-même, j'éprouve le trac à présenter un livre qui embrasse nécessairement des idées et des faits dont je fus le partisan ou l'adversaire. Mais la personnalité du Cheikh réunit des

انتهى ـ بعون الله تعالى ـ الجزء الثاني من المجلد الأول من هذا الكتاب ، وقد اشتمل على دروس الأستاذ الامام الشيخ عبد الحميد ابن باديس في التفسير وشرح الأحاديث .

والمجلد الثاني مؤلف من جزاين اثنين أيضاً ، نشرت فيهما المقالات الاجتماعية والتربوية والأخلاقية والدينية والسياسية التي كتبها الأستاذ ، ونشرت في الصحف التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وقد كان لتلك المقالات والبيانات الأثر الفعال في نهضة الجزائر وفي تنوير الأذهان والتنبيه الى الشيء العام .